الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جـــــامــعة ســـــــــطيف 2

كليّة الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير

تخصص: النّحو الوظيفي

إعداد الطّالب: صافي الدّين لعبابسة

عنـوان المذكّـرة

أسلوب القصـــر في القـــــــرآن الكريـــــم
البنيـــــة والوظيفـــــــــــة

أعضاء لجنة المناقشة:

أ د. عزّالدّين صحراوي	أستاذ	جامعة باتنة	رئيسا
د. كمـــال قـــادري	أستاذ محاضر ـ أ ـ	جامعة سطيف 2	مشرفا ومقرّرا
د. محمّد بـــــوّادي	أستاذ محاضر ـ أ ـ	جامعة سطيف 2	عضوا ممتحنا
د. الزّبير القـــــلّي	أستاذ محاضر ـ أ ـ	جامعة سطيف 2	عضوا ممتحنا

السّنة الجامعيّة: 2013/ 2014م.

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

UNIVERSITE SETIF2

مقدّمة:

بسم الله الرّحمان الرّحيم

الحمد والشّكر لله ربّ العالمين وبه نستعين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق أجمعين؛ سيّدنا محمّد وعلى آله الطّاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد:

يمكن للباحث في ميدان اللّسانيات وتاريخ الفكر اللّغوي واتّجاهاته أن يميّز بين تيارين أساسيين: صوري (وصفي بنيوي)، يقف في مقاربته للّغات الطّبيعيّة عند بنيتها لا يتعدّاها، وتيار وظيفي يحاول وصف بنية اللّغات الطّبيعيّة بربطها بما تؤدّيه هذه اللّغات من وظائف داخل المجتمعات البشريّة.

وتعدّ اللّغة في المقاربة الصّوريّة موضوعا مجرّدا، فهي نظام من العلامات ومجموعة من الجمل تربط بين مكوّناتها علاقات تركيبيّة صرفية ودلاليّة، ودراستها العلميّة لابدّ أن تكون بالنّظر إليها في ذاتها، وبوصفها كيانا مغلقا له زمان محدّد، معزول عن كلّ المؤثّرات الخارجيّة، ومن أجل ذاتها؛ وذلك حين يكون الهدف هو استكشاف واستنباط القوانين الّتي تحكمها من أجل فهمها كظاهرة اجتماعيّة، فنعرف وحداتها وكيفيّة تعالق هذه الوحدات، والتّراكيب الّتي تجوّزها أو ترفضها، وقاد هذا التيار السويسري فردناند دي سوسير.

أمّا حسب المقاربة الوظيفيّة فإنّ اللّغة أداة تسخّر لتحقيق التّواصل داخل المجتمعات، فاللّغات الطّبيعيّة وسائل تستخدم لتأديّة وظائف تبليغيّة معيّنة، وتقارب خصائصها البنيويّة على هذا الأساس، أي القدرة التّبليغيّة بدل القدرة اللّغويّة الّتي صار ينظر إليها على أنّها إحدى مكوّناتها فقط، ولا قيمة للّغة ككيان مستقلّ، وهي ليست قوالب وصيغا وتراكيب مقصودة لذاتها؛ وإنّما هي موجودة للتّعبير عن الوظائف المختلفة؛ كالطّلب والترجّي والأمر والنّهي...

ومن الاتّجاهات من يرى أنّ دراسة اللّغة باعتبار الوظيفة يكون من خلال الوظائف اللّغويّة الدّاخليّة لمكوّناتها، وذلك بتحديد وظائف بنية الجملة التّركيبيّة والصّوتية؛ وقد يتعدّى هذا إلى الاهتمام بتمثيل الوظائف الدّلاليّة، وأبرز من مثّل هذا الاتّجاه مدرسة براغ، والوظيفيّة الفرنسيّة بزعامة أندري مارتيني، وهي لم تدرج في وصفها مستوى لتمثيل الخصائص المقاميّة التّداوليّة، بل ركّزت على الأشكال البنيويّة ذات الطّابع المادّي الّذي يسهل حصره وضبطه وتقنينه ودراسته دراسة علميّة، ووصف خصائص

اللّغة بربطها بوظيفة التّعبير عن الفكر لا باعتبارها وظيفة للتّواصل الاجتماعي، ومن ثمّة فقدرة المتكلّم/ السامع هي معرفة القواعد الصّوتيّة، والتّركيبيّة والدّلاليّة.

وفي نهاية السّبعينات ظهرت ردّة فعل جديدة، تمثّلت في نظريّة النّحو الوظيفي التّداولي؛ بزعامة سيمون ديك الهولندي، حيث مثّل للجانب التّداولي، ووسّع النّظر نحوَ بناء نحوٍ يربط بين البنية والوظيفة، على أساس أنّ الوظيفة تحدّد البنية، ويكون المكوّن الدّلالي والتّداولي سابقين للمكوّن الصّرفي التّركيبي.

فأعيد الاعتبار للنّظريات السّياقية وإدخالها مجال اللّسانيات بقوّة، وتمّ ربط العبارات اللّغويّة بوظائف تداوليّة؛ تحكمها سياقات مقاميّة معيّنة، وشبكة من العلاقات الاجتماعيّة المنظّمة لمقاصد المتخاطبين والمنطقيّة الّتي تتضمّنها محاوراتهم.

وبهذا فلا تمييز بين قدرة نحويّة وقدرة تداوليّة، وإنّما هي قدرة تواصليّة، تضاف لها معرفة النّسق اللّغوي والمعارف السياقيّة، فيستحضر المتكلّم / السّامع أثناء إنتاج عبارات لغته أو فهمها كلّ هذه المعارف، وتقوم المعرفة النّحويّة بالدّور المركزي، وينظر هذا الاتّجاه إلى الأبعاد التّداوليّة على أنّها علاقات قائمة بين مكوّنات الجملة، على غرار العلاقات التّركيبيّة والدّلاليّة، وعليه ينبغي عند تحليل الجملة أن يكون ثمّة تمثيل للوظائف التّداوليّة كما للوظائف التّركيبيّة والصّوتيّة والدّلاليّة، لتتحقّق الأهداف التّواصليّة، وليحصل التّفاهم يجب أن يتّسع الكلام ليشمل الظّروف الخارجيّة المحيطة دون الاقتصار على الارتباطات اللّغويّة الداخليّة فقط، فهذا فيرث يرى أنّ المعنى لا يعتمد على الأصوات والكلمات والأبنيّة فحسب بل يعتمد كذلك على السّياق، ويرى بالمر أنّ علم الدّلالة لا يجب حصره في مجال لغوي خالص؛ فمن شأن هذا أن يمدّنا بنظريّة لغويّة ضيّقة؛ يصعب معها التّعامل مع المعنى كما ينبغي، ويؤكّد لاينز أنّ الباحث لا يستطيع أن يقدّم تقريرا شاملا عن معنى جملة دون أن يبيّن الصلات الّتي تربط الجمل بالسّياق، كما يذكر اللّساني الفرنسي ميبه أنّ الكلمة الحقيقيّة هي الكلمة في السّياق وأنّ الكلمات ليس لها معان وإنّما لها استعمالات، وأنّ هذه الاستعمالات تخرج بها من محيط اللّغة السّاكن إلى محيط الكلام المتحرّك.

ويرى أحمد المتوكّل أنّه يجب النّظر إلى اللّغة على أنّها أداة لفهم وظيفتها، ولا يكون ذلك إلاّ في إطار عوامل رئيسيّة ينتظمها الموقف الكلامي، وهي المتكلّم والمستمع والأشياء، ويقوم الرّمز اللّغوي على التّواؤم مع هذه العوامل.

فسعى أصحاب هذا الاتّجاه إلى إضافة المكوّن التّداولي جنبا إلى جنب مع المكوّن التّركيبي والدّلالي، واتّخذ هذا المكوّن التّداولي وضعا قاعديّا مع المكوّنات الأخرى، وأسهم في إمدادها بما تحتاجه لتحقيق الكفاية التّفسيريّة والتّواصليّة.

والمطّلع على التّراث اللّغوي والبلاغي والأصولي العربي يجد أنّ ثمّة قدرا معقولا من توافق النّظر بين تلك الدّراسات والمعطيات المعاصرة، خاصّة ضرورة الرّبط بين بنية المقال ومقتضيات المقام، فتراثنا اللّغوي زاخر بالرّؤى والأفكار الّتي تعنى بمعالجة البنية اللّغويّة من خلال ربطها بسياقات لغويّة وغير لغويّة، ولا يقتصر هذا على البلاغيين فحسب، بل شمل غيرهم، فهذا سيبويه في الكتاب نراه يفسّر ما يعرض في بناء المادّة اللّغويّة من ظواهر مخالفة لأصول النّظام النّحوي باللّجوء إلى السّياق والعناصر غير اللّغويّة، وهناك من علمائنا من حدّدوا أوصافا بنيويّة لظواهر مقاميّة مرتبطة بها، ولا يخفى علينا ما طرحوه من أوصاف بنيويّة لظاهرة القصر والحصر والتّخصيص وظاهرة العناية، وظاهرة التّوكيد وغيرها من الظّواهر المقاميّة التّداوليّة، فإسناد وظيفة من هذه الوظائف إلى أحد مكوّنات الجملة تحدّد بنيتها، فقصد الاختصاص مثلا كان من دواعي تقدّم المفعول به في جملة القصر؛ في قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾، كما ينصّ على هذا الزّمخشري، وفي قولك: «زيدا ضربت» تخصيص له بالضّرب دون غيره، ويرى ابن الأثير في تفسير قوله تعالى: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشّاكرين﴾: بأنّه إنّما قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ ولم يقل اعبد الله؛ لأنّه إذا تقدّم وجب قصر العبادة واختصاصها به دون غيره ولو قال اعبد الله، لجاز إيقاع الفعل على أيّ مفعول شاء.

ففسّروا بنية العبارة اللّغويّة انطلاقا من المقامات، وقصد المتكلّم وحال السّامع، ولاشكّ أنّ هذا الطّرح التّراثي يؤكّد اشتراك أصحابه مع ما يقدّمه الدّرس الوظيفي المعاصر من أنّ ثمّة ارتباطا بين الخصائص البنيويّة للعبارات اللّغويّة والأغراض التّواصليّة الّتي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها.

ومن البراهين المؤكّدة على هذا الاشتراك بين التّراثي والمعاصر حول تصوّر طبيعة اللّغة ووظيفتها؛ تناول ابن جنّي لمفهوم اللّغة؛ إذ حدّها بأنّها: (أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم)، فربط بين ثنائيّة الأصوات والأغراض، ومراده بالأصوات تركيب الألفاظ بحسب نظام القواعد، وأنّها تتميّز بكونها وظيفيّة، وإلى هذا النوع من الدّراسات يمكن أن نصنّف هذا البحث الموسوم بعنوان:

أسلوب القصر في القرآن الكريم؛ البنية والوظيفة.

وكان من الأسباب الّتي دفعتني إلى البحث في هذه الظّاهرة اللّغويّة المرتبطة بالمقام، ودراستها دراسة وظيفيّة، شيوعه في الاستعمال وارتباطه بوظائف كثيرة، وقدرة أسلوبه على تحقيق الكفايات المطلوبة، والأثر الّذي يتركه في المتخاطبين.

يضاف إلى ذلك الرّغبة في الوصل بين النّظريّة اللّغويّة التّراثيّة والاتّجاهات الحديثة، والّتي صارت مطلبا ضروريّا وأمرا لازما ومهمّا ونافعا، لتبيين مدى أهميّة الرّبط بين الفكر اللّساني المعاصر والتّراثي القديم.

وكذلك الرّغبة في تقريب هذا الموضوع المتناول في الدّرس القديم بمنظور النّحو الوظيفي المعاصر، الّذي سلكه سيمون ديك وأحمد المتوكّل وغيرهم، ومحاولة الكشف عن العلاقة بين بنية جملته والوظيفة الّتي تؤدّيها، علما أنّ هذا الموضوع درسه الكثير من البلاغيين القدامى؛ من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، والزّمخشري وابن الأثير، غير أنّ دراساتهم امتازت بشموليّة مزجت بين ما هو نحوي يتناول البنية التّركيبيّة وما هو بلاغي يتناول الأسلوب.

وحاولت هذه الدّراسة الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من قبيل: إذا كانت للّغة وظيفة؛ فهل لهذه الوظيفة علاقة بالتّركيب؟ أم إنّ التّركيب بمفهومه الواسع شيء مستقلّ تحكمه ضوابط داخليّة لا تأثير للوظيفة فيها، ومن ثمّة يمكن دراستها ووصفها وتفسيرها خارج ارتباطها بأيّ شيء آخر كما يرى شومسكي؟ وهل للّغة وظيفة واحدة أم وظائف متعدّدة؟ وهل بينها أسبقيّة معيّنة؟ ما المقصود بمبدأ «الوظيفة تحدّد البنية»، وما موقعه في الدّراسات العربيّة القديمة وفي النّحو الوظيفي المعاصر؟ وكيف يمكن الرّبط بين دراسات القدامى وما جاء به النّحو الوظيفي المعاصر؟ أو أين تظهر ملامح المنحى الوظيفي في التّراث العربي؟ وما هي العلاقة بين النّحو والبلاغة وعلم الأصول؟ وما مدى إمكانيّة إقامة حوار تقارضي بين الفكر اللّغوي العربي والفكر اللّساني الغربي؟ وأيّ المناهج أنسب؟.

وبعد التّفكير اهتديت بعون الله تعالى إلى وضع خطّة للبحث.

تضمّنت هذه الخطّة لتحقيق أهداف الدّراسة ما يلي: بعد المقدّمة، مهّدت للبحث بمدخل: تحدّثت فيه عن بعض المفاهيم المتعلّقة بأسلوب القصر كما عرّفها البلاغيّون، وولي ذلك ثلاثة فصول؛

الأوّل عنون بـ: القصر عند القدماء وبلاغته في القرآن الكريم، وتضمّن مبحثين:

المبحث الأوّل؛ القصر عند القدماء:

1ـ عند علماء النّحو؛

2ـ عند علماء البلاغة؛

3ـ عند علماء التّفسير والأصول؛

والمبحث الثّاني؛ بلاغة أسلوب القصر في القرآن الكريم، تحدّثت فيه عن:

دلالة جملة القصر ودور السّياق والمقام في تحديد نوع القصر ووظيفته، ثمّ موازنات بين طرق القصر (أوجه الاتّفاق والاختلاف)، وختمت المبحث بذكر بعض الأسرار البلاغيّة والجماليّة.

ويلي ذلك؛ الفصل الثّاني بعنوان: بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي المعاصر؛ وقسّمته إلى تمهيد تحدّثت فيه عن: مفهوم البنية والوظيفة. وأربعة مباحث؛

أمّا المبحث الأوّل؛ فخصّصته للبحث في الوظيفيّة البنيويّة، حلقة براغ وأندري مارتيني أنموذجا؛

وأمّا المبحث الثّاني فخصّصته؛ لوظائف اللّغة الأخرى.

ثمّ المبحث الثّالث؛ الّذي تحدّثت فيه عن بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي التّداولي.

وأمّا المبحث الرّابع؛ فيتحدّث عن دور المقام والسيّاق في تحديد بنية ومعنى جملة القصر.

يلي ذلك؛ الفصل الثّالث بعنوان؛ نقد وتقويم، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأوّل؛ نقد الجانب البلاغي.

والمبحث الثّاني؛ نقد النّظريّة الوظيفيّة؛ ووظيفيّة النّحاة والبلاغيين والأصوليين والمفسّرين.

والمبحث الثّالث؛ مقاربة بين التّراث اللّغوي العربي والنّظريّات الوظيفيّة.

والمبحث الرّابع؛ تقويم. وأخيرا خاتمة: ــ وتضمّنت أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث.

وختمت ذلك بإحصاء آيات القصر في القرآن الكريم في جدول ووفق حقول دلاليّة.

والمنهج الّذي اتّبعته في البحث هو المنهج الاستقرائي الوصفي التّحليلي الوظيفي، الّذي حاولت من خلاله توضيح بنيات ووظائف أسلوب القصر في القرآن الكريم، ولم أتقيّد بسورة أو جزء منه كمدوّنة لشيوع هذا الأسلوب في القرآن الكريم، ولتشابه بعض البنيات في التّركيب واختلافها في الوظيفة والغرض، أو العكس، ممّا يحتّم البحث في الفروق بينها، وتبيين سبب ذلك، ولتكون النّتائج المتوصّل إليها دقيقة، ولأنّ العناية ببعضها دون البعض المشابه لها يترك الاستفهام قائما حول بنيتها ووظيفتها، ولتجنّب ذلك اعتمدت ما تيسّر لي البحث فيه من أساليب القصر في القرآن الكريم.

وفيما يخصّ المصادر والمراجع الّتي اعتمدتها فقد توزّعت بين القديمة والحديثة، وتنوّعت بين النّحو والبلاغة وعلم الأصول واللّسانيّات الحديثة، والنّحو الوظيفي والنّقد، أهمّها دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني والكشّاف للزّمخشري، وأسلوب القصر في القرآن الكريم لصباح عبيد درّاز، ودلالات التّراكيب لمحمّد محمّد أبي موسى، وروح المعاني للألوسي، وإرشاد العقل السّليم لأبي السّعود، والتّحرير والتّنوير لمحمّد الطّاهر بن عاشور، والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي، والبرهان للزّركشي، وكتاب أهم المدارس اللسانية لعبد القادر المهيري، ومدخل إلى اللّسانيّات لمحمّد محمّد يونس علي، وبعض كتب أحمد المتوكّل، منها؛ الوظيفة والبنية، (مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة)، وآفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفي، والوظيفة بين الكليّة والنّمطيّة، والوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة... غيرها، بالإضافة إلى بعض الرّسائل والمقالات حول النّحو الوظيفي.

وقد وجدت بعض الصّعوبات؛ باعتبار الموضوع يجمع بين القديم والحديث، كما أنّ النّحو الوظيفي لم تتحدّد ملامحه النّهائيّة؛ خاصّة في مجال التّطبيق في القرآن الكريم، ممّا ترتّب عنه قلّة المراجع الّتي تعالج هكذا دراسات، وصعوبة الحصول عليها، والخوف من الزّلل والوقوع في الخطأ عند تحليل آيات الذّكر الحكيم، فتطلّب ذلك في كثير من المرّات إعادة النّظر في الصّياغات والعودة إلى مختلف التّفاسير للوصول إلى المرام، والابتعاد عن بعض الأفكار خشية الحياد عن المعنى الحقيقي المقصود من النّصّ القرآني، إلاّ أنّ ذلك كان في الوقت نفسه مشجّعا للبحث والمزيد من الاجتهاد، لاسيما بعد تشجيع أستاذي المشرف الدّكتور كمال قادري، الّذي كان نعم الدّافع والمحفّز، فشكرا جزيلا له وبارك الله فيه لعنايته وكرمه معي، وشكرا لكلّ من مدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد. والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه الميامين.

مـــــدخل

مفاهيم متعلّقة بأسلوب

القصر

مدخل : مفاهيم متعلّقة بأسلوب القصر.

1ـ تعريف القصر :

أ ـ لغة : (القصر) من قَصَرَ؛ يَقْصُرُ قَصْرًا، فهو مقصور وهي مقصورة، يقول أحمد بن فارس : (القاف والصّاد والرّاء أصلان صحيحان، أحدهما ألاّ يبلغ الشّيء مداه ونهايته، والآخر على الحبس، والأصلان متقاربان)[1]، وقَصَرْتُ الشَّيءَ إذا حبسته، وقيل : من قَصَرَ الشَّيءَ على كذا إذا لم يتجاوز به إلى غيره، جاء في جمهرة اللّغة : (القَصْرُ واحد القُصُورِ، والقَصْرُ العَشِيُّ بين اصفرار الشّمس إلى غروبها، والقَصْرُ من قولهم : "كان ذلك قَصْرِي وقُصَارَايَ" أي ما اقتصرت عليه، وجاريّة مَقْصُورَة في خدرها أي محبوسة)[2]، ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي (لا يخرجن، محبوسة في الخيام، محتجبة فيها لا يراهنّ غير من كان معهنّ في الخيام)[3]، وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ ﴿الصَّٰفَّٰت﴾، وامرأة قَاصِرَةُ الطّرف لا تمدّه إلى غير بعلها كأنّها تحبس طرفها حبسا، والنّساء القَصَائِرُ كذلك، وأمّا قول كثير عزّة :

أُحِبُّ مِنَ النِّسْوَانِ كُلَّ قَصِيرَةٍ لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ قَصِيرُ[4]

فالقصيرة المخدّرة، ذات النّسب القصير، الّتي تكتفي باسم أبيها.

ووردت مادّة " قصر" في القرآن الكريم إحدى عشرة مرّة لأكثر من أصل[1]؛ منها : القَصْرُ بمعنى الكفّ؛ كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ ﴿الأَعْرَاف﴾،

1ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، تح : عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر، 1979م، دط، مادّة (ق ص ر)، ج : 5، ص : 96.

2ـ ابن دريد، أبو بكر محمّد بن الحسن، جمهرة اللّغة، تح : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 1، 1987م، باب (ر ق ص) ج : 2، ص : 742.

3ـ كافي، أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف بن محمّد البدوي المنياوي على شرح حلية اللب المصون للشّيخ أحمد الدّمنهوري، وبهامشها حلية اللّب المصون بشرح الجوهر المكنون في المعاني والبيان والبديع، لسيدي عبد الرّحمان الأخضري، مطبعة مصطفى البابي، مصر 1443هـ، ص : 104.

4ـ ديوان كثير عزّة، جمعه وشرحه إحسان عبّاس، دار الثّقافة بيروت لبنان، 1971م، ص : 503.

وقريب منه القصر بمعنى الأخذ من الطّول؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿.... فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ....﴿١٠١﴾ ﴿النِّسَآء﴾، وبمعنى ما عظم من أصول النّخل أو الشّجر في قوله سبحانه وتعالى في صفة جهنّم: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴿٣٢﴾ ﴿الْمُرْسَلَت﴾، كما جاءت بمعنى البيت الضّخم الفخم؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴿الْحَجُّ﴾، وقد زادت المعاجم اللّغويّة بعض المعاني للمادّة؛ كالقَصْرَةِ ما يبقى في المنخل بعد الانتخال، وقَصْرُ الثّوب: حوره ودقّه، وقَصُرَ الطّعام: نقص ورخص[2]، (وعلى هذا فجذور المادّة لا تنحصر فيما ذكره ابن فارس في أصلين: أحدهما ألاّ يبلغ الشّيء مداه، ونهايته، والآخر: الحبس)[3]، ويبقى هنا أنّ تعريف البلاغيين للقصر بأنّه لغة؛ الحبس، إنّما هو تعريف اللّفظ بأشهر معانيه، وقد يعبّرون عنه بأنّه؛ عدم المجاوزة إلى غيره، وأنّه الحصر والحبس والإلزام. والمادّة اللّغويّة شديدة الصّلة بالمضمون الاصطلاحي.

والقَصْرُ والحَصْرُ والاِخْتِصَاصُ دلالاتها متقاربة، فالحَصْرُ؛ مصدر، حَصَرْتُ الرّجل أَحْصُرُه وأَحْصِرُه إذا حَبَسْتُه، ومن معانيه؛ الضّيق، حَصَرَهُ يَحْصُرُهُ حَصْرًا؛ ضيّق عليه وأحاط به[4]، والاِخْتِصَاصُ: الاِنْفِرَادُ، خَصَّهُ بالشّيء يَخُصُّهُ خَصًّا وخُصُوصًا: أفرده به دون غيره، ومثلها في المعنى اِخْتَصَّ وتَخَصَّصَ إذا انفرد[5].

---

1. ينظر: محمّد؛ فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1364هـ، مادّة (ق ص ر)، ص: 546.

2. ينظر: الفيروز ابادي، مجد الدّين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط3، المطبعة الأميريّة، 1978م، فصل القاف باب الراء، ج 2، ص: 116/ وابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، طبعة جديدة، دار المعارف، القاهرة، مج: 5، ج 39، مادة (قصر)، ص: 3644.

3. درّاز؛ صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ط1، 1886م، مطبعة الأمانة، مصر، ص:17.

4. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مج: 2، ج 9، باب: الحاء، مادّة (حصر)، ص: 895.

5. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مج: 2، ج: 13، مادّة (خصّ) ص: .1173/ والزّركشي بدر الدّين، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عمر سليمان الأشقر، دار الصّفوة، ط1، 1988م، القاهرة، ج: 4، ص: 58.

ب ـ اصطلاحاً هو: تخصيص شيء بشيء، أو تخصيص أمر بأمر آخر بطريق مخصوص، ويقال له أيضا: إثبات الحكم المذكور ونفيه عمّا عداه، والشّيء الأوّل هو المقصور، والشّيء الثّاني هو المقصور عليه، كما أنّ في كلّ إسناد مسندا ومسندا إليه[1]، كتخصيص زيد بالقيام في قولنا: ما قائم إلاّ زيد، ونقل في الأطول أنّه: (جعل بعض أجزاء الكلام مخصوصا بالبعض بحيث لا يتجاوزه، ولا يكون انتسابه إلاّ إليه بطريق مخصوص)[2]، فإذا قلت: شرب زيد لبنا؛ كان تركيبا مرسلا خاليا من الاعتبارات، وأفاد أنّه شرب لبنا؛ وليس فيه شيء وراء ذلك، فإذا قلت: إنّما شرب زيد لبنا، أو ما شرب زيد إلاّ لبنا؛ أفاد الكلام شيئا زائدا عن مجرّد الإثبات؛ وهو أنّه لم يشرب سواه، قصر الشّرب على اللّبن، وأنّه لم يتجاوزه إلى غيره، فشرب زيد مقصور ولبنا مقصور عليه.

وتحديد المقصور والمقصور عليه وإن بدا سهلا، ففيه حقائق دقيقة ذات أثر كبير في تغيير المعنى، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴿١٤٤﴾ ﴾ آل عمران، قَصَرَ محمّداً ﷺ على الرّسالة، بمعنى: أنّه ليس بشاعر، ولا كاهن، ولا إله لا يموت... فمحمّد ﷺ مقصور، والرّسالة مقصور عليه.

ونحو: (إنّما ترقى بالاستعداد) قصرت الرقي في الاستعداد، أي: (ترتفع إلى المراتب الفوقانية وتبلغ إلى المقاصد الصدّيقيّة بالاستعداد لذلك الرّقيّ بالجدّ والحزم والتّقوى لا بالمعاصي والتّكاسل والتّماهل)[3]، فالرّقي مقصور وبالاستعداد مقصور عليه.

1ـ ينظر: كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف المنياوي على شرح حلية اللب المصون، ص: 104/ والسّيوطي جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنيّة، ج3، ص: 1565/ وعتيق؛ عبد العزيز، علم المعاني البيان البديع في البلاغة العربيّة، ص: 142/ والقزويني؛ جلال الدّين أبو عبد الله محمّد الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ص: 122.

2ـ ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ج2، ص166، 167/ والأطول للعصام، ج1، ص:213، نقلا عن دراز صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 21.

3ـ كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف المنياوي على شرح حلية اللب المصون، ص: 105.

وتخصيصُ شيء بشيء: أي جعْلُ الشّيء خاصًّا بشيء ومنحصِراً فيه، والمرادُ بذلك الإخبارُ بثبوتِ الشّيء الثّاني للشّيء الأوّلِ دونَ غيرِه، والشّيء الأوّلُ إن أُريدَ به الموصوف كان المرادُ بالشّيء الثّاني الصّفة والعكس، وقوله بشيء أو بأمر: أي لا يتعدّاه؛ نحو: ما زيد إلاّ كاتب، أي لا صفة له غيرها هنا، و﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴿١٤٤﴾ أي: لا يتعدّى ذلك إلى التّبرّي من الموت الّذي هو من شأن الإله.

و**الاختصاص**: القطعيّة لا الاحتمالية والحقيقة والتّصريح والتّنصيص وهو ضدّ المشاركة والتّعميم[1].

وإذا كان **القصر**: إعطاء الحكم لشيء والتعرّض لنفيه عمّا عداه، **فالاختصاص**: إعطاء الحكم له والإعراض عمّا سواه، فهو مسكوت عنه، ويقصد به المتكلّم إفادة السّامع من غير تعرض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي، ففي القصر معنى زائد على الاختصاص؛ نحو: إنّما زيد كاتب؛ فقد خصصنا زيدا بالكتابة دون تعرض لغيره بإثبات أو نفي[2].

وعلى هذا فالقصر ـ كما عبّر السّبكي والزّركشي ـ ينتظم حكمين في وقت واحد، إثبات الحكم المذكور ونفيه عن غيره[3]، فكأنّ جملة القصر تنحلّ ـ في المعنى ـ إلى جملتين وتغني غناءهما في المعنى العام، والمقصود؛ أنّ فيها حكما واحدا؛ يتضمّن الإثبات القصدي والنّفي التّبعي، وليس المقصود إفادة حكمين، فشهادة التّوحيد فيها الإثبات قصدا وإن انبنى على نفي لكلّ ما سوى المقصور عليه.

وقد يدخل في القصر ما سمّاه بعض العلماء بـ: (التّخصيصات القلبيّة كتخصيص زيد بالمحبّة، والفعليّة كتخصيصه بالعطاء، والتّصريحيّة نحو: خصصت زيدا بالعلم، وزيد مقصور على العلم، مع أنّه لا يسمّى واحد منها قصرا)[4].

---

1. ينظر: البستاني؛ بطرس، محيط المحيط، قاموس مطوّل للّغة العربيّة، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصّلح بيروت، طبعة جديدة 1987، باب الخاء، مادة خصص، ص: 235.

2. ينظر: الزّركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ج: 4، ص: 58/ ونجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى، ص: 16.

3. ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدّين السبكي، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، ج2، ص: 166.

4. كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف المنياوي على شرح حلية اللب المصون، ص: 104.

ج ـ مفهوم الصّفة في القصر: (والمراد بالصّفة هنا: المعنويّة وهي أعمّ من النّعت النّحوي)[1]، لأنّ مفهومها بلاغيّ لا يتعلّق بإعراب، بل يتعلّق بمفهوم الكلمة ودلالتها، والموصوف هو الّذي يتّصف بهذا المعنى[2]؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ ﴿البقرة﴾، فإنّ قوله "يخدعون" فعل، ونقول إنّه صفة، لأنّه يدلّ على معنى يقوم بغيره، أي يتّصف به غيره، وهو المقصور عليه، وإدراك ذلك وتوجيهه من أهمّ ما يجب القيام به لفهم دلالة الجملة، وهذا الدالّ أو الوصف أو المعنى قد يكون خبرا أو حالا أو تمييزا أو فعلا أو جملة أو جملا متعاطفة أو جامدا أو في تأويل المشتقّ، كقوله تعالى: ﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ .... ۝٢﴾ ﴿المجادلة﴾، بتأويل الكون، أي كونهنّ اللاّئي ولدنهم، وهذه الصّفة قد تكون حقيقيّة لفظيّة؛ مثل: شاعر، كريم، رسول، وقد تكون غير حقيقيّة أي معنويّة فتكون في حكم الصّفة أو فعلا صريحا يجب تأويله؛ مثل: جاء، حضر، ضرب[3]. والموصوف ما قام بنفسه، سواء كان ذاتا حقيقة، أو معنى موصوفا كوصف الحركة بالشدّة، أو السّرعة أو البطء.

2 ـ أركان القصر: ثلاثة هي: طرفا القصر، والأداة وتسمّى طريق القصر أو أسلوب القصر.

أ ـ الطرفان:

المقصورُ: وهو الشّيء الأوّلُ المخَصَّصُ، ويمكن أن نُعرِّفه بأنّه: الحكم الذي نريد أن نقصره على المقصور عليه، وهو الّذي خصصته بغيره وقصرته عليه.

والمقصورُ عليه: وهو الشّيء الثّاني المخصَّصُ به، ويمكن تعريفه بأنّه: ما ينحصر به الحكم، وهو الّذي خصصت به غيره، ولابدّ أن يكون أحدهما صفة والآخر موصوفا، وهذا اقتضاء عقليّ، لأنّك أثبت أحدهما للآخر، وأحد طرفي الإثبات (المثبت أو المثبت له)؛ صفة أو في حكمها، فقد يكون المقصور صفة والمقصور عليه موصوفا.

---

1. كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف المنياوي على شرح حلية اللب المصون، ص: 105.

2. ينظر: عطوي رفيق خليل، صناعة الكتابة؛ علم البيان علم المعاني علم البديع، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1989م، ص: 84.

3. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، دراسة بلاغيّة، مكتبة وهبة دار التّضامن، القاهرة، ط2، 1987م، ص: 79، 80/ وبحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، دط، ص: 249.

ب ـ أداةُ القصْرِ: وستأتي في طرق القصر، وقد يُسمَّى القصْرُ بالحصْرِ فيكونُ المقصورُ محصوراً والمقصورُ عليه محصوراً فيه.

3 ـ أقسام القصر:

أ ـ باعتبار طرفيه:

(إنّ تخصيص شيء بشيء يعني جعل أحد الشّيئين خاصّا بالآخر ووصفا له قائما به، وهذا يعني أنّ هنا شيئا هو وصف يقوم بشيء هو موصوف)[1]، ولمّا كان الكلام إمّا ذاتا أو معنى، موصوفا أو صفة، قسّم البلاغيّون القصر من حيث الطّرفان؛ إلى:

1 ـ قصر الموصوف على الصّفة: وذلك بتقديم الموصوف على الصّفة، بأن لا يتجاوزها إلى صفة أخرى، ويجوز أن تكون تلك الصّفة لموصوف آخر؛ نحو: ما زيد إلاّ كاتب؛ أي لا صفة له غيرها، فزيد مقصور وهو موصوف؛ وكاتب مقصور عليه وهو صفة، فزيد هنا لا يتجاوز هذه الصّفة إلى صفات أخرى من هذا الجنس، وبالمقابل هذه الصفة يجوز أن تكون لموصوف آخر[2]، وكما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ...﴾ حيث قصر محمّداً ﷺ وهو موصوف على الرّسوليّة وهي صفة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴿١٧١﴾﴾ ﴿النِّسَآء﴾؛ قصر للذّات المقدّسة على صفتي الألوهيّة والوحدانيّة في مقام استحقاقه سبحانه وتعالى وحده للعبادة، بمعنى إثبات هذين الوصفين له سبحانه، ونفي أن يكون له شريك أو مكافئ أو ولد أو أنّه متعدّد.

2 ـ قصر الصّفة على الموصوف:

بأن لا تتجاوزه إلى موصوف آخر ويجوز أن يكون لذلك الموصوف صفات أخرى؛ نحو: إنّما السّعادة للمتّقين؛ فالسّعادة مقصور وهي صفة والمتّقين مقصور عليه وهو موصوف، و كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴿٥﴾﴾ ﴿الفاتحة﴾، حيث قصر العبادة في الله سبحانه وتعالى، فلا نعبد

1ـ أبو موسى ؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 38.

2ـ ينظر: عتيق؛ عبد العزيز، في البلاغة العربيّة، علم المعاني البيان البديع، دار النّهضة العربيّة، بيروت، دط، ص: 151/ و عطوي رفيق خليل، صناعة الكتابة ص: 84/ العاكوب عيسى علي، و الشتيوي علي سعد، الكافي في علوم البلاغة المعاني، الجامعة المفتوحة، 1993م، ص: 233.

سواه، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴿ طه ﴾، قصر صفة الألوهيّة على ضمير المتكلّم جلّ وعلا، ونفيها عمّا سواه[1]، فهذه الصّفة لا تتجاوز الموصوف (الله عزّ وجلّ) والموصوف يتجاوز هذه الصّفة إلى صفات أخرى لا تحصى.

فإذا كان الطّرفان موصوفين؛ أُوِّلَ الثّاني بالصّفة، وإذا كانا وصفين؛ كقوله سبحانه وتعالى: وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴿النّسآء﴾، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴿ ٱلذَّٰرِيَٰت ﴾، أُوّل الثّاني بالموصوف، فهو من قصر الصّفة على الموصوف، والتقاط صفة دون سواها، أو موصوف دون غيره، في القصر؛ إنّما هو تحديد ونضج فنّي، يتمّ بالتقاط ما له خطر وعلاقة بتركيب العبارة، وبناء الموقف، ويدفع ما لا بال له، وهو الصّفات أو الموصوفات المنفيّة؛ الّتي قد تتسرّب من خلال الأوهام لتشارك في المعنى، والقصر يعالجها في دقّة وعمق وتركيز ليظهرها في بناء متكامل.

والصّفة والموصوف هما طرفا القصر مهما تعدّدت الصّياغة، ويجب ألاّ يكون الطّرفان متباينين؛ فلابدّ من علاقة تصحّح الإسناد، إذ من شرط المبتدأ والخبر ـ وهما إحدى الصّياغات ـ أن يكونا لعين واحدة؛ وهذا معنى أنّ الخبر وصف للمبتدأ في المعنى، والشّيء لا يحكم عليه بما لا يصدق عليه، كما لا يكونان متّحدين تماما لعدم الفائدة إذ لا يخبر بالشّيء عن نفسه، والقصر فرع التّغاير؛ بمعنى أن يتغاير الموردان، ليحدث خصوصيّات زائدة ومزايا فنيّة في الأسلوب.

ب ـ باعتبار الحقيقة و الواقع (من حيث المنفي):

بالنّظر إلى المنفي؛ قد يكون عامّا، يشمل كلّ من عدا المقصور عليه المذكور، وقد يكون خاصّا؛ فيشمل فئة خاصّة من حيث اعتقاد المخاطب أنّه مقصور على هذا أو هذا أو هما معا[2]، وعليه فهو قسمان:

1ـ ينظر: كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف المنياوي على شرح حلية اللب المصون، ص: 106/ وعتيق؛ عبد العزيز، في البلاغة العربيّة، ص: 152.

2ـ ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 37.

1 ـ حقيقي: إذا كان المنفي عامّا شاملا في الواقع الخارجي أو في نفس الملقي، وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألاّ يتعدّاه إلى غيره أصلا؛ أي يكون النّفي فيه متوجّها إلى كلّ ما عدا المذكور[1]؛ نحو قول الله سبحانه وتعالى: "إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ...﴿١٤﴾ ﴿طه﴾، ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ ...﴿٨٧﴾ ﴿الأنبياء﴾، ".. وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴿ص﴾، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿١٩﴾ ﴿مُحَمَّد﴾، بقصر صفة الألوهيّة على الله سبحانه وتعالى، بمعنى نفي كل فرد من الآلهة ثمّ حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى، فصفة الألوهيّة لا تفارق موصوفها الله عزّ وجلّ إلى موصوف آخر مطلقا، ولا تتعدّى إلى سواه، فهو من القصر الحقيقي، والمقابل المنفي ليس خاصّا، بل هو عامّ. وقال الله سبحانه وتعالى: "وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴿الأنعام﴾، أفاد أنّ مفاتح الغيب عنده وليست عند غيره، (وكأنّه لـمّا قدّم لفظ "عنده" أشار إلى: عنده وحده، لا يشاركه فيها غيره، وقد فهم ذلك بمعونة السّياق)[2]، والمنفي عام في الأسلوب والخارج، فالقصر هنا حقيقي.

والقصر الحقيقي قسمان؛ تحقيقي ومجازي: نظر البلاغيّون نظرة أخرى لهذا النّفي ليست من جهة عمومه ولا خصوصه؛ وإنّما من جهة مطابقته للواقع الخارجي، أو بنائه على دعوى المتكلّم، فحين يكون المنفي عامّا شاملا مطابقا للواقع الخارجي؛ أي طابقت النّسبة الكلاميّة النّسبة الخارجيّة مطابقة تامّة لا تزيّد فيها ولا ادّعاء؛ يسمّى القصر تحقيقيّا، قال الله سبحانه و تعالى: "۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ

---

1. ينظر: عطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة، ص: 84/ والعاكوب؛ عيسى علي، الشتيوي؛ علي سعد، الكافي في علوم البلاغة العربيّة، ص: 232.

2. أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 39.

﴿٥١﴾ ﴿الشورى﴾، والمراد بالوحي الصّوت الخفي ليكون الاستثناء متّصلا، وقد قصر تكليم الله سبحانه وتعالى للبشر واتّصاله بهم على هذه الطّرق قصرا تحقيقيّا، نفيا لكلّ ما يمكن أن يزعم من الاتّصال بالملأ الأعلى، ومقابله غير التّحقيقي، أو التّحقيقي على سبيل المبالغة؛ ويسمّى مجازيّا، أو ادّعائيّا في غير القرآن الكريم، وذلك حين يكون في الواقع ما يقابل المثبت، ولكن ضرب عنه صفحا، وأعرض عنه لقلّة جدواه، وعدم خطره (تأثيره) في بناء المعاني، أي إذا كان النّفي مدّعى من المتكلّم لعدم اعتداده بغير المذكور؛ فالنّسبة المفادة من الكلام لا تطابقها النّسبة الخارجيّة مطابقة دقيقة لأنّ فيها فضل تزيّد ومبالغة، كقوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿المائدة﴾، والقصر حقيقي ولكنّه غير تحقيقي، لأنّ الآيات السّابقة وضّحت أنّ ثمّ رجلين من بني إسرائيل كانا مع موسى وهارون: "قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ ..﴿٢٣﴾ ﴿المائدة﴾، لكن موسى أهمّه أمر الجماعة العاصيّة فلم يُعن بذكر هذين الرّجلين، وأعرض عنه لعدم خطره في البناء[1]. والله تعالى أعلم.

وقصر الموصوف على الصّفة قصرا حقيقيّا تحقيقيّا، يعني أن يكون للموصوف صفة واحدة لا يتجاوزها إلى غيرها على وجه الحقيقة، (وهذا لا يكاد يوجد في الكلام، لأنّه ما من متصوَّر إلاّ وتكون له صفات تتعذّر الإحاطة بها أو تتعسّر)[2]، فكيف ننفي عنه كلّ هذه الصّفات تحقيقا ونثبت له صفة فقط؟ والقول في هذه المسألة هو أنّ (التّبادر كما يقول اللّغويّون من أهمّ أمارات الحقيقة، فالدّلالة اللّغويّة يحكمها عرف بياني وضوابط تحدّد الدّلالة)[3]، وهو ما يسمّى بالاقتضاء والاستلزام الحواري، فالّذي يسمع قولك لا يرد إلى خاطره أنّك تنفي عنه كلّ تلك الصّفات، وإنّما يفهم أنّك عنيت بالنّفي ما له صلة

1ـ ينظر: درّاز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص:65.

2ـ القزويني؛ الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 122/ وينظر: رجاء؛ عيد، فلسفة البلاغة بين التّقنيّة والتطوّر، ط: 2، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ص: 128.

3ـ أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 53.

بالمذكور، وبما يتبادر إلى الذّهن من العبارة في حدود ما يشير إليه السّياق والقرائن[1]، وهذا ترجمة لقول عبد القاهر- رحمه الله تعالى - في نحو: ما زيد إلاّ قائم؛ (نعني أنّك نفيت عنه الأوصاف الّتي تنافي القيام؛ نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متّكئا أو ما شاكل ذلك، ولم نرد أنّك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا: "ما هو إلاّ قائم"؛ أن يكون أسود أو أبيض...)[2].

2 - إضافي: وهو أن يختصّ المقصور بالمقصور عليه لا حقيقة بل بالقياس إلى شيء آخر معيّن، فيكون الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معيّن[3]، كقوله تعالى: "قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ ...﴿٦٥﴾ ﴿ص﴾، قال الألوسي: (المراد إنّما أنا رسول منذر لا ساحر كذّاب)[4]، كما اتّهمه الكفّار، فالنّفي ليس لكلّ شيء حتّى الأكل والشّرب والنّوم والزّواج والإهداء... بل متّجه إلى أشياء معيّنة يشير إليها السّياق، أمّا ما لا علاقة له بذلك فليس داخلا في المنفي، ويكون في هذا القصر؛ الّذي يتوجّه فيه النّفي إلى معيّن ثلاثة احتمالات، لأنّ المخاطب إمّا أن يكون معتقدا ثبوت الفعل لما أثبته المتكلّم له؛ ولهذا المعيّن الّذي نفاه المتكلّم عنه، أو معتقدا ثبوت الفعل لما نفى عنه ونفيه لما أثبت له، أو كان متردّدا ليس له اعتقاد في شيء معيّن، فمعتقد المخاطب أو حاله هو الّذي يحدّد هذا البعض، فالإضافي يرمي فيه النّفي إلى أشياء معيّنة تبرز في السّياق، ولذلك:

ج - ينقسم القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: قصر الإفراد؛

وذلك فيما اعتقد المخاطب الشّركة بين المقصور عليه وما يقابله، أي شركة صفتين في موصوف واحد، أو موصوفين في صفة واحدة، فكان القصر لإفراد المقصور بالمقصور عليه، ونفي ما يقابله؛ وتأتي

1- ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 54، 55.

2- الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيّوبي، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، 2003م، ص: 340.

3- ينظر: عتيق؛ عبد العزيز، في البلاغة العربيّة، ص: 148/ وعطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة، ص: 85/ و العاكوب؛ عيسى علي، والشتيوي علي سعد، الكافي في علوم البلاغة العربيّة، ص: 232.

4- الألوسي؛ شهاب الدّين السيّد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار إحياء التّراث العربي، بيروت لبنان، ج 23، ص: 219.

العبارة تنفي الشّركة[1]؛ قال سبحانه وتعالى: "وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ... ﴿٨٣﴾ ﴿البقرة﴾، خوطب بها اليهود لأنّهم نسوا ما أخذ عليهم، واتّخذوا العجل فأشركوا مع الله سبحانه وتعالى غيره في العبادة وبذلك صاروا منكرين لتفرّد الله تعالى بالعبادة، فجاء الأسلوب فنفى العبادة عن غيره، وأكّدها وأفردها لذاته العليا[2]، وقوله تعالى: "...إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ... ﴿١٧١﴾ ﴿النّسآء﴾، ردّاً على من زعم التعدّد، ونحو: "...إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ...﴿٥١﴾ ﴿النّحل﴾، خوطب به من يعتقد اشتراك الله سبحانه وتعالى والأصنام في الألوهيّة.

الثّاني: قصر القلب،

وذلك فيما اعتقد المخاطب عكس الواقع، أي: يخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير من أثبته المتكلّم له[3]؛ من صفة أو موصوف، وسمّي هكذا لقلبه معتقد وحكم المخاطب وتبديله؛ كقوله تعالى: "..أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ...﴿١٣﴾ ﴿البقرة﴾، خوطب به من اعتقد من المنافقين أنّ المؤمنين سفهاء دونهم، وقوله تعالى: "وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ ...﴿٨٠﴾ ﴿البقرة﴾، المقصور: مساس النّار، والمقصور عليه: الأيّام المعدودة، قصر موصوف على صفة قصر قلب، وهو خطاب من اليهود إلى من أنكر عليهم دخول الجنّة، وأثبت لهم التّأبيد في النّار، فأرادوا تأكيد بطلان ذلك وإثبات ادّعائهم وتأكيد ظنونهم، فكان في بيان حقيقتهم بهذه الطّريقة قلبا لاعتقاد المؤمنين[4]، وقوله تعالى: "... رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ...﴿٢٥٨﴾ ﴿البقرة﴾، خوطب به النّمرود الّذي اعتقد أنّه هو المحيي المميت دون الله تعالى،

---

1. ينظر: عطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة، ص: 86/ العاكوب؛ عيسى علي، الشتيوي علي سعد، الكافي في علوم البلاغة، ص: 234.
2. ينظر: نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه، مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 88.
3. ينظر: القزويني؛ الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 123/ عطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة، ص: 86، العاكوب؛ عيسى علي، الشتيوي علي سعد، الكافي في علوم البلاغة العربية، ص:234.
4. ينظر نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه، مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 87.

وقوله سبحانه وتعالى: "... وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ...﴿٧٩﴾ ﴿النِّسَآء﴾، خوطب به من يعتقد من اليهود اختصاص بعثة محمّد ﷺ بالعرب.

الثّالث: قصر التّعيين، وذلك فيما تردّد المخاطب؛ أي يخاطب به من تساوى عنده الأمران فلم يحكم بإثبات الصّفة لواحد بعينه؛ ولا لواحد بإحدى الصّفتين بعينها، وسمّي هكذا لتعيينه ما هو غير معيّن عند المخاطب؛ كقوله تعالى: "وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴿الأَنعَام﴾، المقصور: الإتيان والمقصور عليه: حال الإعراض، قصر موصوف على صفة، قد يكون قصر تعيين وذلك إذا قيل أنّ من يسمع بحالهم يتردّد بين قبولهم للآيات وإعراضهم عنها، فيعيّن القصر له ذلك، وقد يكون قصر قلب إذا كان المخاطب يتوقّع من أولئك القبول لكثرة الآيات وقوّتها، فيقلب القصر توقّعه[1].

4 ـ طرق القصر: هي الوسائل الّتي تحدث في الأسلوب هذه الخصوصيّة، من تركيز جملتين في جملة؛ إحداهما مثبتة، والأخرى منفيّة، وتنقسم إلى قسمين:

أ ـ طرق غير اصطلاحيّة: كالإتيان بلفظ (فقط) أو (وحده)؛ نحو: أكرمت محمّدا وحده؛ أو فقط، أو (لا غير) أو (ليس غير) أو لفظ (القصر) أو (الاختصاص) أو ما يشتقّ منهما فيمكن أن تعبّر عن تخصيص انحصار المجيء في عليّ؛ تقول: انحصر المجيء في عليّ، وهذا طبعاً بطريق مخصوص وإنّما هو عن طريق اختيار العبارة واللّفظة، وقوله تعالى: "... يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ...﴿١٠٥﴾ ﴿البقرة﴾[2]، أو تقول: المجيء مقصور على عليّ، أو نحوها، لكنّها لا تفيد القصر كالنّفي والاستثناء، فقد يدلّ الأسلوب وما يكتنفه من قرائن وطريقة بنائه على القصر، وهو قصر غير اصطلاحي، كقوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴿يس﴾، ومعنى:

---

1. ينظر: عطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة، ص: 86/ العاكوب؛ عيسى علي، والشتيوي علي سعد، الكافي في علوم البلاغة العربيّة، المعاني، ص: 234/ نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 156.

2. ومثلها دون لفظ الجلالة في سورة آل عمران، الآية: 74.

"مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ..." : ما تولّينا نحن إحداثه، ولم يقدر على تولية إحداثه أحد غيرنا[1]، فكلمة أيدينا ودلالة المقام تفيد المبالغة في الاختصاص، لأنّه ليس لها في الوجود إلاّ فاعل واحد، وصور تخصيص شيء بشيء لا نهاية لها، فإذا نقلت بيت شعر عن البحتري، فقد نفيته عن غيره، وفي ذلك تخصيص.

وقد قيّد البلاغيّون تخصيص الشّيء بالشّيء بالطّريق المخصوص، وكسر هذا القيد يجعل الأمر غير منضبط، لكثرة الأساليب الّتي تفيد هذا التّخصيص، فأبعدوا عن الموضوع ما يدلّ على القصر دلالة تنحدر من ألفاظ اللّغة؛ وهذه الطّرق تتفاوت في الدّلالة لتفاوت الفروق بينها، فيفيض كلّ طريق بإشارات وتلميحات لا تجدها في الطّريق الآخر، لأنّها تتولّد من طبيعته.

ب ـ الطّرق الاصطلاحيّة الأشهر المتداولة في كلام العلماء هي:

1 ـ القصر بالنفي والاستثناء: ويكون النّفي بلا أو بأداة من أدواته كَلَيْسَ وما وإن ولم، والاستثناء بإلاّ أو إحدى أخواتِها، سواءٌ ذكِرَ المستَثْنى منه (بلفظ العموم كشرط، وإلاّ فلا قصر فيه) نحوُ: ما جاءني أحد إلاَّ زيد، أم لم يذكر؛ نحوُ: ما جاءني إلاّ زيد؛ فإنّ الغرض منه النفي ثمّ الإثبات المحقّقَان للقصر، وليس الغرض منه تحصيلَ الحكم فقط، وإلاّ لقِيلَ: جاءني زيد[2]، وأمَّا الاستثناء من الإثبات أي من الإيجاب ليس القصد فيه إلى الحصر بل إلى تصحيح الحكم؛ أي أنّ الغرض منه الإثبات، والاستثناء قيد، نحوُ: جاءَ القومُ إلاَّ زيدًا، فكأنّنا قلنا: جاء القوم المغايرون لزيد، فلو عددنا هذا من طرق القصر لكانت الصّفة من طرقه أيضا، كما في قولنا: جاء النّاس الصّالحون[3]، فلا يُفيدُ القَصْرَ، بخلاف: ما جاء إلاّ زيد؛ فإنّ المقصود منه قصر الحكم على زيد؛ لا تحصيل الحكم فقط.

وهنا يكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء؛ صفة أو موصوفا، قال تعالى: "...وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ ...﴿٦٢﴾ ﴿آل عمران﴾، "..مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ...﴿١١٧﴾ ﴿المائدة﴾، "...إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ

---

1. ينظر: الزّمخشري؛ جار الله أبو القاسم محمود، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، مكتبة العبيكات، الرياض، ط1، 1998م، ج: 5، ص: 191.

2. ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، مواهب الفتّاح لابن يعقوب المغربي، ج: 2، ص: 191، 192.

3. ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، مواهب الفتّاح لابن يعقوب المغربي، ج: 2، ص: 191.

مِّثْلُنَا...﴿١﴾ ﴿إِبْرَٰهِيم﴾، "إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴿يُوسُف﴾، "إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴿فَاطِر﴾، ويكون الاستثناء بغير (إلاّ) أيضاً، كقولك: لم يبق سواك نلوذ به.

والنّهي فرع النّفي، كقوله تعالى في وصايا إبراهيم لبنيه: " يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿البقرة﴾، أي لا تموتنّ على حال من الأحوال إلاّ على حال الإسلام[1].

الاستفهام بمعنى النّفي وإلاّ:

والقصر به له مذاق خاصّ، ومقام معلوم، لأنّه يشرك المتلقّي في الوصول إلى الحكم أو المعنى، وصولا إلى الإقناع الواضح في نفسه؛ قال الله سبحانه وتعالى: "وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴿البقرة﴾، قصر الرّغبة عن ملّة إبراهيم على السّفهاء لا تتعدّاهم إلى غيرهم من العقلاء، وجيء بـ(من) الاستفهاميّة المتضمّنة لمعنى النّفي؛ لإنكار واستبعاد أن يكون في العقلاء من يرغب عن ملّته، فلا يرغب عنها إلاّ من سفه نفسه وأذلّها، واستخفّ بها[2]، وقال تعالى: "قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ ... ﴿٥٢﴾ ﴿التوبة﴾.

مستلزمات (إلاّ):

إلاّ في الكلام النّاقص (الاستثناء المفرغ) تفيد القصر وتستلزم ثلاثة أشياء:

أحدها؛ المستثنى منه؛ لكون إلاّ للإخراج واستدعاء الإخراج مخرجا منه يكون مقدّرا، يتوجّه إليه النّفي، والتّقدير هنا معنوي لا صناعي. وثانيها: العموم في المستثنى منه.

---

1. ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 1، ص: 329.

2. ينظر: أبو السّعود؛ بن محمّد العمادي الحنفي، تفسير أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تح: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السّعادة، مكتبة الرياض الحديثة: الرياض، ج 1، ص: 261.

وثالثها: مناسبة المستثنى منه للمستثنى في جنسه وصفته، ومعنى صفته؛ إعرابه؛ كونه: فاعلا أو مفعولا، أو حالا، أو حسب تقدير المستثنى منه، قال الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ: "فَقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ...﴿٨٤﴾ ﴿النّسآء﴾، أي لا تكلّف نفسا إلاّ فعل نفسك[1].

النّفي الضّمني والاستثناء:

وذلك بأن يكون في مادّة الفعل معنى النّفي، وأن يكون هذا النّفي الضّمني مقصودا مصحّحا للتّفريغ، ومنه الفعل أبى؛ كقوله تعالى: "يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿التوبة﴾، المقصور: إباء الله تعالى والمقصور عليه: إتمام النّور، قصر صفة على موصوف، وجاء الاستثناء هنا من الموجب بمعنى النّفي، ويأبى بمعنى لا يريد لأنّها وقعت في مقابل "يريد"[2].

وقد يدلّ الأسلوب على النّفي دون فعل؛ كقوله تعالى ـ على لسان يعقوب عليه الصّلاة والسّلام: "قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ...﴿٦٦﴾ ﴿يُوسُف﴾، ومعنى الآية: لن أرسله معكم حتّى تقسموا لا تمتنعون من الإتيان به في كلّ حال إلاّ حال كونه محاطا بكم أو إلاّ لعلّة الإحاطة أو زمانها، والاستثناء هنا (لا تمتنعون) دلّ عليه الأسلوب لتصحيح التّفريغ[3].

2 ـ القصر بـ (إنّما):

دلالة (إنّما) على القصر وضعيّة، تفيد الإثبات والنّفي حملا على النّفي والاستثناء، وأصلها (إنّ) المؤكّدة الّتي تفيد الإثبات و(ما) النّافيّة الكافّة، ويكون المقصور عليه مؤخّرا وجوبا؛ قال تعالى:

1ـ ينظر: أبو السّعود؛ إرشاد العقل السّليم، ج 1، ص: 747. / والألوسي، روح المعاني، ج: 5، ص: 96.

2ـ ينظر: الزّمخشري؛ الكشّاف، ج: 3، ص: 35، 36.

3ـ المصدر السّابق، ج: 3، ص: 305.

"... إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ..﴿٢٨﴾ ﴿فاطر﴾، فالمقصور خشية الله سبحانه وتعالى والمقصور عليه: العلماء، قصر صفة.

إنّما وأنّما: يرى الزّمخشري ومدرسته في التّفسير البلاغي أنّها مثل المكسورة في إفادة القصر؛ فقوله تعالى: "قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴿الأنبياء﴾، يؤيّد أنّها مثل إنّما، وموجز كلامه أنّ أنّما تفيد التّأكيد قطعا، والقصر إن اقتضى المقام كما في الآية السّابقة [1]، وربّما لا يقتضي المقام القصر ولا يحتمله؛ كما في قوله تعالى: "... وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ... ﴿٢٤﴾ ﴿ص﴾، فقد فسّره بقوله: ابتليناه لا محالة [2]، وإن كانت محمولة عليها حمل الفرع على الأصل.

3ـ القصر بحروف العطف:

والعطف بـ(لا) و(بل) (ولكن)، ودلالته على القصر نصيّة، أي أنّ الجملة تنصّ على النّفي والإثبات معا، بخلاف الطّرق الأخرى الّتي يفهم فيها النّفي بالفحوى أو بالمفهوم، أو هو ضمنيّ.

فإن كان العطف بلا؛ كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها؛ كقولك: الأرض متحرّكة لا ثابتة.

وإن كان العطف ببل أو لكن كان المقصور عليه ما بعدها؛ كقولك: ما الفخر بالنّسب بل بالتّقوى، وما الأرض ثابتة لكن متحرّكة.

وفكرة عموم النّفي ثمّ الإخراج، وهو المرتكز الأصلي في القصر ـ في النّفي والاستثناء وإنّما والتّقديم ـ غير موجودة في العطف، (ومحاولة حمله على النّفي والاستثناء في ذلك تكلّف، بل هو إثبات فنفي في (لا)، أو نفي ثمّ إثبات في (بل) و(لكن)، كما أنّ افتراض الجهل أو الإنكار في مقامات العطف دائما أمر خارج عن دلالة السّياقات)[3].

شروط تحقّق القصر بأدوات العطف:

لا يتحقّق القصر عن طريق العطف بـ(لا، بل، لكن) إلاّ بتوفّر شروط في كلّ أداة؛ وهي:

1ـ ينظر: درّاز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 211.

2ـ ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 5، ص: 360.

3ـ دراز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 255.

أ ـ يشترط في (لا) أن لا يعطف بها إلاّ بعد الإثبات، وأن يكون معطوفها مفرداً وغير داخل في عموم ما قبلها؛ وأن لا تقترن بعاطف؛ وأن يتعاند متعاطفاها، فلا يجوز: جاءني رجل لا زيد، لأنّه يصدق على زيد اسم رجل، بخلاف جاءني رجل لا امرأة[1]، ولا يصحّ جمع (لا) العاطفة مع النّفي والاستثناء، إلاّ إذا سبقتها واو العطف فتكون لتأكيد النّفي عن الثّاني[2].

ويصح جمعها مع (إنّما)، فيقال: إنّما الأمم الأخلاق لا الرّذائل، لأنّ النّفي في إنّما ضمنا لا صريحا، ويشترط في ذلك أن لا يكون الوصف المذكور بعد إنّما خاصّا بالموصوف المذكور؛ كقوله تعالى: "إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴿النّزعَت﴾، فالإنذار خاص بمن يؤمن بالله تعالى وبالبعث، فلا يصحّ جمع (لا) العاطفة مع (إنّما)، كما يصحّ مع التّقديم؛ نحو: إنسانيّ أنت لا عرقيّ[3].

ب ـ واشترط في القصر بـ(بل) أن تسبق بنفي أو نهي، وإذا وقعت في حيّز الأمر أو الإثبات؛ نحو: اضرب زيدا بل عمرا، جاء زيد بل عمرو، لا تفيد القصر، إذ تجعل ما قبلها في حكم المسكوت عنه، لا يوصف بنفي ولا إثبات، لأنّ المعنى هنا أنّك نقلت حكم المجيء إلى التّابع عمرو، وبذلك تفيد الجملة إثبات الشّيء للشّيء فقط، ولا تفيد نفيه عن غيره.

وأن يكون المعطوف بها مفرداً، أمّا إذا عطفت جملة على جملة؛ فتكون حرف إضراب.

ج ـ ويشترط في القصر بـ(لكن) أن يتقدّمها نفي أو نهي، وقد ذكر سيبويه أنّ لكن لا يتدارك بها بعد إيجاب[4]، وأن لا تقترن بالواو، وأن يكون المعطوف بها مفرداً، وإذا وقعت في حيّز الأمر أو الإثبات لا تفيد القصر، و(لكن) مثل (لا) في ردّ المخاطب إلى الصّواب[5].

---

1. ينظر: ابن هشام؛ الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة صيدا بيروت، 1991م، ج: 1، ص: 269، 270.

2. ينظر: ابن هشام، مغني اللّبيب، ج: 1، ص: 269/ والسّهيلي؛ عبد الرّحمان بن عبد الله، نتائج الفكر في النّحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص: 202 وما بعدها.

3. ينظر: نحلة؛ محمود أحمد، في البلاغة العربيّة، علم المعاني، دار العلوم العربيّة، بيروت لبنان، ط1، 1990م، ص: 151.

4. ينظر: سيبويه؛ أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، ج: 1، ص: 435.

5. ينظر: التّفتازاني، شروح التّلخيص، حاشية الدّسوقي، ج: 2، ص: 187 وما بعدها.

وقد ذكر الإمام السّيوطي أنّ القصر بلا العاطفة لم يقع في القرآن الكريم[1]، وذكر ابن مالك أنّ بل العاطفة لم تقع في القرآن الكريم إلاّ عاطفة لجملة على جملة، وأنّها للتّنبيه على انتهاء غرض واستئناف غيره، وذكر البلاغيّون أنّ لكن العاطفة لمفرد على مفرد؛ المسبوقة بنفي لم تقع في القرآن الكريم[2].

وهناك من جوّز دخول الواو على لكن في إفادة القصر وأجاز أن يكون معطوفها جملة[3]، كقوله تعالى: "مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿٤٠﴾ ﴿الأحزاب﴾ يفيد نفي أبوّة محمّد ﷺ لزيد وإثبات الرّسالة له، وهو قصر قلب كما يقول الدّسوقي لأنّ (المشركين لعنة الله عليهم كانوا يعتقدون فيه الأبوّة لزيد ونفي الرّسالة فقلب المولى عليهم اعتقادهم)[4].

وفي العطف على المثبت والمنفي جميعا جاء قوله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴿آل عمران﴾، المنفي "أمواتا" والمثبت "أحياء" في نسق واحد.

أمّا (لكن) العاطفة فلم ترد في القرآن الكريم إلاّ مع الواو؛ كقوله تعالى:"..وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿آل عمران﴾، "... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴿الحجّ﴾.

---

1. :ينظر: السّيوطي؛ جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدّراسات القرآنيّة، ج: 4، ص: 1159.
2. ينظر: نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 318.
3. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 99.
4. التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، حاشية الدّسوقي، ج: 1، ص: 383.

4 ـ القصر بتقديم ما حقّه التّأخير:

وهو أوسع الطّرق انتشارا في القرآن الكريم، تعلّق بالمسند إليه والمسند وما يتعلّق بهما، ودلالته على القصر تكون بوساطة الفحوى وحكم الذّوق[1]، وهنا يكون المقصور عليه هو المقدّم؛ قال تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴿الفاتحة﴾، المقصور: المعبود والمقصور عليه: إيّاك، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيّا تحقيقيّا، أي نخصّك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصّك بالاستعانة فلا نمدّ يدا لسواك، والمقصور في القصر الثّاني: المستعان والمقصور عليه: إيّاك، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيّا فيه مبالغة، لأنّ العبد قد يستعين في بعض الحالات بالخلق إذا كان في مقدورهم، وقوله تعالى: "... وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴿فاطر﴾، "...وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴿يس﴾، "... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴿الشورى﴾، دلّ فيها التّقديم على القصر.

وفصّل بعض العلماء مباحث التّقديم وجعلها طرقا؛ كتقديم المسند إليه وتقديم المسند، وتقديم المتعلّقات، كلّ واحد منها طريق، وهكذا حتّى صار عددها أربعة عشر طريقا[2].

صور التّقديم الدالّة على القصر:

أ ـ تقديم المسند إليه على المسند (الخبر) الفعلي أو الخبر المشتقّ:

قد يفيد الاختصاص؛ نحو قوله تعالى: "وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴿البقرة﴾، يفيد أنّهم خصوصا لا ينصرون في هذا اليوم[3]، وقوله تعالى: "... قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... ﴿١٢٤﴾ ﴿البقرة﴾، ".. وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴿البقرة﴾، ومنها ما لا وجه للقصر فيه؛ كقوله تعالى: "بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا

---

1. ينظر: نحلة؛ محمود أحمد، في البلاغة العربيّة؛ علم المعاني، ص: 150.

2. ينظر: السيوطي؛ جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، ج: 2، ص: من 1571 إلى 1576.

3. ومثل ذلك مكرّر في الآيتين: 122، و123، سورة البقرة، وقوله: «ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون».

يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿الأنبياء﴾، التّقديم في قوله: "وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ"، لا وجه للاختصاص فيه، لأنّ السّاعة حين تأتي لا تمهل أحدا فليسوا وحدهم المختصّين بعدم الانتظار، والتّقديم فيه للتّقويّة والتّأكيد.

ب ـ تقديم المسند على المسند إليه:

يفيد الاختصاص، وقد يكون لمجرّد الاهتمام؛ ويعين السّياق كثيرا على تحديد ذلك، كقول الله تعالى: "وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ... ﴿١٨٩﴾ ﴿آل عمران﴾[1]، فملكها مقصور على الله جلّ جلاله، أمّا مثل قوله تعالى: "وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ...﴿٧﴾ ﴿الحُجُرَات﴾، فالتّقديم فيه لا يفيد الاختصاص، وإنّما هو للاهتمام وتوبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله سبحانه وتعالى منهم[2].

والنّفي حين يدخل على المسند الجار والمجرور المقدّم يدلّ على القصر، دلالة لازمة، كقوله تعالى: "لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿الصَّٰفَّٰت﴾، قصر نفي الغول على خمور الجنّة، بخلاف خمور الدّنيا، فإنّها تذهب العقول[3].

ج ـ تقديم المتعلّقات على العامل: تقديم المعمول من المفعول به وشبهه؛ كالمفعول معه والمفعول فيه والجار والمجرور والحال، ومنه: قوله تعالى: "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"، المقصور: أتلو أو أقرأ والمقصور عليه: اسم الله عزّ وجلّ، بتقديم المعمول وتقدير العامل المؤخّر، وقوله تعالى: "...لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴿آل عمران﴾، "..ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴿الجاثية﴾، "إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ ..﴿٤٧﴾ ﴿فُصِّلَتۡ﴾، "بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿الزمر﴾.

---

1. ومثلها في سورة النّور: 42.

2. ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 5، ص: 568/ وأبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 172.

3. ينظر: الصّعيدي؛ عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المطبعة النّموذجيّة، ط4، ج: 1، ص: 211/ والعلوي؛ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطّراز، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، ط1، 2002م، ج: 3، ص: 154.

وكذلك نجد ما لا وجه للقصر فيه، كقوله تعالى: "وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿يس﴾، لأنّه يقتضي أنّهم لا يأكلون إلاّ منه، وليس كذلك لأنّهم يأكلون من غيره، فهو هنا مراعاة للنّظم والإيقاع والتّرتيب[1].

ورأى الشّيخ عبد المتعال الصّعيدي أنّ التّقديم في باب الاشتغال لا يفيد إلاّ التّوكيد، لأنّه يجب تقدير الفعل قبل الاسم الظّاهر، ليوافق مفسّره في تقدّمه على الضّمير، نحو: عرفت زيدا عرفته، وإن قدّر بعده؛ أي: زيدا عرفت عرفته أفاد التّخصيص[2].

5- ضمير الفصل:

وشرطه أن يقع بين المبتدأ والخبر؛ كقوله تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴿البقرة﴾، "ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴿هود﴾، أو ما أصله المبتدأ والخبر؛ كقوله تعالى: "...ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴿الأعراف﴾، ويسمّيه البصريّون فصلا؛ كأنّه فصل الاسم الأوّل عمّا بعده، وآذن بتمامه، وأن لم يبق منه بقيّة من نعت ولا بدل، إلاّ الخبر لا غير، ويسمّيه الكوفيّون عمادا (دعامة، حافظا)؛ كأنّه عمّد ودعم الاسم الأوّل، وقوّاه بتحقيق الخبر بعده[3]، حتّى لا يسقط عن الخبريّة.

ويشترط فيه أيضا أن يكون بصيغة المرفوع؛ فيمتنع نحو: زيد إيّاه الفاضل، وأن يطابق ما قبله في النّوع (المتكلّم والمخاطب والغائب)، وضمير الفصل يأتي في كلّ موضع يحتاج إلى تأكيد ورفع توهّم من يتشكّك في المسند إليه الخبر، أو ينازع فيه، أو من يتوهّم التّشريك[4].

1- ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 184.

2- ينظر: الصّعيدي؛ عبد المتعال، بغية الإيضاح، ج: 1، ص: 227.

3- ينظر: نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسراره، ص: 72.

4- ينظر: التّفتازاني، شروح التّلخيص، عروس الأفراح، ج: 1، ص: 386/ وأبو حيان؛ الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1993، ج: 1، ص: 169.

6 ـ تعريف الطّرفين بـ(ال):

التّعريف باللاّم الجنسيّة، ويكون للمبتدأ أو للخبر، أو لهما، ويفيد القصر من وجوه؛ هي:

أ ـ قصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصد المبالغة؛ فقولك: (محمّد الشّجاع)، يفيد جنس الشّجاعة، يعني أنّه ليس شجاعا سواه، وكقوله تعالى: "...فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴿البقرة﴾، المقصور: السّميع العليم، والمقصور عليه: هو، قصر صفة على موصوف.

بـ ـ قصر الجنس حقيقة لعدم وجود معنى الجنس في غير ذلك المقصور عليه؛ نحو: زيد الأمير.

ج ـ قصر الخبر على المبتدأ؛ لا باعتبار ذاته بل باعتبار القيد؛ (من وصف أو حال أو ظرف)، نحو قولك: (هو الرّجل الكريم)، أي انحصرت الرّجوليّة الموصوفة بالكرم فيه، وقولك: (هو السّائر راكبا)، انحصر فيه السّير بحال الرّكوب، وذكر الإمام عبد القاهر أنّ الخبر إذا كان اسما موصولا قد يفيد الاختصاص[1]؛ كقوله تعالى: "وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ...﴿٧٨﴾ ﴿المؤمنون﴾، وإذا عرّف كلا الجزءين باللاّم؛ كقوله تعالى: "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ... ﴿٢﴾ ﴿الفاتحة﴾[2]، بقصر جنس الحمد على كونه لله عزّ وجلّ دون غيره، فالأظهر قصر المبتدأ على الخبر[3].

5 ـ مواضع القصر في الجملة:

أ ـ القصر في الفاعل أو نائبه:

كقوله تعالى: "... هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾"، "...لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ...﴿٥٩﴾ ﴿الأنعام﴾، "...وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴿١٣٥﴾ ﴿آل عمران﴾، ".... إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ... ﴿٢٨﴾ ﴿فاطر﴾، "...لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ... ﴿٣٦﴾ ﴿هود﴾.

---

1. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص: 219، 220.

2. ومثلها الآية الأولى من سورة الأنعام.

3. ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، حاشية الدّسوقي، ج: 2، ص: 101.

بـ ـ القصر في المفعول:

أي وقوع المفعول به مقصورا عليه؛ كقوله تعالى: "وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴿البقرة﴾، "قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ ﴿٢٥﴾، "مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴿١١٧﴾ ﴿المائدة﴾، "وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾، "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴿١١٦﴾ ﴿الأنعام﴾.

ج ـ قصر الفعل قائما بفاعله على المصدر: ولأنّ المصدر ذات الفعل؛ يجب تأويله بالمصدر النّوعي حتّى يفيد القصر؛ أي المفعول المطلق المبيّن للنّوع، كقوله تعالى: "...إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿الجاثية﴾، أي ظنّا ضعيفا[1].

د ـ القصر في الخبر:

كقوله تعالى: "... وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴿آل عمران﴾، قصر الحياة الدّنيا على المتاع دون الخلود، قصر موصوف على صفة، وقوله سبحانه وتعالى: "...قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ... ﴿١٩﴾ ﴿الأنعام﴾، "مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ ... ﴿٢٨﴾ ﴿لقمان﴾.

هـ ـ القصر في المبتدأ:

بمعنى وقوع المبتدأ مقصورا عليه؛ كقوله تعالى: "...فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ ...﴿٢٠﴾ ﴿آل عمران﴾، "...وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴿النور﴾، "...لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿٣٥﴾ ﴿الصّافّات﴾، "...إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ...﴿٤٨﴾ ﴿الشورى﴾، بقصر النبيّ "الضّمير" ـ ﷺ ـ على صفة البلاغ، وقصر الإلهيّة على الله سبحانه وتعالى.

1ـ ينظر: أبو السّعود، تفسير أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم، ج 5، ص: 119.

و ـ قصر الفعل على متعلّقاته: كالقصر على المفعول لأجله؛ قال الله تعالى: "...وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ ...﴿٢٧٢﴾ ﴿البقرة﴾، فما بعد إلاّ وقع مفعولا لأجله[1]، وقصر الفعل على الجار والمجرور المعيّن للزّمن؛ كقوله تعالى: "يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴿آل عمران﴾، والقصر على المفعول المطلق؛ كقوله تعالى: "...فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ ﴿النّسآء﴾، أي إيمانا قليلا، أو هو من أعمّ الأوقات، أي: لا يؤمنون إلاّ زمانا قليلا، فيكون القصر على المفعول فيه[2].

ز ـ القصر على الحال: ويقدّر العزم والحال في الجميع لتكون الحال مقارنة لعاملها[3]، كقوله تعالى: "وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴿البقرة﴾، المقصور: الدّخول والمقصور عليه: حال الخوف، أي لا ينبغي أن يدخلوها في حال من الأحوال إلاّ حال الخوف[4]، كما جاءت الحال جملة فعليّة أو اسميّة منسوخة بناسخ فعلي؛ كقوله تعالى: "وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿الأعراف﴾، "وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴿الأنعام﴾، وما بعد إلاّ متعلّق بالعزم والنيّة والإرادة المحذوف؛ حسب ملاءمة المعنى والسيّاق، ففي الآية الأولى يقدّر: إلاّ مريدين أخذها، والثّانيّة: إلاّ عازمين[5].

---

1. ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 1، ص: 502/ وأبو السّعود، تفسير أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم، ج: 1، ص: 410.
2. ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 2، ص: 88/ وأبو السّعود، تفسير أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم، ج: 1، ص: 708.
3. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 90.
4. ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 1، ص: 313.
5. ينظر: درّاز؛ صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 209.

الفصل الأوّل

القصر عند القدماء وبلاغته في القرآن الكريم

المبحث الأوّل؛ القصر عند القدماء؛

1ـ عند علماء النّحو

2ـ عند علماء البلاغة

3ـ عند علماء التّفسير والأصول

المبحث الثّاني؛ بلاغة أسلوب القصر في القرآن الكريم

1ـ دلالة جملة القصر

2ـ دور السّياق والمقام في تحديد نوع القصر ودلالته ووظيفته

3ـ مقامات القصر

4ـ موازنات بين طرق القصر (أوجه الاتّفاق والاختلاف)

5ـ الأسرار البلاغيّة والجماليّة

الفصل الأوّل : القصر عند القدماء وبلاغته في القرآن الكريم :

المبحث الأوّل؛ القصر عند القدماء :

يتميّز القصر بكثرة مصطلحاته ، وذلك لكثرة ما جرى فيه من تقسيمات باعتبارات مختلفة ، فنظر إليه الدّارسون من جملة جهات؛ وفي كلّ جهة يظهر لهم باب.

1ـ عند علماء النّحو:

يصعب جدّا وضع تأريخ لمصطلح ما على وجه الجزم والتّأكيد ، ولكن لا يمنع ذلك من إظهار تاريخه على وجه التّقريب ، وذلك بحسب ما توفّر من مراجع ، ويبدو أنّ فكرة القصر ظهرت بمعناها في القرن الثّاني الهجري عند سيبويه.

فقد احتفظت كتب التّراث قبل الإمام عبد القاهر بإشارات وشذرات حول القصر لعلّ أقدمها قول سيبويه (ت 180هـ) في القرن الثّاني للهجرة ، وتناوله في أداتين من أدواته؛ الأولى هي العطف بلا؛ وكان حديثه فيها مقتضبا من خلال حديثه عن النّعت؛ إذ يقول: (ومنه مررت برجل راكع لا ساجد ، لإخراج الشكّ ، أو لتأكيد العلم فيهما)[1] ، فقوله لإخراج الشكّ هو ما أطلق عليه علماء البلاغة قصر التّعيين ، فالمخاطب هنا متردّد في كون الرّجل راكعا أو ساجدا ، فأراد المتكلّم إزالة هذا الشكّ ، فقال: راكع لا ساجد ، وأمّا قوله (لتأكيد العلم فيهما) ، فالمتكلّم أراد أن يؤكّد للمخاطب أنّ الرّجل راكع وليس بساجد ، وهذا ما اصطلح عليه البلاغيّون بقصر القلب ، أو قصر التّعيين ، لأنّ قصد التّوكيد يصلح أيضا مع قصر التّعيين.

والأداة الثّانيّة؛ النّفي والاستثناء فذكر في باب (ما يكون الاستثناء بإلاّ) ، في نحو ما أتاني زيد؛ لتكون: ما أتاني إلاّ زيد ، ومثله حالتا النّصب والجرّ؛ ما لقيت إلاّ زيدا ، وما مررت إلاّ بزيد؛ (أدخلت إلاّ لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ، ولتنفي ما سواها ، فصارت هذه الأسماء مستثناة)[2] ، والوجه الّذي ذكره هو ما أطلق عليه النّحويّون الاستثناء المفرغ ، وهذا الأسلوب يفيد القصر عند جميع علماء البلاغة ، وصحيح أنّه لم يذكر مصطلح القصر كما هو عند البلاغيين ، ولكنّه أعطانا معناه.

1ـ سيبويه ، الكتاب ، ج : 1 ، ص : 430.

2ـ المصدر نفسه ، ج2 ، ص : 310.

ويحدّثنا سيبويه في صدر كتابه؛ عن التّقديم والتّأخير بكلام يعتبر هو العمدة، وصاحب الرّيادة فيه، ويلفت النّظر إلى سرّ بلاغيّ فيه؛ في نحو: ضرب زيدا عبد الله، فيقول: (كأنّهم يقدّمون الّذي بيانه أهمّ لهم، وهو ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يهمّانهم ويعنيانهم)[1]، ويلاحظ التّقديم في أبواب كثيرة في النّحو؛ في باب ظنّ وإنّ وكان والظّروف، ويضع يده على علّة بلاغيّة أخرى لها قيمتها في فنّ البلاغة عند المتأخّرين، ففي باب ظنّ يقول: (فإن ألغيت قلت: عبد الله أظنّ ذاهب، وهذا أخال أخوك، وكلّما أردت الإلغاء فالتّأخير أقوى، وكلّ عربيّ جيّد.. وإنّما كان التّأخير أقوى، لأنّه إنّما يجيء بالشكّ بعد ما يمضي كلامه على اليقين، أو بعد ما يبتدئ وهو يريد اليقين ثمّ يدركه الشكّ)[2]، فالتّقديم هنا ليس للعناية والاهتمام كالموضع السّابق، وإنّما التّقديم هنا لغرض بلاغيّ آخر، لعامل نفسي طرأ على المتكلّم، حوّله يقينه إلى شكّ، فألزمه تغيير وضع الألفاظ عمّا كان ينبغي أن تكون عليه، وهذه الملاحظة قادت البلاغيين لجعل التّقديم في مواضع يفيد القصر[3].

ثمّ جاء الفرّاء(ت207هـ) وذكر أيضا القصر بمعناه، ونقل ابن فارس عنه أنّ إنّما والنّفي والاستثناء لا يأتيان أوّل الكلام بل لردّ كلام سابق، وينصّ على أنّ المثبت أو المقصور عليه هو المؤخّر بعد إنّما، ولذا يختلف المعنى بين إنّما قمت وقام أنا، ويردّ الفرّاء خطأ شاع من أنّ إنّما للتّحقير، إذ جاء في القرآن الكريم: ("إنّما الله إله واحد" فأين التّحقير هاهنا؟)[4]، و(ليس في المصادر السّابقة لدلائل الإعجاز دراسة ذات قيمة في طرق القصر إلاّ تلك الإشارة الّتي أشار إليها الفرّاء ورواها ابن فارس (ت395هـ) في كتابه الصّاحبي)[5]، قال: (سمعت عليّ بن إبراهيم القطّان يقول: سمعت ثعلبا يقول: سمعت سلمة يقول: سمعت الفرّاء يقول: إذا قلت: إنّما قمت؛ فقد نفيت عن نفسك كلّ فعل إلاّ القيام، وإذا قلت: إنّما قام أنا، فإنّك نفيت القيام عن كلّ أحد وأثبته لنفسك، قال الفرّاء: يقولون: ما أنت إلاّ أخي،

---

1. سيبويه، الكتاب، ج، 1، ص: 15، 15.
2. المصدر السّابق، ج: 1، ص، 61.
3. ينظر: عبد القادر؛ حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، ص: 81، 82.
4. ابن فارس؛ أحمد، الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تصحيح: المكتبة السّلفيّة، القاهرة، مطبعة المؤيّد، 1910م، ص: 106.
5. أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 101، 102.

فيدخل في هذا الكلام الأفراد، كأنّه ادّعى أنّه أخ ومولى وغير الأخوّة، فنفى بذلك ما سواها، قال: وكذلك إذا قال: إنّما أنت أخي، قال الفرّاء: لا يكونان أبدا إلاّ ردّا، يعني أنّ قولك: ما أنت إلاّ أخي، وإنّما قام أنا، لا يكون هذا ابتداء أبدا، وإنّما يكون ردّا على آخر، كأنّه ادّعى أنّه أخ ومولى وأشياء أخر، فنفاها وأقرّ له بالأخوّة، أو زعم زاعم أنّه كانت منك أشياء سوى القيام فنفيتها كلّها ما خلا القيام)[1]، وإذا تأمّلنا هذا القول نجده ذكر إلى جانب (إنّما) طريق النّفي والاستثناء في قوله: (ما أنت إلاّ أخي)، ويبدو أنّه لم يتطرّق إلاّ إلى القصر الإضافي، حيث قال: (لا يكون هذا ابتداء، وإنّما يكون ردّا على آخر)؛ ولم يفرّق بين أقسامه، حيث ذكر تعريفا جعل فيه قصر الإفراد والقلب بمعنى واحد، فعند تعليقه على الأمثلة ـ إنّما أنت أخي، ما أنت إلاّ أخي ـ قال: (فيدخل في هذا الكلام الأفراد كأنّه ادّعى أنّه أخ ومولى)، فقوله: (ادّعى أنّه أخ ومولى) هو ما اصطلح عليه البلاغيّون قصر إفراد، وقوله: (وأشياء أخر) فهذا قصر قلب[2]، وعلى الرّغم من القيمة التّاريخيّة لهذا النصّ، فإنّه يبقى ضئيلا إذا وضعناه بجانب تأمّلات عبد القاهر في هذا الموضوع.

ومن هذه الملاحظات القيمة ما سجّله أبو علي الفارسي (ت377هـ) في الشيرازيات وتناقله العلماء في مؤلّفاتهم؛ كعبد القاهر (ت471هـ) وابن هشام (ت761هـ)، من أنّ العرب عاملوا إنّما معاملة النّفي والاستثناء، فبدأ يرصدها ليحدّد معناها (معنى إنّما) كما يحدّد النّحاة معاني الحروف، فلحظ أنّ أناسا من النّحويين يقولون في قوله تعالى: "قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ..﴿٣٣﴾ ﴿الأعراف﴾، أنّ المعنى؛ «ما حرّم ربّي إلاّ الفواحش»، فلم يجد أبو عليّ رحمه الله تعالى في هذا ما تقرّ به نفسه، وبقيت المسألة تتردّد في نفسه؛ حتّى أصاب ما يدلّ على صحّة ذلك في قول الفرزدق: «إنّما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي»، ووجه الدّليل عند الشّيخ؛ أنّ فصل الضّمير لا يجوز في الإيجاب، فلو قال: يدافع أنا لما صحّ هذا الفصل، فلابدّ أن يكون متضمّنا نفيا وإثباتا؛ مثل: ما يدافع إلّا أنا، ثمّ أضاف إلى ذلك ما سمعه من قول الزجّاج (ت311هـ) في قوله تعالى: " إنّما حرّم عليكم الميتة " أنّ المعنى؛ ما حرّم

---

1. ابن فارس؛ أحمد، الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، ص: 105، 106.

2. ينظر: نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 23.

عليكم إلاّ الميتة، لأنّ إنّما تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه[1]. وبهذا المنهج الدّقيق الّذي يقوم على الملاحظة والاستقصاء أكّد أبو عليّ أنّ (إنّما) متضمّنة معنى (ما) و(إلاّ)، وصارت حقيقة علميّة تلقّفها عبد القاهر ثمّ أخذ يضيء آفاقها، فذكر أنّهم إذا كانوا قد قرّروا أنّها بمعنى (ما) و(إلاّ) فإن هذا لا يعني عندهم أنّهما سواء، لأنّ لكلّ واحدة ميدانها الّذي تجري فيه، فتجد (إنّما) حيث لا يصحّ النّفي والاستثناء والعكس أيضا، والأدلّة الّتي ذكرها المتأخّرون مقتبسة ممّا رواه أبو عليّ عن أبي إسحاق؛ بعدما خطّت من الشّيرازيات لأبي عليّ إلى دلائل الإعجاز لعبد القاهر، ودار حولها حوار شكّل مبحثا بلاغيّا، حيث ساق عبد القاهر كلام أبي عليّ وأخذ يتأمّله، ويستخرج منه خيوطا هي الّتي نسجت باب القصر، اطّلع عليه فخر الدّين الرّازي ولم يضع يده عليه وهو يلخّص الدّلائل، وكأنّه أدرك أنّ عند الإمام دراسة خصبة قامت على المقارنة بين (إنّما) والنّفي والاستثناء فتجاوزه واكتفى بالثّمرة، وقد عكف أبو يعقوب السّكاكي على البحث فيها وأحدث تحويرا عبقريّا في المفتاح، ثمّ خطّت من المفتاح إلى تلخيصه وإيضاحه، وهكذا سلكت سبيلها في كتب المتأخّرين واشتبكت في مسائل البلاغة وإن كانت مبحثا نحويّا خالصا، فكان ذكرها ذا جدوى لتأكيد دلالتها على القصر، وحسم شبهة المنكرين، ولإيناس النّفوس بصحّة الدّلالة وصدقها، لأنّ قولهم متضمّنة معنى (ما) و(إلاّ) قد يوهم بأنّ المعنى واحد، وفرق بين أن يكون في الشّيء معنى الشّيء، وأن يكون الشّيءُ الشّيءَ، فوضّحوا الفرق الجوهريّ بينهما؛ وهو أنّ النّفي فيها متضمّن مخبوء خافت، وليس لها من الجهارة والقوّة ما للنّفي والاستثناء، وترتّب على ذلك أنّ المعاني الّتي تحدثها (إنّما) غير الّتي يحدثها النّفي والاستثناء، ولكلّ منهما مقامه[2].

ويتحدّث ابن جنّي (ت383هـ) عن معنى القصر وفائدته من خلال حديثه عن تقديم النّكرة وفائدتها، فهو يرى أنّ الّذي دعا إلى التّقديم في قولهم: (شرّ أهرّ ذا ناب)[3]، وجواز الابتداء فيه بالنّكرة، لأنّ الكلام عائد على معنى النّفي، أي ما أهرّ ذا ناب إلاّ شرّ، وتعظيم الأمر على أيّ حال من الأحوال؛

---

1. ينظر: أبو علي؛ الفارسي، المسائل الشّيرازيات، تح: حسن بن محمود هنداوي، كنوز إشبيليا للنّشر، ط1، 2004م، المملكة العربيّة السّعوديّة، الرياض، ص ص: 397، 398./ والجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص: 327، 328.

2. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 145، 146.

3. ينظر: ابن جنّي؛ أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمّد علي النجّار، دار الكتب العلميّة، المكتبة العلميّة، ج: 1، ص: 319.

سواء عند نفسه، أو مستمعه، ولشدّة العناية به واهتمامه له أراد أن يؤكّده حتّى لا يظنّ أحد أنّ هرير الكلب لم يكن لداعي الشرّ، أو يدور في خلده ربّما يكون لشيء آخر، كاحتمال أنّه من جنس الخير، أو لقدوم الضّيفان مثلا، وليس لطارق الشرّ على سبيل القطع واليقين، فأراد بهذا التّقديم أن ينفي كلّ احتمال آخر، ويركّز على أنّ الهرير لم يكن إلاّ لداع واحد فقط هو الشرّ، وكان ذلك بمثابة القصر الّذي يثبت الشّيء المراد بطريقة قطعيّة ونفي ما سواه بيقين أيضا، وقد نقل عبد القاهر هذا المعنى بتمامه، في الفصل الّذي عقده عن تقديم النّكرة[1].

والملاحظ أنّ دراسات النّحاة القدامى كانت تعنى بمكوّنات التّركيب أكثر من عنايتها بالتّركيب نفسه، إلاّ أنها لا تخلو من اهتمامها بالسّياق، فلم يقتصروا على النّظر في بنية النصّ اللّغوي، كما لو كان شكلا منعزلا عن العوامل الخارجيّة الّتي تحيط به.

2ـ عند علماء البلاغة :

يبدو أنّ القصر لم يظهر كمصطلح علميّ يدلّ على تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص إلاّ في القرن الخامس الهجري، فنجده عند الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابه (دلائل الإعجاز)، فقد تحدّث عن إنّما ومواقعها، وطريق التّقديم، النّفي والاستثناء، والتّعريف، وتكلّم عن العطف بلا[2].

كذلك نجده عند الإمام الزّمخشري (ت538هـ) في كتابه (الكشّاف)، إذ تطرّق إلى إفادة التّقديم الاختصاص، وكذلك النّفي والاستثناء، إنّما، ضمير الفصل، والتّعريف.

ثمّ أتى أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن عليّ السّكاكي (ت626هـ)، فذكره مشروحا مفصّلا بمعناه وطرقه، في كتابه (مفتاح العلوم)، وعنه نقل القزويني ومن جاؤوا بعده.

وهناك ضربان من علماء البلاغة في دراسة القصر؛ ضرب لم يكن إلاّ محاولة للتّصنيف الشّكلي لجملة الحقائق الّتي تقرّرت، كما هو عند ابن الخطيب الرّازي (ت606هـ) وأبو يعقوب السّكاكي

1ـ ينظر: عبد القادر؛ حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، ص: 292.

2ـ ينظر: نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 24.

(ت626هـ) والخطيب القزويني (ت739هـ)، وضرب كان وليد معاناة جادّة تبحث في أعماقها عن حدود تفاوت الملامح واختلاف الأشكال والحقائق، كما هو في تصنيفات عبد القاهر وتقسيماته [1].

(ونقول إنّ الّذي أطلق هذا المصطلح على جملة مباحثه فيما نظنّ هو أبو يعقوب السّكاكي وأنّ كتابه مفتاح العلوم هو أوّل كتاب نقرأ فيه فصلا في بيان القصر بهذه التّرجمة)[2]، وحاصل معنى القصر عنده راجع إلى تخصيص الموصوف عند السّامع بوصف ثان، أو بوصف مكان آخر أو إلى تخصيص الوصف بموصوف[3]، وقد رست قواعد البلاغة على يده، وإن كان لم يميّز بين علوم البلاغة الثّلاثة (المعاني، البيان، البديع)، إلاّ أنّ الفضل في جميع هذه العلوم يرجع إليه من غير شكّ.

ثمّ جاء الخطيب القزويني ولخّص القسم الثّالث (البلاغة) من كتاب المفتاح في متن سمّاه (متن التّلخيص)، ثمّ وضع كتابا كالشّرح له سمّاه (الإيضاح)، وقسّمه إلى خمسة مباحث؛ ثانيها علم المعاني، ومنذ ذلك الحين سار العلماء على نهجه، وبعد الخطيب جاء عصر الشّروح والحواشي؛ فظهر ابن السّبكي (ت773هـ) وشرحه المسمّى عروس الأفراح، وممّا خالف فيه غيره تفريقه بين الحصر والتّخصيص في بحث مطوّل سمّاه (الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص)، وملخّص رأيه؛ أنّ التّخصيص هو قصد المتكلّم إفادة السّامع خصوص شيء من غير تعرّض لغيره بنفي أو إثبات، أمّا الحصر فقائم على النّفي والإثبات[4]، وممّن ذهب مذهب الإمام ابن السّبكي الإمام السّيوطي (ت911هـ) فذكر في عقود الجمان أنّ ابن الحاجب وأبا حيّان، قد رفضوا كون التّقديم يفيد الاختصاص، وأنّ الّذي أوقعهم في ذلك ظنّهم أنّ الحصر هو الاختصاص[5]، فيفهم من عبارته أنّه يفرّق بينهما، ولم يدرس

---

1 ـ ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب؛ دراسة بلاغيّة، ط: 2، دار التّضامن، القاهرة، ص: 31، 32.

2ـ المرجع السّابق، ص: 32.

3 ـ ينظر: السّكاكي؛ سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، مطبعة دار الرّسالة، بغداد، ط1، 1982م. ص: 507.

4ـ ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، عروس الأفراح لبهاء الدّين السّبكي، ج: 2، ص: 153 وما بعدها.

5ـ ينظر: السيوطي؛ جلال الدّين عبد الرّحمان، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، وبهامشه حلية اللبّ المصون على الجوهر المكنون، لأحمد الدّمنهوري، دار الطّباعة للفكر والنّشر، بيروت لبنان، ص: 45 وما بعدها.

التّقديم الدّال على القصر عند السّكاكي والخطيب ومن نهج طريقهم دراسة متكاملة، لأنّه موزّع بين طرقه، ودلالته على الاختصاص ليست أشهر دلالاته، وإنّما أشهرها العناية والاهتمام[1].

ثمّ جاء سعد الدّين التّفتازاني (ت791هـ) وله كتاب المطوّل على التّلخيص والمختصر على التّلخيص، ثمّ جاء ابن يعقوب المغربي (ت1168هـ) وشرحه المسمّى مواهب الفتّاح، وكتب الدّسوقي (ت1230هـ) كتابه حاشيّة الدّسوقي على مختصر السّعد، وذكر أنّ هناك فرقا بين الحبس وعدم التّجاوز، وأنّ القصر مأخوذ من عدم التّجاوز، وليس من الحبس، ولم يكن هناك فرق بين علماء البلاغة في المعنى اللّغوي لهما، وذكر أنّه لا فرق بين القصر والتّخصيص، وأنّ قول ابن السّبكي بالفرق بينهما مخالف لما عليه أهل المعاني[2]، وظلّت هذه الكتب تدرس إلى الآن دون زيادة تلحظ، لأنّه (لا جديد في المسألة النّحويّة عندهم غير ما قدّمه عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»، والسّكاكي في «مفتاح العلوم»، وما بقي فهو تلخيص وشرح، وإذا كانت هناك زيادات في مطوّل «التّفتازاني» و«حواشي السيّد الشريف» وعبد الحكيم السيالكوتي وأمثالها فهو تأثّر بما قدّمه الأصوليّون)[3].

أمّا عبد القاهر (ت471هـ) فقد تحدّر حديثه إلى مسائله من باب بحثه مواقع (إنّ) في الكلام ودلالاتها وبعد أن أنهى الكلام فيها؛ أخذ في القول عليها إذا اتّصلت بها (ما)[4]، ثمّ خاض في حديث (إنّما) وقاده ذلك إلى النّفي والاستثناء والعطف. ولاشكّ أنّ ما قام به من سبقه لا يقاس بما قدّمه هو من خصائص التّعابير في القصر ودلالة الأدوات والطّرق، ودقائقها، فقد شيّد بعقله الفذّ ونظراته النّافذة وموهبته الأدبيّة ما أطلق عليه بعد؛ أسلوب القصر، وفتح الباب لمن بعده أن يكملوا الصّرح، وما خطّه يراعه في القرن الخامس الهجري سبق به زمانه وجعله درّة في جيد التّاريخ، والإمام لم يتكلّم في (لكن) ولا في (بل) كلمة واحدة، وإنّما تكلّم في (لا) وحدها من طريق العطف، وبالنّظر فيما قاله في (لا) نجد أنّه لم يتّجه إلى دراسة دلالتها، وإنّما قصد إلى بيان دلالة (إنّما)، وفتح لها كلّ مسائل هذا الباب، فذكر

---

1. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 94.

2. ينظر: التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، حاشية الدّسوقي على شرح السّعد، ج: 2، ص: 153، 166/ نجاح؛ أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها، ص: 14، 15.

3. مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، دار الهجرة، قم، إيران، ط2، 1405هـ، ص: 15.

4. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ص: 312، 327 وما بعدها.

(لا) مثالا يوضّح به، بأنّ معنى الكلام مع إنّما شبيه بالمعنى في قولك: جاءني زيد لا عمرو، فهو مسوق مثالا يبيّن فيه دلالة (إنّما) على الإثبات والنّفي، ولـمّا كان الإثبات فيها ظاهرا والنّفي ضمنيّا، ذكر (لا) الّتي يرى فيها الإثبات والنّفي ظاهرين، وقد أدرك عبد القاهر الفرق في الأداء بين الطّريقين، وأنّه فرق في القيمة البلاغيّة، فـ(إنّما) توقع في النّفس الإيجاب والنّفي دفعة واحدة، وفي حالة واحدة من الإدراك، وذلك بخلاف (لا) فإنّ النّفي والإثبات يدرك معها في حالين، وفرق بين طريق يرمي بالمعنيين في القلب برمية واحدة، وطريق يلقي به في حالين مختلفين، فهو يومئ هنا إلى بساطة الدّلالة في (لا)، وأنّها لا دقّة فيها ولا وجازة، ثمّ يقيس حال المخاطب بـ(إنّما) على حاله بـ(لا)، وكأنّ اعتقاد المخاطب عكس ما يدلّ عليه الكلام مع (لا) في ظاهر أمره، فجعله في ذلك أصلا، فهو لم يتكلّم عن (لا) إلاّ حيث يريد أن يبيّن شيئا في (إنّما)، وكذلك الكلام في النّفي والاستثناء عند الإمام عبد القاهر جاء استطرادا، وهو يتكلّم في (إنّما)، وأنّها متضمّنة معنى (ما) و(إلاّ)، وقد أراد أن يحرّر مقالة النّحاة والأقدمين في ذلك، فذكر الفرق بين أن يكون الشّيء متضمّنا معنى الشّيء، وأن يكون الشّيء الشّيءَ، وقاده ذلك إلى بيان الفروق المعنويّة بين الطّريقين، وما دام الأمر كذلك فإنّ ذكر النّفي والاستثناء لم يأت هنا قصدا، وإنّما جاء تبعا، فحاله كحال (لا) العاطفة، فذِكْرُ النّفي في هذا السّياق جيء به لتحرير معنى (إنّما)، ولكنّه أفرغ فيه كلاما كثيرا وقلّب فيه القول على وجوهه، وأبان عن دقائق في معانيه وصياغاته، وأشار إلى الموقف الّذي يقتضيه وحلّله، وهذه التّشقيقات الّتي أثارها في النّفي والاستثناء وقاس عليها (إنّما) هي الّتي شكّلت باب القصر، وكان النّفي والاستثناء في ذلك رأسا للباب، ودرجت (إنّما) على مدرجه ودخلت الباب ملحقة به[1].

(ولم يحدّد ابن الخطيب الرّازي ترجمة لهذا البحث مع عنايته الشّديدة بتصنيف تراث عبد القاهر ووضع مصطلحات له، وقال في ترجمة هذا البحث: ـ "الباب الخامس في المباحث المتعلّقة بـ(إنّ) و(إنّما)"، وفيه ثلاثة عشر فصلا ـ وهو في هذا يمضي على خطّة عبد القاهر)[2].

1ـ ينظر: أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 103، 104.

2ـ أبو موسى محمّد محمّد ، المرجع السّابق، ص: 32.

واهتمّ البلاغيّون بالأصل الثّاني للقصر، ذلك أنّ للقصر أصلين في اللّغة، أحدهما ألاّ يبلغ الشّيء مداه ونهايته والثّاني الحبس، لتحقّق معناه في القصر الاصطلاحي، لأنّه لا يعدو أن يكون حبس صفة على موصوف فلا يوصف بها غيره، أو حبس موصوف على صفة فلا يتّصف بغيرها، وقد نبّه ابن فارس إلى تقارب الأصلين[1].

من آراء الإمام بهاء الدّين السّبكي:

يرى السّبكي أنّ من تقديم المقصور عليه[2]؛ قولك: إنّما قمت، إذ لو قصد قصر الفعل على الفاعل لانفصل الضّمير؛ وقيل: إنّما قام أنا قياسا على: ما قام إلاّ أنا، وقوله تعالى: "أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ... ﴿١٧٣﴾ ﴿الأعراف﴾، "...يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ...﴿٩٠﴾ ﴿طه﴾، ومعنى ذلك: قصر الآباء على الإشراك في الآية الأولى، وقصر اليهود على الفتنة والشرّ دون الخير في الآية الثّانيّة، وقوله: "إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ" كالتّعبير: إنّما قمت، إذ عرض عارض لتقديم المقصور عليه، فلو قدّم الفاعل لما بقي فاعلا، ومعنى الآية الأولى عند أبي السّعود: لم يقع منهم إلاّ الإشراك، والثّانيّة: لم يقع إلاّ الفتنة، وفي قوله تعالى: "... وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ...﴿١٠٢﴾ ﴿البقرة﴾، ما يؤيّد ذلك؛ بقصرهم على الفتنة دون الخير، والجملة اسميّة قدّم فيها المسند إليه، وقال الله سبحانه وتعالى: " مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴿مَرْيَم﴾، وقال سبحانه وتعالى: "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴿النَّحل﴾، والمعنى عند

1. ينظر: مدخل هذا البحث، ص: 2.

2. والمعلوم عند البلاغيين أنّ المقصور عليه مع «إنّما» يؤخّر، إلاّ إذا عرض عارض يوجب تقديمه، فلا ينظر إلى ما يقتضيه القصر بإنّما.

السّبكي: لم يقع إلاّ قول كن في الآية الأولى، وفي الآية الثّانيّة قصر القول العام على قول كن؛ والمعنى: إنّما إيجادنا لشيء عند تعلّق مشيئتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون، والمنفيّ هو المعاناة والكلفة[1].

ومن الشّواهد الّتي ذكرها؛ قوله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴿إبراهيم﴾، فأسلوب القصر تعليل للنّهي، والخطاب ليس خاصّا بالنبيّ ﷺ، بل للعموم تسليّة للمظلومين وتهديدا للظّالمين، والمنفيّ في القصر هو التّعجيل، ذلك أنّ التّأخير مدّ وإمهال؛ تشديدا وتغليظا، والمعنى: ما يقع إلاّ تأخير جزائهم الرّهيب المناسب لظلمهم، وفي قوله تعالى: "قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ...﴿٣٣﴾ ﴿هود﴾، أي ليس ذلك إليّ إنّما هو للإله الّذي يعاقبكم عن عصيانكم إن شاء، أي إن اقتضت حكمته[2]، وفي ذلك تهويل (فكأنّه قيل الإتيان بالعذاب أمر خارج عن دائرة القوى البشريّة وإنّما يفعله الله عزّ وجلّ)[3].

وإذا كان المقصور عليه هو المؤخّر بعد إنّما، فإنّ هذا المؤخّر في رأي السّبكي غير متعيّن إذا تعدّدت المتعلّقات، ففي قوله تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴿المائدة﴾، فليس المقصور عليه يوقع ولا العداوة والبغضاء، بل الخمر والميسر، فإذا كثرت المتعلّقات فإنّ القرائن هي الّتي تعيّن المقصور عليه المثبت؛ محلّ النّزاع والإنكار[4]، وقوله تعالى: "فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿التوبة﴾، "...إِنَّمَا يُوَفَّى

---

1. ينظر: الطّبري؛ محمّد بن جرير، تفسير الطّبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، هجر للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 2001م، ج: 15، ص: 539، وج: 14، ص: 222/ وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج: 3، ص: 364، 582.

2. ينظر: التّفتازاني، شروح التّلخيص، السّبكي بهاء الدّين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج: 2، ص: 193/ والزّمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 195.

3. ينظر: دراز صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 251.

4. ينظر: التّفتازاني، شروح التّلخيص، السّبكي بهاء الدّين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج: 2، ص: 233.

ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴿الزمر﴾، فالمقصور عليه في الأولى التّعذيب لا التّنعيم بما كابدوا من جمع الأموال وحفظ الأولاد[1]، والمقصور عليه في الثّانية بغير حساب لأنّه الملائم لتكريم الصّابرين، وفي قوله تعالى: "إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ...﴿٩١﴾ ﴿النّمل﴾، يرى الرازي أنّ المقصور عليه " رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ "، ويرى أبو السّعود أنّه (العبادة)، فتحديد المقصور عليه حين تكثر المتعلّقات مرهون بالسّياق والمقام[2].

وقد عدّ الاستثناء الموجب من طرق القصر، والمتّفق عليه بين علماء البلاغة هو إفادة الاستثناء المفرغ للقصر، وخالف الجمهور في كون العطف من طرق القصر، فيرى أنّ العطف بـ(لا) ليس فيه معنى القصر، فهو مجرّد نفي وإثبات، وهو بـ(بل) أبعد[3].

وهذا الّذي أضافه أدلّة لها طابع، يدلّ على تصرّف (إنّما) في الأسلوب، فلا تصلح إلاّ للقصر، فقوله تعالى: "قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ ...﴿٢٣﴾ ﴿الأحقاف﴾، في جواب هود عليه السّلام، لقومه لـمّا دعاهم إلى الإيمان وتوحيد الله عزّ وجلّ وعبادته خشية عذابه، وأجابوه ساخرين: ائتنا بما تعدنا، فقال "إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ"، ولو قال: العلم عند الله، لما صلح جوابا، لأنّه يثبت العلم لله ولا ينفي العلم عن نفسه، وهو يريد أن يقول: إنّ هذا الوعيد علمه عند الله سبحانه وتعالى وليس عندي، وقد حقّقت (إنّما) هذا المعنى، وقد طابق قوله: "إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ" جوابا لقولهم: "...فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ...﴿٢٢﴾، وذلك من حيث إنّهم بقولهم هذا استعجلوا العذاب، ويدلّ عليه قوله تعالى: "...بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ...﴿٢٤﴾، فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الّذي يكون

---

1. ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج: 2، ص: 564، ج: 4، ص: 603.

2. ينظر: الرازي؛ فخر الدّين محمّد، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ج: 23، ص: 222، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج: 4، ص: 289.

3. ينظر: التّفتازاني، شروح التّلخيص، السّبكي؛ بهاء الدّين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج: 2، ص: 187.

فيه تعذيبكم، إنّما علم ذلك عند الله تعالى، وقد أفاد هذا المعنى لـمّا أدخل (إنّما) على الجملة، ولو لم يقلها لما صلح جوابا[1].

فهذه أدلّة قويّة على إفادة (إنّما) الاختصاص، لأنّها تعتمد على مجراها في الأسلوب، وأنّ ذلك يقتضي أنّها أفادت الإثبات والنّفي معا، وهذا أحكم الأدلّة وأصل ما قاله اللّغويّون والمفسّرون.

عبد القاهر وإنّما:

ذهب الإمام إلى أنّه يؤتى بها للردّ على من يعتقد نفي ما أثبته بها، تقول: إنّما جاءني زيد لمن يعلم أنّ أحدا قد جاءك، ولكنّه غلط فظنّه عمرا، ولا تقوله لمن اعتقد أنّ زيدا وعمرا قد جاءاك ولا لمن تردّد في المجيء بينهما، ولا تقوله حتّى يبلغ المخاطب أنّه قد جاءك جاء، وأن تكون شبهة جائيين مرتفعة، فهي لتصحيح معتقد أو ظنّ يذهب إلى نقيض المفهوم منها[2].

قارن الإمام بين إنّما ولا العاطفة في إفادة القصر، وذكر أنّها تكون في قصر القلب، وقيّد ذلك بالمقام والقرائن في تحديد نوع القصر، ودلالات إنّما وأسرارها؛ وأحسّ بأنّه لم يستوف القول فيها، يقول الإمام: (وهذا موضع فيه دقّة وغموض، وهو ممّا لا يكاد يقع في نفس أحد أنّه ينبغي أن يتعرّف سببه ويبحث عن حقيقة الأمر فيه)[3].

قال رحمه الله: (نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: "...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴿الرَّعْد﴾، أن يعلم السّامعون ظاهر معناه ولكن أن يذمّ الكفّار، وأن يقال إنّهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذي عقل، وإنّكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكّروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب)[4].

---

1. ينظر: محمّد محمّد أبو موسى، دلالات التّراكيب، ص: 144.
2. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ص: 334، 335.
3. المرجع السّابق، ص ص: 347، 348.
4. المرجع السّابق، ص: 346.

وموجز رأيه أنّ إنّما تدخل غالبا على ما لا يجهله المخاطب؛ كالآية السّابقة، ولا يراد بالكلام نفس معناه ولكن التّعريض بأمر هو مقتضاه، وقد تدخل على ما ينزل منزلة الواضح، وقد ردّد القزويني وشرّاح تلخيصه ما قاله الإمام في ذلك[1].

وصفوة القول أنّ إنّما للقصر والسّبب في ذلك تضمينها معنى (ما) و(إلاّ)، وأنّ المقصور عليه هو المؤخّر، إلاّ إذا عرض عارض في الصّياغة، ولا تلغى دلالتها على القصر إلاّ إذا أفيد بطريق أقوى وهو التّقديم بالمفعول، فتبقى دالّة على التّأكيد للقصر، كضمير الفصل حين يأتي مع تعريف الطّرفين مؤكّدا للحصر.

هذا حظّ أسلوب القصر في الدّراسات البلاغيّة القديمة، وما كان بعد هذه المؤلّفات؛ لا يتعدّى التّغيير في التّرتيب، فحظّ مبحث القصر في الدّراسات الحديثة ضئيل، ومعظمها دراسات غير متعمّقة، وإنّما هي مجرّد تبسيط لقواعده، ويظهر فيها الاختصار الشّديد، وربّما كانت أكثر الدّراسات تعمّقا؛ ما كتبه الدّكتور محمّد أبو موسى في كتابه؛ دلالات التّراكيب، ويليه كتاب علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي، ثمّ كتاب جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي، أمّا كتاب البلاغة الواضحة تأليف علي الجارم ومصطفى أمين فهو أكثر الدّراسات اتّباعا للمنهج المدرسي، ومن الكتب الحديثة أيضا علم المعاني لدرويش الجندي، وكتاب علم المعاني لعبد العزيز عتيق، وهناك أيضا كتاب البلاغة في ثوبها الجديد لبكري شيخ أمين، وكتاب بغية الإيضاح لعبد المتعال الصّعيدي الّذي يقع في أربعة أجزاء، وهو شرح للإيضاح، وهناك مذكّرات الشّيخ سليمان نوار الّذي حاول الخروج عن المعهود في بعض مفاهيم القصر؛ كاعتراضه على قول العلماء في تعريف القصر (بطريق مخصوص)، فرأى إطلاق المصطلح وعدم تحديده[2].

---

1. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 328 وما بعدها/ والقزويني؛ الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 129، 130/ والتّفتازاني، شروح التّلخيص، ج: 2، ص: 223.

2. ينظر: نجاح أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسراره في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، ص: 4.

3 ـ عند علماء التّفسير والأصول :

ذكر علماء التّفسير القصر بمعناه[1] ، ومن ذلك ما نقله الزّركشي عن الرماني في تفسيره : معنى إلاّ؛ اللاّزم لها الاختصاص بالشّيء دون غيره ، " فإذا قلت : جاءني القوم إلاّ زيدا ، فقد اختصصت زيدا بأنّه لم يجيء ، وإذا قلت : ما جاءني إلاّ زيد؛ فقد اختصصته بهذه الحالة دون غيرها من المشي والعدو ونحوه"[2].

وكذلك يلمح من كلام الإمام الطّبري عند تفسيره قوله تعالى : "قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ (البقرة)، أنّ الآية مفيدة للقصر حيث قال : (وتأويل ذلك أنّك أنت يا ربّنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن والعالم للغيوب دون جميع خلقك... وذلك أنّهم نفوا عن أنفسهم بقولهم : "لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ"؛ أن يكون لهم علم إلاّ ما علّمهم ربّهم ، وأثبتوا ما نفوا عن أنفسهم من ذلك لربّهم)[3] ، فذكر القصر هنا بمعناه فقط.

وقد تناول الأصوليّون أسلوب القصر في كتبهم في مبحث مفهوم المخالفة ، ومبحث التّخصيصات المتّصلة ضمن مبحث الاستثناء ، تحت مصطلح الحصر ، ولم يفردوا له بالتّأليف ضمن رسالة مستقلّة أو كتاب خاصّ ، ذلك أنّ الأصوليّين قسّموا المتن (النصّ) من حيث دلالات الألفاظ على المعاني والأحكام ، إلى عدّة شعب؛ منها : تقسيمه إلى منطوق ومفهوم [4].

و**المنطوق** : ما دلّ عليه اللّفظ في محلّ النّطق ، أي المعنى الّذي قصده المتكلّم باللّفظ أصالة ، وفيه مبحثان؛ منطوق صريح ومنطوق غير صريح [5].

---

1. ينظر : دراز صباح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة ، ص : 20.

2. ينظر : الزّركشي؛ بدر الدّين محمّد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، تح : أحمد علي ، دار الفكر ، 2006م ، طبعة ذات مجلّد واحد ، ص : 1071.

3. الطّبري؛ محمّد بن جرير ، تفسير الطّبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج : 1 ، ص : 528 ، 529.

4. ينظر : السّمعاني؛ أبو المظفّر منصور بن محمّد بن عبد الجبّار ، قواطع الأدلّة في أصول الفقه ، تح : عبد الله بن حافظ الحكمي ، مكتبة التّوبة ، ط1 ، 1998م ، الرياض ، ج : 2 ، ص : 3 مع الهامش/ والنّملة عبد الكريم بن علي بن محمّد ، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن ، تحرير لمسائله ودراستها دراسة نظريّة تطبيقيّة ، مكتبة الرّشد ، ط1 ، 1999م ، الرّياض ، ج : 4 ، ص : 1717.

5 ـ ينظر : الشّنقيطي؛ محمّد الأمين بن محمّد المختار ، نثر الورود على مراقي السّعود ، تح : محمّد الشّنقيطي ، دار المنارة ، ط1 ، 1995م ، المملكة العربيّة السعودية ، ج : 1 ، ص : 97/ والنّملة عبد الكريم ، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن ، ج : 4 ، ص ص : 1719 ، 1721.

و**المفهوم** [1] : ما دلّ عليه اللّفظ لا في محلّ النّطق والتلفّظ ، بل في محلّ السّكوت ، وسميّ مفهوما لا لأنّه مفهم غيره ، بل لأنّه مفهوم مجرّد لا يستند إلى منطوق ، فُهم من غير تصريح بالتّعبير عنه ، وتنقسم هذه الدّلالة إلى قسمين [2] :

أ ـ **مفهوم الموافقة** : هو أن يكون المسكوت عنه موافقا للحكم المنطوق به ، وله عدّة أسماء؛ مفهوم الموافقة ، دلالة النصّ ، ومفهوم الخطاب ، دلالة الدّلالة ، ويؤخذ من معنى النصّ لا من لفظه ، ... [3].

بـ ـ **مفهوم المخالفة** : إثبات نقيض حكم المنطوق للمسكوت ، أي؛ أن يكون المسكوت عنه مخالفا للمذكور في الحكم؛ إثباتا ونفيا ، أو أن يعلّق الحكم على إحدى صفتي الشّيء ، فيدلّ على أنّ ما عداه بخلافه ، وله أسماء : مفهوم المخالفة ، دليل الخطاب ، وتخصيص الشّيء بالذّكر [4].

و**لمفهوم المخالفة عشرة أنواع**؛ هي : الصّفة ، الشّرط ، الغاية ، العدد ، اللّقب ، التّقسيم ، العلّة ، الظّرف ، الحال ، والحصر [5].

وهناك من العلماء من لا يدخل الحصر أصلا في أنواع المخالفة كالزّركشي في البحر المحيط ، وكالقاضي البيضاوي في المنهاج ، ومنهم من يقتصر على نوع واحد كأبي الوليد الباجي ، ومنهم من يقتصر على نوعين ، ويقصر ابن الحاجب أربعة أنواع منه في مختصر المنتهى ، ويذكره الأمام الغزالي كمفهوم مستقلّ في الرّتبة السّادسة في عدّه لأنواع المفاهيم ، ويذكر الاستثناء في الرّتبة الثّامنة ، والآمدي

---

1 ـ يعبّر البلاغيّون عن المفهوم بالفحوى ، ومعلوم أنّ الفحوى عند الأصوليين هي مفهوم الموافقة ، لكن لا مشاحّة في الاصطلاح بعد فهم المعنى.

2 ـ ينظر : الزّركشي ، البحر المحيط في أصول الفقه ، ج : 4 ، ص : 5/ والنّملة ، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن ، ج : 4 ، ص : 1739.

3 ـ ينظر : الشّيرازي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن علي ، اللّمع في أصول الفقه ، تح : محيي الدّين ديب ميستو ، دار الكلم الطيّب ، دمشق ، بيروت ، ط1 ، 1995م ، ص : 104/ / والزّركشي ، البحر المحيط في أصول الفقه ، ج : 4 ، ص : 7/ والتّفتازاني؛ سعدالدّين ، حاشيته على شرح مختصر المنتهى الأصولي ، لابن الحاجب؛ أبي عمرو عثمان المالكي ، شرح : القاضي عضد الدّين عبد الرّحمان الإيجي ، تح : محمّد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 2004م ، بيروت لبنان ، ج3 ، ص :157/ والنّملة عبد الكريم ، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن ، ج4 ، ص : 1743.

4 ـ ينظر : الشّيرازي ، اللّمع في أصول الفقه ، ص : 105 ، وشرح اللّمع ، تح : عبد المجيد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1988م ، بيروت لبنان ، ج1 ، ص : 428/ والجيزاني؛ محمّد بن حسين بن حسن ، معالم أصول الفقه عند أهل السنّة والجماعة ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، 1996م ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، الرياض ، ص : 460/ والنّملة ، المهذّب في علم أصول الفقه ، ج : 4 ، ص ص : 1765 ، 1766/ والسّمعاني؛ أبو المظفّر منصور بن محمّد ، قواطع الأدلّة في أصول الفقه ، ج2 ، ص : 9/ القرافي؛ شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن إدريس ، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول ، طبعة جديدة منقّحة ، دار الفكر ، 2004م ، بيروت لبنان ، ص : 49/ والزّركشي ، البحر المحيط ج : 4 ، ص : 13.

5 ـ ينظر : الزّركشي ، البحر المحيط في أصول الفقه ، ج : 4 ، ص ص : 13 ، 24 وما بعدها/ والقرافي ، شرح تنقيح الفصول ، ص : 49 وما بعدها.

يتحدّث عنه في مسألتين؛ السّادسة ويخصّصها للحصر بـ« إنّما » ، والمسألة السّابعة ويبحث فيها حصر المبتدأ في الخبر، ثمّ يورد الاستثناء في مسألة مستقلّة هي المسألة الثّامنة من مسائله التّسع اللاّئي تناول فيهنّ مفهوم المخالفة ، والقرافي يعدّه من أنواع المفاهيم ويعطي الاستثناء اسما مستقلاّ [1].

وجعل الإمام الشّوكاني في « إرشاد الفحول» ؛ الحصر شاملا للنّفي والاستثناء والحصر بـ« إنّما » ، والحصر بالتّقديم ، و جمعها كلّها تحت مفهوم الحصر ، ثمّ رتّبها بحسب قوّة كلّ واحد منها [2].

وعدم اعتبار بعض الأصوليين الحصر في المفاهيم يرجع إلى اعتبارهم إيّاه من المنطوق [3].

بعد هذا التّمهيد لمبحث القصر عند الأصوليين ، نأتي إلى البحث في مفهومه وطرقه كما عرّفوها.

أ ـ حقيقة مفهوم الحصر:

عرّفه الإمام القرافي في شرح تنقيح الفصول: (هو إثبات نقيض حكم المنطوق للمسكوت عنه بصيغة إنّما ونحوها) [4]، أي؛ إثبات الحكم المذكور ونفيه عمّا عداه؛ كقوله تعالى: « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ...﴿١٧٣﴾ ﴿البقرة﴾، فمنطوق النصّ يقصر التّحريم على هذه الموضوعات؛ الميتة والدّم ولحم الخنزير ، وما أهلّ به لغير الله ، وقد خصّصت « إنّما » الحكم المذكور للموضوعات المذكورة ، ونفيها عمّا عداها [5].

---

1 ـ ينظر: الجيزاني ، معالم أصول الفقه ، هامش ص: 460/ والزّركشي ، البحر المحيط ، ج: 4، ص ص: 14 ، 15/ وتواتي خالد ، مفهوم الحصر و آثاره الفقهيّة والأصوليّة ، رسالة ماجستير في أصول الفقه ، جامعة الجزائر ، ص: 3.

2 ـ ينظر: الشّوكاني؛ محمّد بن علي ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ، تح: أبو حفص الأشري ، دار الفضيلة ، ط1 ، 2000م، الرياض ، ج2، ص: 778.

3 ـ ينظر: النّملة عبد الكريم ، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر في أصول الفقه ، ج: 6، ص: 448.

4 ـ شرح تنقيح الفصول في اقتراح المحصول ، ص: 51.

5 ـ ينظر: القرافي؛ شهاب الدّين أحمد ، العقد المنظوم في الخصوص والعموم ، تح: أحمد الختم عبد الله ، دار الكتب ، ط1 ، 1999م ، المعادي ، ج1 ، ص: 262 وما بعدها/ والنّملة عبد الكريم ، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن ، ج: 4، ص: 1792.

بـ ـ طرق الحصر (أنواعه) بين المنطوق والمفهوم :

النّوع الأوّل؛ الاستثناء :

وهو ما دلّ على ثبوت نقيض الحكم السّابق للمستثنى منه للمستثنى ، ويوجب تخصيص اللّفظ العامّ ، فإن كانت القضيّة السّابقة نفيا كان المستثنى مثبتا؛ أو إثباتا كان منفيّا ، والاستثناء له مفهوم؛ أي أنّ الاستثناء من النّفي له إثبات ، نحو : لا عالم في المدينة إلاّ زيد؛ فإنّه يدلّ نفي كلّ عالم سوى زيد ، وإثبات كون زيد عالما ،ونحو : رأيت النّاس إلاّ بني تميم ، ففيه إثبات الرّؤية للنّاس ونفيها عن بني تميم ، وتقديم النّفي قبل إلاّ يعمّ جميع أنواع النّفي (ما ، لا ، لم ، لن ، لما...) كيفما تقلّب النّفي ، واختلف الأصوليّون على مذهبين في مسألة؛ هل الاستثناء من الإثبات نفي ومن النّفي إثبات؟ فذهب الجمهور ومنهم الآمدي والقرافي ، أنّ الاستثناء من النّفي إثبات ومن الإثبات نفي ، بدليل قول القائل : لا إله إلاّ الله ، فيه إثبات لألوهيّة الله سبحانه وتعالى ونفيها عمّا سواه ، ولو كان فيه نفي دون إثبات لما كان توحيدا لله تعالى ، لعدم إشعار لفظه بإثبات الألوهيّة [1].

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنّه ليس كذلك ، وأنّ الاستثناء هو نطق بالمستثنى منه وسكوت عن المستثنى ، وردّوا على المستدلّين بقول القائل : لا إله إلاّ الله ، بأنّ قرائن الأحوال الضّروريّة أفادتنا أنّ المتكلّم لا يقصد بهذا اللّفظ إلاّ التّوحيد ، والإثبات بعد النّفي ، فلذلك قضينا بإسلام القائل لذلك بالقرائن لا باللّفظ [2].

وقولهم الاستثناء من النّفي إثبات ومن الإثبات نفي هو معنى الحصر ، رغم الخلاف الواقع بينهم. كما اختلفوا في دلالته على الحصر هل هي من قبيل المنطوق أم المفهوم؟ والصّحيح أنّها بالمنطوق كما قال الزّركشي ، بدليل أنّه لو قال القائل : ما له عليّ إلاّ دينار ، كان ذلك إقرارا ، ودلالة المفهوم لا تعتبر في

---

1 ـ ينظر : القرافي؛ شهاب الدّين ، العقد المنظوم في الخصوص والعموم ، ج1 ، ص : 266/ والقرافي؛ شهاب الدّين ، الاستغناء في الاستثناء ، تح : محمّد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1986م ، بيروت لبنان ، ص : 454/ والقرافي ، شرح تنقيح الفصول ، ص ص : 52 ، 193/ والشّوكاني ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ، ج2 ، ص : 656/ النّملة عبد الكريم ، المهذّب في أصول الفقه ، ج4 ، ص : 1789/ والنّملة عبد الكريم ، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر في أصول الفقه ، دار العاصمة ، ط1 ، 1996م ، الرياض ، ج6 ، ص : 449/ والزّركشي ، البحر المحيط ، ج : 4 ، ص : 49.

2 ـ ينظر : القرافي ، الاستغناء في الاستثناء ، ص : 456 ، 459/ والزّركشي ، البحر المحيط في أصول الفقه ، ج : 4 ، ص : 49.

الإقرار [1]. يقول صاحب المذكّرة: (والأصوليّون يقولون منطوقها نفي الألوهيّة عن غيره جلّ وعلا، ومفهومها إثباتها له وحده جلّ وعلا، والبيانيّون يعكسون، قلت: والحقّ الّذي لا شكّ فيه أنّ النّفي والإثبات كلاهما منطوق صريح، فلفظة «لا» صريحة في النّفي، ولفظة «إلاّ» صريحة في الإثبات، فعدّ مثل هذا من المفهوم غلط) [2]، ثمّ أشار إلى أنّه يكون للحصر مفهوم في الأدوات الأخر؛ إنّما، والتّقديم، وتعريف الجزءين.

النّوع الثّاني؛ إنّما بالكسر وأنّما بالفتح:

أ ـ إنّما بكسر الهمزة:

هو نفي غير المذكور آخرا في الكلام المصدّر بها، فيدلّ على الحصر في الجزء الأخير بمعنى الإثبات فيه، والنّفي فيما يقابله، والحصر بها لا يقع بعدها إلاّ جملة خبريّة اسميّة؛ كقوله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ..﴿٣٦﴾﴿محمد﴾، أو فعليّة؛ نحو: «..إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا..﴿١٧٨﴾﴿آل عمران﴾، فإن وقع بعد إنّما جملة اسميّة اقتضت حصر المبتدأ في الخبر، وإن وقع بعدها جملة فعليّة اقتضت حصر الفعل في الفاعل [3].

واختلف العلماء في دلالتها على الحصر، فذهب الجمهور بأنّها تفيد الحصر، أي أنّها تثبت الحكم للمذكور وتنفيه عن غيره، وذكر الشّيرازي أنّه إذا عُلّق الحكم على صفة بـ«إنّما»؛ دلّ أيضا على أنّ ما عداها بخلافها، وبه قال كثير ممّن لم يقل بدليل الخطاب، ولم يذكر القصر أو الحصر بلفظه بل بمعناه،

---

1 ـ ينظر القرافي، الاستغناء في الاستثناء، ص: 472/ والشّوكاني، إرشاد الفحول، ج2، ص: 656 وما بعدها/ والزّركشي، البحر المحيط، ج: 4، ص ص: 49، 50.

2 ـ الشّنقيطي؛ محمّد الأمين، مذكّرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، ص: 285.

3 ـ ينظر: الطّوفي؛ نجم الدّين أبو الرّبيع سليمان بن عبد القويّ، شرح مختصر الرّوضة، تح: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، وزارة الشّؤون الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة، ط2، 1998م، ج2، ص: 740/ والقرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ج1، هامش ص: 262.

وخطّأ من قال غير ذلك، بأنّ هذه اللّفظة «إنّما» لا تستعمل إلاّ لإثبات المنطوق به ونفي ما عداه، فلا فرق بين أن يقول: إنّما الله إله واحد، وأن يقول: لا إله إلاّ الله، إذ يدلّ على أنّه يتضمّن النّفي والإثبات [1].

وممّا استدلّ به القائلون بدلالتها على الحصر؛ أنّها مركّبة من إنّ الّتي للإثبات؛ نحو: إنّ زيدا قائم، وما الّتي للنّفي؛ نحو: ما زيد قائم، فأفادا مجتمعين يعني بعد التّركيب ما أفادا منفردين، لأنّ الأصل بقاء ما كان، فيجب بمقتضى ذلك أن تفيد إنّما إثباتا باعتبار إنّ ونفيا باعتبار ما، وهي لا تخلو أن تفيد نفي المذكور بعدها وإثبات ما عداه، أو إثبات ما بعدها ونفي ما عداه، والأوّل باطل بالاتّفاق، وإلاّ فهم من قولنا: إنّما زيد قائم، أنّ القائم من عدا زيد، وهو باطل، فيتعيّن الثّاني وهو إثبات المذكور بعد إنّما، ونفي ما عداه، وهو معنى الحصر وهو المطلوب [2].

وقوله تعالى: «...إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴿١٧١﴾ ﴿النِّسَآء﴾، أفاد الإلهيّة لله تعالى ونفيها عن غيره، وقوله تعالى: «...إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ...﴿١٢﴾ ﴿هُود﴾، فسّره بصريح الحصر قوله تعالى: «إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴿فَاطِر﴾، ورجّحه الطّوفي في شرح مختصر الرّوضة، وقوله تعالى: «فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَـٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴿النَّحل﴾، بيّنه سبحانه وتعالى بقوله: «مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَـٰغُ ...﴿٩٩﴾ ﴿المائدة﴾، «...إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَـٰغُ ...﴿٤٨﴾ ﴿الشورى﴾ [3].

وذهب آخرون إلى أنّها لا تفيد الحصر، لأنّ «إنّ» تفيد توكيد الكلام و«ما» زائدة كافّة وليست نافية، والزّائد في حكم المعدوم، فهي في قوّة: إنّ زيدا قائم، وحكم ما عدا المثبت يبقى موقوفا على دليل آخر، ولا فرق بين قولنا: إنّ زيدا قائم، وإنّما زيد قائم، بدليل قوله تعالى: «إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

1- ينظر: الشّيرازي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن علي، اللّمع في أصول الفقه، ص: 107.

2- ينظر: الطّوفي؛ نجم الدّين، شرح مختصر الرّوضة، ج: 2، ص: 739/ والزّركشي، البحر المحيط، ج: 4، ص: 51/ النّملة عبد الكريم، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر، ج: 6، ص ص: 456، 457/ والزّركشي؛ بدر الدّين، تشنيف المسامع بجمع الجوامع، تح: سيّد عبد العزيز، مكتبة قرطبة، ط2، ص: 2006م، ج: 1، ص: 328 مع الهامش.

3- ينظر: الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج: 2، 747.

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴿الأنفال﴾، فلو أفادت الحصر لدلّت على أنّ الّذين لا يصيب قلوبهم الوجل ليسوا مؤمنين، وليس الأمر كذلك، و«إنّ» خاصّة بالأسماء واتّصال «ما» بها يجعلها تدخل على الفعل [1].

وكان لكلّ فريق أدلّته الّتي يدحض بها حجّة الثّاني.

ومن أسباب الخلاف في ذلك؛ دلالة «ما» ، هل هي زائدة كافّة أم نافيّة؟.

وبالاطّلاع على الأدلّة يتّضح إفادتها للحصر لعدّة اعتبارات [2]؛ منها: استعمال الشّرع لها بمعنى «ما وإلاّ» في عدّة مواضع، وهي للحصر الحقيقي كقوله تعالى: «...إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ...﴿١٧١﴾ ﴿النّسآء﴾.

واختلف العلماء في إفادتها الحصر أيضا؛ هل هو بالمنطوق أم بالمفهوم [3]، وأغلبهم قال بإفادتها الحصر من باب دلالة المفهوم لا المنطوق [4].

بـ ـ أنّما بفتح الهمزة:

اختلفوا في إفادتها الحصر على قولين [5]؛ فمنهم من ذهب إلى إفادتها الحصر، بدليل ما قاله الزّمخشري في معنى قوله تعالى: «...أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ...﴿١٠٨﴾ ﴿الأنبياء﴾، الدّلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانيّة أي لا يتجاوزه إلى أن يكون الإله كغيره

---

1 ـ ينظر: الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج: 2، ص: 741 وما بعدها/ والقرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ج: 1، ص: 263/ والنّملة عبد الكريم، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر، ج: 6، ص: 456.

2 ـ ينظر الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج: 2، ص: 746 وما بعدها/ والنّملة عبد الكريم، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر، ج: 4، ص ص: 454، 455.

3 ـ ينظر: الشّيرازي؛ أبو إبراهيم إسحاق، شرح اللّمع، ج1، ص ص: 441، 442/ والقرافي، شرح تنقيح الفصول، ص: 52/والزّركشي، تشنيف المسامع بجمع الجوامع، ج: 1، ص: 329، 330.

4 ـ ينظر: القرافي، العقد المنظوم، ج1، ص: 263/ الزّركشي، البحر المحيط، ج: 4، ص: 52/ وتواتي خالد، مفهوم الحصر وآثاره، رسالة ماجستير في أصول الفقه، ص: 110.

5 ـ ينظر: القرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ج: 1، ص: 263 مع الهامش.

متعدّدا كما عليه المخاطبون [1]، وقوله تعالى: «ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ ..﴿٢٠﴾» ﴿الحَدِيد﴾ أفادت الحصر، أي أنّ الدّنيا ما هي إلاّ هذه الأمور المحقّرات، أمّا الآخرة فما هي إلاّ أمور عظام [2].

ومنهم من ذهب إلى عدم إفادتها الحصر، فـ«أنّ» تفيد التّوكيد و«ما» كافّة زائدة، وإن استفيد الحصر فمن خارج، والظّاهر أنّ أدلّة القائلين بإفادتها الحصر أقوى، لكونها فرعا عن إنّما [3].

كما اختلفوا في كونها فرعا عن «إنّما» إلى ثلاثة أقوال؛

الأوّل؛ اعتبرها فرعا وهي مع معمولها بمنزلة مفرد، و**الثّاني؛** اعتبرها أصلا لـ«إنّ»، باعتبار المفرد أصلا للمركّب، و**الثّالث؛** اعتبر كلاّ منهما أصلا، لأنّ لكلّ واحدة محالّ تقع فيها دون الأخرى [4].

النّوع الثّالث؛ التّعريف بـ«ال» والإضافة، (تعريف الجزءين) [5]:

لحصر المبتدأ في الخبر والعكس؛

وضابطه أن يقدّم الوصف على الموصوف الخاص خبرا له، معرّفا بال أو الإضافة، والتّرتيب الطّبيعي خلافه، فيفهم من العدول إليه قصر النّفي عن غيره، أي؛ نفي ذلك الوصف عن غير الموصوف مقصود للمتكلّم، والمراد بـ«ال» هنا الجنسيّة لا العهديّة.

ومثال التّعريف بال: العالم زيد، ومثال التّعريف بالإضافة: صديقي زيد، والمراد بالعالم وصديقي الجنس، وهو باق على عمومه لعدم وجود قرينة العهد، إذ لو وجدت لم يدلّ على نفي العلم والصّداقة عن غير زيد، فحينئذ يفيد المبالغة ولا يفيد الحصر، وكقوله تعالى: «ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ..﴿١٩٧﴾» ﴿البقرة﴾

1ـ ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج3، ص: 170.

2ـ المرجع السابق، ج: 6، ص: 49.

[3] ـ ينظر: تواتي خالد، مفهوم الحصر وآثاره الفقهيّة والأصوليّة، رسالة ماجستير، ص: 111.

4ـ ينظر: الزّركشي، تشنيف المسامع، ج1، ص: 332، 333.

5ـ ينظر: الغزالي؛ أبو حامد محمّد بن محمّد، المستصفى من علم الأصول، تح: حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة، دت، ج: 3، ص: 441/ والقرافي، شرح تنقيح الفصول، ص: 52 وما بعدها/ والقرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ج1، ص: 264/ الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج2، ص: 750 وما بعدها/ الزّركشي، البحر المحيط، ج: 4، ص: 52/ الشّوكاني، إرشاد الفحول، ج: 2، ص: 779/ النّملة عبد الكريم، المهذّب في أصول الفقه، ج: 4، ص: 1796/والنّملة، إتحاف ذوي البصائر، ج6، ص: 459 وما بعدها.

فينحصر ميقات الحجّ الزّماني في ثلاثة أشهر.

والحاصل أنّ الخبر قد يكون معرّفا بـ(ال) أو الإضافة، وقد يكون نكرة، وفي كلا المسألتين خلاف في إفادته الحصر أو؛ لا ؟.

أوّلا؛ تعريف الخبر بال والإضافة:

اختلف العلماء في إفادته الحصر على قولين؛

الأوّل: أنّ تعريفه يفيد الحصر، بدليل أنّه لو لم يكن كذلك لكان المبتدأ أعمّ من خبره، وكان ذلك كذبا، يقول الغزالي: (وهذا التّحقيق، وهو أنّ الخبر لا يجوز أن يكون أخصّ من المبتدأ، بل ينبغي أن يكون أعمّ منه، أو مساويا له، فلا يجوز أن تقول: الحيوان إنسان، ويجوز أن تقول: الإنسان حيوان) [1]، ولو جعَلَ زيدا مبتدأ وقال: زيد صديقي، جاز ذلك لأنّ المبتدأ أخصّ من الخبر، أمّا إذا جعل الصّديق مبتدأ فقال: صديقي زيد؛ وكان له صديق آخر امتنع ذلك لأنّ المبتدأ أعمّ من الخبر، وأهل اللّغة يفرّقون بين قول القائل: صديقي زيد، وقوله: زيد صديقي، بأنّ الأوّل يفيد الحصر، فالمساوي يجب أن يكون محصورا في مساويه، والأخصّ محصورا في أعمّه، ولولا ذلك لما حصلت التّفرقة [2].

الثّاني: أنّ تعريفه لا يفيد الحصر، بدليل أنّ الأصل في تعريفه لا يكون للحصر، ولو كان كذلك لكان وروده في غير الحصر خلاف الأصل، ولو كان قولنا: العالم زيد وقولنا: صديقي زيد، يدلّ على حصر العالم والصّديق في زيد؛ لكان قولنا: العالم زيد وعمرو، وصديقي زيد وعمرو، متناقضا، وليس كذلك باتّفاق أهل اللّغة، ولوكان قولنا: العالم زيد يفيد الحصر، لكان قولنا: زيد العالم، يفيد الحصر، وهم لا يقولون به [3].

وأصل الخلاف في ذلك أنّ الاسم المفرد المحلّى بلام التّعريف؛ هل يقتضي الاستغراق أم لا؟ فإن اقتضاه أفاد الحصر، وإن لم يقتضه لم يفد، والسّبب الثّاني؛ هل يجب أن يكون الخبر مساويا للمبتدأ أو

1ـ المستصفى، ج: 3، ص: 441.

2ـ ينظر: القرافي؛ شهاب الدّين، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول، ص ص: 52، 53/ / والطّوفي؛ نجم الدّين، شرح مختصر الرّوضة، ج2: ص: 752 وما بعدها / والنّملة، المهذّب في أصول الفقه، ج: 4، ص: 1797.

3ـ ينظر: النّملة، المهذّب في أصول الفقه، ج: 4، ص: 1798/ النّملة، إتحاف ذوي البصائر، ج6، ص: 460/ والطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج2: ص: 750.

أعمّ منه حتّى ينحصر فيه المبتدأ أم لا؟، فمن قال بالوجوب قال بإفادته، ومن لم يقل بالوجوب لم يقل بالحصر، ويبدو أن مذهب القائلين بإفادته الحصر أقوى، لأنّ أهل اللّغة يفرّقون بين قول: صديقي زيد وقول: زيد صديقي، بأنّ الأوّل يفيد الحصر، لأنّ هذا الاسم يفيد الاستغراق [1]، وهو الظّاهر، والله تعالى أعلم.

كما اختلفوا في إفادته الحصر، هل هي دلالة بالمفهوم أم المنطوق؟ وقد ذكر ذلك الزّركشي رحمه الله في البحر المحيط، وغيره [2]، وذهب الجمهور إلى أنّ إفادة التّعريف الحصر بالمفهوم، بمعنى أنّها تفهم عن طريق العقل ولا دلالة مع اللّفظ؛ لا بالمطابقة ولا بالتّضمين، ولعدم وجود حرف النّفي صراحة فيها، والله تعالى أعلم، قال الشّوكاني: (والحقّ أنّ دلالته مفهوميّة لا منطوقيّة، وإلى ذلك ذهب جماعة من الفقهاء والأصوليين ومنهم إمام الحرمين الجويني والغزالي) [3].

ثانيا؛ الخبر نكرة:

وقع خلاف في إفادة حصر المبتدأ في الخبر إذا كان المبتدأ معرفة والخبر نكرة، نحو: زيد قائم، فقال الزّركشي بعدم الإفادة، وأشار إلى القطع بذلك قائلا: (فإنّه لا ينحصر زيد في القيام قطعا) [4]، إلاّ أنّ الإمام القرافي نقل خلاف ذلك، وقال بثبوت الحصر مطلقا كيف كان المبتدأ وخبره مادام المبتدأ أخصّ أو مساويا للخبر، غير أنّه إذا كان الخبر نكرة يقع الحصر في الخبر دون نقيضه وضدّه [5].

النّوع الرّابع؛ التّقديم [6]: ويشمل تقديم المعمولات من المفاعيل والمجرورات والحال وخبر المبتدأ؛ كقوله تعالى: « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴿الفاتحة﴾ ، « ...وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿الأنبياء﴾ ،

1ـ ينظر: المهذّب في أصول الفقه، ج4، ص: 1797/ والطّوفي؛ نجم الدّين، شرح مختصر الرّوضة، ج2: ص: 751.

2ـ ينظر: الزّركشي، البحر المحيط، ج4، ص: 52/والشّوكاني، إرشاد الفحول، ج2، ص: 779/ الشّنقيطي، مذكّرة في أصول الفقه، ص: 285.

3ـ إرشاد الفحول، ج: 2، ص: 779.

4ـ البحر المحيط، ج: 4، ص: 53.

5ـ ينظر: شرح تنقيح الفصول، ص ص: 52، 53.

6ـ ينظر: القرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ج1، ص: 264/ والطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج2، ص: 754/ والزّركشي، البحر المحيط، ج: 4، ص: 56 / والشّنقيطي؛ محمّد الأمين، نثر الورود، ج1، ص: 116/ والشّنقيطي، مذكّرة في أصول الفقه، ص: 287.

« إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴿العلق﴾، فالأصل في هذه المعمولات تأخيرها عن عاملها، فإذا قدّمت هل تفيد الحصر؟ فيكون معنى الأولى: لا نعبد إلاّ إيّاك، والثّانيّة: لا يعملون إلاّ بأمره، والثّالثة: لا رجعى إلاّ إلى ربّك، أم لا تفيده، وهي للاهتمام، وإن استفيد الحصر فمن خارج.

اختلفوا في ذلك، وذهب الجمهور إلى إفادة تقديمها الحصر والنّصوص تشهد على ذلك، والعرب استعملوا التّقديم ليدلّ على الحصر والاختصاص أوّلا والاهتمام ثانيا، والله تعالى أعلم.

ولم يختلف العلماء في إفادة ما حقّه التّأخير القصر؛ في أنّه يفيده بالمفهوم لا بالمنطوق، لعدم وجود أداتي النّفي والإثبات فيه، وإنّما يفهم المخالف عن طريق العقل، ونقل الزّركشي: (ولا خلاف في إفادة هذا الحصر عند القائلين به من جهة المفهوم لا المنطوق، وذكره البيانيّون أيضا) [1].

النّوع الخامس؛ ضمير الفصل:

الاتيان بضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، كقوله تعالى: « ... فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ ... ﴿٩﴾ ﴿الشورى﴾، « وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴿الصّافّات﴾، « ..وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴿غافر﴾ « ... أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴿الشورى﴾، « وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴿الزّخرف﴾، واختلف العلماء في ضمير الفصل، هل يثبت الحكم للمذكور وينفيه عمّا عداه؛ أي يفيد الحصر أم لا؟ وأشار الزّركشي إلى ذلك الخلاف، والمستفاد من أقوال الجمهور أنّه يفيد الحصر [2]، والظّاهر أنّه يدلّ عليه بالمفهوم لا بالمنطوق، لعدم وجود أداتي النّفي والإثبات، والله تعالى أعلم.

1ـ البحر المحيط، ج: 4، ص: 56.

2ـ ينظر: البحر المحيط، ج:4، ص: 56/ وابن النجّار؛ محمّد بن أحمد بن عبد العزيز، شرح الكوكب المنير المسمّى بمختصر التّحرير، تح: محمّد الزّحيلي، مكتبة العبيكان، 1993م، الرياض، مج: 3، ص: 521.

ج ـ التّرتيب بين طرق الحصر [1] :

المرتبة الأولى؛ «ما» و«إلاّ» ، لدلالتها على إثبات الحكم المذكور ونفيه عن غيره بالمنطوق، سواء كان الاستثناء مفرّغا أو تامّا منفيّا.

المرتبة الثّانيّة؛ «إنّما» ، لأنّها في قوّة «ما وإلاّ» ، في إفادة الحصر بالمنطوق.

المرتبة الثّالثة؛ «أنّما» ، لأنّها فرع عن «إنّما» على الصّحيح من أقوال العلماء.

المرتبة الرّابعة؛ الاستثناء التّام الموجب بـ«إلاّ» ، وهو أضعف ممّا قبله لأنّه يدلّ على نفي الحكم عن المذكور بالمفهوم.

المرتبة الخامسة؛ التّقديم ، لأنّه يدلّ على الحصر بالمفهوم ، وأفاده بعد خروجه عن أصله التّأخير.

المرتبة السّادسة؛ تعريف الجزءين ، لأنّه يفيد الحصر مع لام الجنس فقط ، ودلالته عليه بالمفهوم.

المرتبة السّابعة؛ ضمير الفصل ، وأخّر لأنّ الأصل هو الحصر بال الجنسيّة ، ثمّ يأتي ضمير الفصل لتقويّة ذلك الحصر. وللإشارة في آخر هذا المبحث؛ فإنّ الخلاف بين علماء الأصول في مفهوم الحصر تترتّب عليه آثار أصوليّة فبالنّسبة للّذين لا يرون الأخذ بالمفهوم فكلّ ما تفرّع عنه لا يؤخذ به ، ولا يعتبر حجّة ، بخلاف من قال بحجيّة المفهوم فإنّ الفروع النّاتجة عنه لها أثر ويعتدّ بها في الجملة ، فيمكن أن يرتقي إلى أن يصير دليلا قاطعا ، له دور في تخصيص العموم بمفهومه وما يتفرّع عنه ، وأثره في بابي النّسخ والتّعارض والتّرجيح ، كما تترتّب على الخلاف بينهم في مفهوم الحصر آثار فقهيّة تتّصل بالعبادات والمعاملات ، واستخراج الأحكام الشّرعيّة الّتي هي وراء عبارات النّصوص الشّرعيّة [2].

---

1 ـ ينظر: الشّنقيطي؛ محمّد الأمين بن محمّد ، نثر الورود على مراقي السّعود ، تح: محمّد الشّنقيطي ، ص: 112 وما بعدها / الطّوفي ، شرح مختصر الرّوضة ، ج: 2 ، ص: 750/ والشّوكاني ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ، ج: 2 ، ص: 778 وما بعدها.

2 ـ ينظر: تواتي خالد ، مفهوم الحصر وآثاره الفقهيّة والأصوليّة ، رسالة ماجستير في أصول الفقه ، ص: 142 وما بعدها.

المبحث الثّاني؛ بلاغة أسلوب القصر في القرآن الكريم :

1 ـ دلالة جملة القصر:

لمعرفة بلاغة أسلوب القصر؛ والوقوف على ما فيه من معان جليلة وغايات يقصد إلى تحقيقها؛ يجب العودة إلى تفسيرات علماء الأصول والتّفسير، وتحليلات علماء البلاغة وعلماء النّحو؛ منها تحليلاتهم لهذه الآيات:

قال الله تعالى: "ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾" ﴿الحَدِيد﴾، والآية في سياق هادئ، تذكّرهم رحمة الله تعالى، وكان الخطاب مع مؤمنين؛ لتربيّتهم وتوجيههم [1]، والقصر بإنّما إعلاما بوضوح الأمر ووضوح الحكمة منه.

وقوله تعالى: "وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾" ﴿الأنعَم﴾، جاءت بعد سياق شديد يواجه الّذين كفروا وكذّبوا بلقاء الله تعالى، وقد نزّل الكافرين في الآية منزلة من ينكر أنّ الدّنيا لعب ولهو، فكان الأسلوب الخاصّ بالنّفي والاستثناء [2].

وقوله تعالى حكاية عن اليهود: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾" ﴿البقرة﴾، فاليهود لـمّا سمعوا مقالة النّاس: "لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ"، لم يقولوا: لسنا مفسدين، ولم يقولوا: إنّنا مصلحون، ولم يلتفتوا إلى ما في نفوس الجماعة من الاعتقاد بأنّهم مفسدون فيواجهوهم، وإنّما ذهبوا إلى القول بأنّنا مقصورون على الإصلاح، وليس لنا وصف سواه، ولا نعبأ بإنكار من ينكره، فردّ القرآن بصرامة

---

1 ـ ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، ج: 5، ص: 280/ ودرّاز صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 240.

2 ـ ينظر: درّاز صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 240، 241.

وحدّة؛ ليكفح هذا الكذب، "إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ"، وعناصر التّوكيد تتزاحم في هذه الجملة، وفيها حصر الفساد فيهم، وكأنّه ليس في الأرض فساد إذا قيس بفسادهم، والقرآن هنا لم يسلك مسلكهم في المراوغة، وإهمال حال المخاطب؛ فنبّههم بـ"ألا"[1].

قال تعالى: "ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴿الشُّعَرَآء﴾، وقال الله تعالى: "وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴿النَّجم﴾، ذكر ضمير الفصل في آيات النّجم رفعا لهذا الوهم الضالّ الّذي كان من نمرود وفرعون كنماذج؛ وادّعائهما القدرة على الإشقاء والإسعاد بالإضحاك والإبكاء؛ والتحكّم في الأعمار، وتقريرا لصفات الله تعالى، وبثّا للثّقة في القلوب المؤمنة، ولم يؤكّده في خلق الذّكر والأنثى بالفصل مع أنّه منه، والخلق أصله التّقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، والإحياء بعد الموت أي البعث، وهو أمر أنكره كفّار كلّ دين، ولذا تغيّرت صيغة الأسلوب الخاصّة به: "وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ"، قصرا بالتّقديم ودلالة الحرف (على) تحتّم وقوعه. أمّا آيات الشّعراء؛ فكانت مقاولة بين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وقومه، وأنّ قومه كانوا يرون من الأسباب الظّاهرة من يطعمه ويسقيه ويقدّم له الدّواء، وينكرون مسبّب الأسباب، فنازعوه في نسبتها على الحقيقة إلى ربّ العالمين، فنزع إبراهيم هذا الوهم بضمير الفصل، وقوله: "وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ"؛ يعني به البعث، وهي حقيقة كبرى ذكرها دون تأكيد بضمير الفصل أو غيره، وصفا ليقينه وقوّة إيمانه، مع إهمال قومه، لأنّه يتحدّث عن حقائق كبرى فوق الزّمان والمكان[2].

---

1. ينظر: أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 158.

2. ينظر: الرّاغب الأصفهاني؛ أبو القاسم الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، تح: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت لبنان، ص: 157/ وينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط ، ج: 7، ص: 22، 23، وج: 8، 165، 166.

وقال الله تعالى: "وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴿الأنعام﴾، المقصور: القاهر، والمقصور عليه: هو، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيّا تحقيقيّا، جاءت ضمن سلسلة من الآيات تردّ على منكري الألوهيّة، واستئثار الله تعالى بالكمال فبيّنت الآيات السّابقة تفرّده به، وجيء بالقصر هنا لتأكيد هذا الكمال، فهو المتصرّف في أمور عباده لا غيره، وهو القاهر وهم المقهورون، والقصر هنا لإدخال الرّوعة والرّعب في قلوب المنكرين، ولتحقيق العبوديّة المطلقة لله القاهر المسيطر سبحانه[1].

2 ـ دور السّياق والمقام في تحديد نوع القصر ودلالته ووظيفته:

تحتاج كثير من الصّور إلى مساءلة السّياق ومتابعة الأسلوب في جريانه للتعرّف على مرمى القصر تعرّفا واعيّا، إذ (سياق الأسلوب قد يستدعي نسقا من التّركيب اللّغوي المعيّن لإيصال صورة خاصّة من معنى خاصّ إلى نفس المتلقّي)[2]؛ قال الله تعالى: "أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴿فاطر﴾، قصر صفة خشية الله تعالى على المقصور الموصوف العلماء، قصرا حقيقيّا، بمعنى نفي خشية الله تعالى عن كلّ ماعدا العلماء، فليس يخشاه سبحانه إلاّ العلماء، وإذا نظرنا إلى الواقع وجدنا كثيرا من غير العلماء يخشون الله تعالى، بل إنّ كثيرا من العوامّ أشدّ خشية لله تعالى من كثير من العلماء، ولكنّ الآية الكريمة جاءت في سياق التّنويه بالعلم الّذي يكتنه أسرار آيات الله تعالى، ويكشف ما ينطوي عليه الكون من نظام محكم ودقّة بالغة لا يكون إلاّ بيد عليم خبير، والآية ترشد إلى أنّ الرّقيّ الإيماني اليقيني بالله تعالى لا يكون إلاّ بالعلم، ومن هذا العلم رؤية السّنن

1ـ ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج: 2، ص: 223/ ونجاح أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه، ص: 556.

2ـ رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التّقنيّة والتطوّر، ص: 127.

الكونيّة ومعرفتها؛ والآية في سياق الحثّ على ذلك للاطّلاع على القوانين العلميّة المحكمة وراء هذه الكوائن من علم الثّمرات وكيف تخرج من أرض واحدة مختلفة الألوان، ثمّ علم الأرض والجبال، ثمّ علم الإنسان واختلاف الألوان والألسنة، ثمّ علم الدّوابّ... فالعلماء هنا ليسوا علماء الفقه وإنّما هم علماء النّبات وعلماء طبقات الأرض والأجناس والطّبيعة والدّوابّ، هؤلاء وضعوا أيديهم على أسرارها وأدركوا نظامها المحكم، فهم الّذين يخشون الله سبحانه وتعالى الخشية الحقيقيّة، وبالعودة إلى الآيات الّتي سبقتها نجد سياقا أوسع يفتح بابا للتّعريض بالمكذّبين بآيات الله تعالى، وأنّهم هم الجاهلون للحقائق الكونيّة المشاهدة بين أيديهم، فالخشية مقصورة على العلماء لا تتعدّاهم إلى الجاهلين المكذّبين، ولم تعتدّ بغير خشية العلماء، ولم تلتفت إليها، وكأنّها غير واقعة، لأنّ العلم يزيد العالم المهتدي به بصيرة في أمر اعتقاده، ويقينا في أمر دينه، فتقع خشيته لله على بصيرة ودراية[1].

وقوله تعالى: "وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ (آل عمران)، تبدأ الآيات بنغمة الاحتجاج مشيرة إلى المفارقة بين الممارسة العمليّة والأماني القلبيّة، ثمّ تنتقل إلى أمر كان منهم يتّصل بالعقيدة؛ عندما أشيع أنّ رسول الله ﷺ قد مات، فزلزلوا زلزالا شديدا، وكأنّهم يتوهّمون أنّه لا يموت، ويبقى حيّا، وكأنّ الإيمان بالله تعالى مرتبط بمحمّدﷺ، فجاءت جملة القصر لتلفتهم إلى أنّه مقصور على الرّسالة لا يتعدّاها إلى البراءة من الموت، وأنّه إلى جانب اختصاصه بالرّسالة، يجري عليه ما يجري على البشر، فالنّفي هنا لا يتناول ما عدا الرّسالة، وإنّما يتناول براءته من الموت الّذي افترض أنّهم يعتقدونه، وكأنّهم حسبوه رسولا وإلى جانب كونه رسولا؛ لا يموت، فقصرته الآية على واحدة دون الأخرى، ثم يعلو صوت الاحتجاج والتّعنيف بعد هذا التّحديد الحاسم فينكر عليهم ما كان[2].

1. ينظر: أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 48.

2. ينظر: المرجع السّابق، ص: 66.

فواضح أنه يجب الإحاطة بجملة هذا السّياق لإدراك مرمى قصره ﷺ على الرّسالة، وأنّه كان تجسيدا للحظات من الشدّة التبس فيها الأمر واهتزّت النّفوس لتثبت حقيقة طالما ألحّ عليها القرآن الكريم والرّسول ﷺ، ليجيء صوت المؤاخذة وقد بلغ القمّة في العنف، وكان شديد الوقع على نفوس أهل الخشية، مستعملا النّفي والاستثناء المناسب لذلك الموقف.

وممّا يؤكّد دور الإحاطة بالسّياق وكيفيّة حركة الأسلوب فيه للوعي بمرمى القصر؛ قوله تعالى: "لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿المائدة﴾، قالب تركيب القصر في هذه الآية والآية السّابقة واحد، والتّغيير في الأسماء فقط، والصّفة المذكورة بعد المقصور عليه واحدة، ولكنّ السّياق يختلف، فالحقيقة الّتي يراد لفتهم إليها هناك يقينيّة لديهم، ولكنّ طغيان الموقف أذهلهم عنها، فاتّجه إليهم القرآن ليفيئوا إلى ما في نفوسهم من معتقدات ويتّكئوا عليها في مواقف الشدّة، أمّا السيّاق هنا فغير ذلك، فالقوم اعتقدوا أنّ سيّدنا عيسى إله، وليس بشرا رسولا، فقصره القرآن على الرّسالة، فهو رسول يخلو ويموت، ولم يعقّب على بيان هذه الحقيقة بأسلوب إنكار ومعاتبة كما قال هناك، وإنّما عقّب بالدّليل المحسوس "كانا يأكلان الطّعام"، أي يجري عليهما ما يجري على البشر من ضرورات لازمة لحفظ الحياة تأتيهم من خارج أنفسهم، ولو كانا إلهين ما احتاجا إلى أشياء خارجة عنهما، لأنّ هذا مظهر من مظاهر الحاجة، والإله الخالق لا يحتاج في استمرار بقائه إلى أشياء من خارجه، وفي هذا دليل على أنّه ليس إلها، ثمّ أشار إلى رفقه بضلالتهم وأنّه سبحانه لا يعرض عليهم الآيات فحسب، وإنّما يبيّنها لهم، فالأسلوب هنا أسلوب إقناع يحاور العقول ليقنعها بما ترفضه معاندة، وليس أسلوب تذكير ولفت لما هو مستقرّ في النّفوس، والقصر هنا قصر قلب، لأنّهم اتّخذوه وأمّه عليهما السّلام إلهين، فأشار القرآن إلى أنّه ليس إلها، وإنّما

هو رسول يموت وأمّه كذلك والإله لا يكون رسولا[1] ، فالنّفي هنا منصبّ على الأوصاف الّتي يشير إليها السّياق ، في إطار معيّن يدور الحديث في محيطه ، ولو وضعنا إنّما بدل النّفي والاستثناء ، لضاع المعنى وانكسر التدفّق وبرد الإيقاع ، وذهبت الصحّة والبلاغة معا ، لأنّ إنّما بلينها وهدوئها لا تقوى على عنف السيّاق وشدّته ، والغضب الإلهي الملحق فيه[2].

فالوصول إلى المقتضى لا يتمّ إلاّ من بعد معرفة المعنى الحرفي ، وكذلك من بعد اعتبار السّياق وتطبيق قواعد الخطاب (الاقتضاء التّداولي) [3].

3 ـ مقامات القصر :

أ ـ مقامات النّفي والاستثناء :

جاء في الدّلائل وغيره أنّ الخبر بالنّفي والاستثناء يكون للأمر ينكره المخاطب ويجدّ الإنكار[4] ، كقوله تعالى : "...وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ...﴿١٤٣﴾ ﴿البقرة﴾ ، المقصور : الجعل ، والمقصور عليه : علم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه ، قصر موصوف على صفة ، فلمّا أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بتحويل القبلة؛ أنكر اليهود ذلك ونسبوه إلى السّفه ، لأنّ النّسخ عندهم باطل ، فجاء القرآن ليبيّن الغرض من ذلك ، ويبطل ادّعاءهم ، وأنّ في هذا التّحويل امتحان ليعلم من يتّبع الرّسول في أمر التوجّه ممّن يرتدّ ، بعدم تقبّل الأمر وإنكاره ، وفي مجيء القصر هنا ما يشعر بالتّهديد الشّديد ، والتّحذير العظيم من الميل عن جادّة الحقّ ، ممّا يوقظ المشاعر ، وينبّه العقل إلى وجوب اتّباع الرّسول ﷺ [5].

1ـ ينظر : أبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ، ص : 67.

2ـ ينظر : درّاز صبّاح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة ، ص : 219.

3 ـ ينظر : عماد عبد يحيى الحيالي ، الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة في تراكيب القرآن الكريم ، بحث ، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة ، العدد : 1 ، 2008م ، ص : 67.

4ـ ينظر : الجرجاني؛ عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص : 331 / والسّكاكي؛ أبو يعقوب ، مفتاح العلوم : ص : 514 ، 515.

5ـ ينظر : أبو السّعود ، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج : 1 ، ص : 278/ وأبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج : 1 ، ص : 593 وما بعدها.

وقد يأتي في الأمور المنزّلة منزلة المنكرة أو المجهولة الّتي لا إنكار فيها ، ونجد ذلك حين يصف القرآن الكريم غيبا خارقا؛ ماضيا أو آتيا ، أو جزاء خاصّا أو وصفا ثابتا ، أو حالا مثيرة ، أو تصويرا لدقائق حال المتكلّم من البشر وخافي خواطره؛ من ذلك قوله تعالى في وصف مشاهد من العذاب للّذين يكتمون العلم متكسّبين به ثمنا قليلا : "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴿البقرة﴾، جاء الأسلوب بالنّفي والاستثناء دفعا لكلّ إنكار وحسما لكلّ تلاعب ، لمن باع آخرته بقليل متاع ، وزمن الجملة حالي دالّ على المآل ، فهو آت تغليظا ووعيدا[1].

دلالات النّفي والاستثناء :

النّفي متنوّع كثير الدّلالات؛ لكلّ أداة جرسها الخاصّ ودلالتها المعيّنة المناسبة للتّركيب ، فلا يجوز أن تحلّ أداة محلّ أخرى بلاغة ، حتّى وإن تشابهتا دلالة.

فـ"ما" تفيد التّوكيد ، و"إن" أكثر توكيدا لشبهها بـ"إن" المخفّفة من الثّقيلة ، ولهذا تأتي في المقامات الّتي هي أكثر توتّرا؛ نحو قوله تعالى : "إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴿فاطر﴾ ، "إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ...﴿١٠٧﴾ ﴿التوبة﴾ ، "...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ...﴿١١٦﴾ ﴿الأنعام﴾ ، فدلالتها حاليّة كأنّها توحي بالثّبات والجزم ، وبأنّ مدخولها محقّق واقعا ، ومثله قوله تعالى : "إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴿الشُّعَرَآء﴾ ، أي ما محاسبة أعمالهم إلاّ على ربّي[2].

---

1. ينظر : ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، تفسير القرآن العظيم ، تح : سامي بن محمّد السّلامة ، دار طيبة ، ط2 ، 1999م ، مج : 1 ، ص : 483 وما بعدها/ ونجاح أحمد عبد الكريم الظهّار ، القصر وأساليبه ، ص : 98.

2. ينظر : أبو السّعود ، إرشاد العقل السّليم ، ج : 4 ، ص : 225/ والزّمخشري ، الكشّاف ، ج : 4 ، ص : 405.

و«لن» لتأكيد النّفي في المستقبل القريب ومقطعها المغلق دالّ على هذا القرب وقصور معنى النّفي فيها[1]، وقد تفيد الاستمرار بالقرينة؛ كقوله تعالى: "قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴿التوبة﴾.

و«لا» عامّة الدّلالة، وتتعيّن دلالتها بمدخولها؛ فإذا دخلت على المستقبل جعلته بعيدا منفيّا، تناسبا مع ألفها الّذي يمتدّ بها الصّوت، فآذن امتداد جرسها بامتداد معناها؛ كقوله تعالى: "وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴿البقرة﴾.

و«ليس» تضاعف النّفي، وتنفي الحال وقد تنفي غيره؛ كقوله تعالى: "...وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴿البقرة﴾، وقوله تعالى: "...لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ ...﴿١٦﴾ ﴿هود﴾، لنفي المستقبل، وقوله تعالى: "لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ ﴿الغَشِيَة﴾ ، لنفي الجنس.

و«لم» بمقطها المغلق للنّفي والجزم والقلب، تدخل على المضارع فتقلب معناه إلى الماضي، كقوله تعالى: "ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴿الأنعام﴾.

ب ـ مقام إنّما:

«إنّما» أداة رقيقة لا تكون إلاّ في المواقف الهادئة دون جلبة، تفيض على الشّيء الغريب غير المأنوس، فتصيّره أليفا مأنوسا؛ قال تعالى: "إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ...﴿٩١﴾ ﴿النَّمل﴾، وقد تتصدّر حقيقة أو حكمة أو مثلا، يمثّل خلاصة الوعي وصدق التّجربة الإنسانيّة، وتمتصّ برفق ثورة الغضب وتربت على كتف المخاطب في لين ومودّة وتؤدة، وتمسح ضغينة نفسه

1. ينظر: درّاز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 153.

فتذهبها، كآية هابيل، وقصّة يعقوب عليه السّلام، قال تعالى: "...قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴿المائدة﴾، فردّ عليه بثقة وحلم، وسلك في ذلك مسلك التّعريض حذرا من غضبه الشّيطاني، ثمّ دعاه دعوة رقيقة إلى التّقوى عساه يفيء إلى ربّه، ليهدأ غضبه ويسكن روعه ويردّه إلى الهدى، وما أفلح[1].

ولو وضع النّفي والاستثناء في غير القرآن في مواقف كهذه بدل إنّما، كان وضعه في غير محلّه.

وقد تأتي إنّما في الأغراض الّتي يأتي لها النّفي والاستثناء؛ في الإنكار والجدل، والفرق أنّ السّياق بإنّما هادئ ونبرة الكلام خفيضة؛ دلالة على أنّ هذه الأمور واضحة عند العقلاء، ولا ينبغي أن تكون موضع إنكار؛ قال الله تعالى: "...إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴿النّسآء﴾، دعوة إلى الإيمان والتّوحيد[2].

ـ دلالات أسلوب إنّما و فضلها:

يقول عبد القاهر في بيان فضل التّعبير بـ«إنّما»: (إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التّعريض بأمر هو مقتضاه)[3]، والتّعريض (هو الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أنّ الغرض جانب آخر)[4] وهو ضد التّصريح، (يعني أن يكون المقصود بها معنى غير المعنى المباشر لما دخلت عليه)[5]، وهو

1ـ ينظر: الزّمخشري، الكشاف، ج1، ص: 224/ وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج2، ص: 39، 40.

2ـ ينظر: درّاز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص ص: 235، 236.

3ـ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 346.

4ـ الطّيبي؛ شرف الدّين الحسين بن محمّد بن عبد الله، التّبيان في البيان، تعليق: يحيى مراد، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 2004م، ص: 127.

5ـ أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 159.

معنى يتولّد من تداخلها بالسيّاق، وتفاعلهما في إحكام واتّساق، كقوله تعالى: "...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴿الرَّعْد﴾، فليس الغرض إعلام السّامعين ظاهر معناه، أنّه لا يتذكّر غيرهم، لأنّه من البداهات، إنّه التّعريض؛ يعني إذا كان التذكّر ثابتا لأولي الألباب ومنفيا عن غيرهم؛ اقتضى هذا أن يكون غير المتذكّرين من غير أولي الألباب، وهناك على مقربة من هذا القول طائفة رفضت التّفكير فيما عرض عليها من قضيّة الإيمان بالله تعالى، ولم تناقشها مناقشة معقولة؛ تنتهي بها إلى الرّفض أو القبول، وإنّما ركبت متن العناد، هؤلاء ليسوا من أولي الألباب، هكذا ينبعث المعنى المباشر من العبارة، ويتولّد منه لازمه، ويلامس السيّاق، وبعد ذلك ينتج المعنى المعرّض به، لذمّ الكفّار وأن يقال إنّهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل، فلا تطمعوا منهم أن ينظروا ويتذكّروا، ولو قلت: ليتذكّر أولو الألباب؛ وحذفت «إنّما» لكان مجرّد وصف ولم يدلّ على ما دلّ عليه في الآية، ولما حصل هذا التّعريض بامتناع التذكّر ممّن لا يعقل، والّذي أفادته "إنّما"؛ من بعد النّفي والإثبات والتّصريح[1]، وليس في الأسلوب كلام يفيد هذا بحيث نفهمه من متن العبارة، وإدراك مرماه محتاج إلى قدر من الفطنة والوعي بالسيّاق، وتذوّق معناه.

ج ـ دلالات التّقديم ومقامه:

تقديم ما حقّه التّأخير يستخدم في المواطن الّتي فيها الإهانة والتّحقير، أو التّعظيم والتّفخيم، وليس فيه تلك الأسرار الّتي في (إنّما) والنّفي والاستثناء، فهو قصر يجيء بمعونة السّياق، وليس هذا قدحا فيه، وإنّما هو تحديد ملامح هذا الطّريق الّذي تقتضيه مقامات لا يسدّها غيره، حيث لا تكون الحقيقة المخبر بها ممّا يجهله المخاطب، ولا تكون ممّا يعلمه، كما هي في (إنّما) والنّفي والاستثناء، والمقامات هنا أشبه بالمقامات المقتضيّة للأساليب الحقيقيّة، وهي بليغة لاشكّ، أمّا هناك فهي أشبه بالمقامات المقتضيّة للمجازات وهي أخصب، ويعدّ التّقديم مظهرا من مظاهر كثيرة تمثّل قدرات إبانة، وطاقات تعبيريّة يديرها المتكلّم الذكيّ إدارة واعيّة، للبوح بأفكاره[2].

---

1. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 347/ وأبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 160.
2. ينظر: أبو موسى محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 170.

د ـ مقام ضمير الفصل ودلالاته :

ضمير الفصل يأتي في كلّ موضع أُدّعيَ فيه الشّركة في ذلك المعنى ، ولم يؤت به حيث لم يدّعَ ، ويأتي مع تعريف الطّرفين فيكون مؤكّدا للحصر ، ويجيء في مقامات الرّحمة ، فنجد روحا وسلاما ونسمات من حنان؛ كقوله تعالى : " قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴿الزمر﴾ ، وفي تداخل الرّحمة وهول الانتقام ، تظهر عزّة العزيز وحكمة المقتدر ، فتصيب الرّحمة من يستحقّها ويصيب العذاب أهله؛ قال الله تعالى : "فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴿ هود ﴾ ، وقوله تعالى على لسان عيسى عليه الصّلاة والسّلام : "إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴿المائدة﴾ ، فهو غفران لمن عصى لا يملكه ولا يقدر عليه سواه[1].

هـ ـ مقام القصر بتعريف الطّرفين ودلالاته :

يأتي كثيرا في القرآن الكريم في السّياقات الّتي تتحدّث عن إثبات العقيدة في نفوس البشر ، وتفرّد الله تعالى بالحكم وإدارة جميع الأمور ، وكمال العلم ، والله تعالى أعلم؛ قال تعالى في مقام الردّ على المنكرين ونجاة الصّادقين يوم القيامة : "قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴿المائدة﴾ ، جيء بهذا القصر لبيان كمال الوعد للصّادقين ، فلا فوز إلاّ ذلك الفوز العظيم ، وقال تعالى : "وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ...﴿٥٧﴾ ﴿ الأعراف ﴾ ، فقصر إرسال الرّياح على ذاته العليا ، إثباتا لألوهيّته ، وهذا الأمر

1. ينظر : درّاز صبّاح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة ، ص : 146.

معهود عند السّامع، فجاء بتعريف الخبر (الاسم الموصول) لتأكيده، ولم يأت التّركيب: وهو يرسل الرّياح[1].

و ـ مقام القصر بالعطف ودلالته:

القصر بالعطف يتميّز بالأناة والمهل وبطء الإيقاع وإثارة التعقّل الرّزين؛ تثبيتا للمعنى ونقشا للصّورة في القلب، لأنّه غالبا أمر خطير جليل كحياة الشّهداء ورزقهم، قال الله تعالى: "وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴿البقرة﴾، يعلّم المؤمنين ألاّ يقولوا مثلما يقول المنافقون: إنّ من يخرج إلى الجهاد يقتل فهو فاقد حياته، وذهب عنه نعيم الدّنيا [2].

4ـ موازنات بين طرق القصر (أوجه الاتّفاق والاختلاف):

ـ يدلّ النّفي والاستثناء وإنّما والعطف على القصر وضعا، بينما يدلّ الباقي عليه بالمفهوم والفحوى، بمعنى أنّ الذّوق السّليم إذا تأمّل فيه فهم القصر[3]، وإن لم يعرف اصطلاح البلغاء فيه.

ـ النّفي بلا العاطفة يمكن أن يجتمع مع إنّما والتّقديم دون النّفي والاستثناء[4]، تقول: إنّما عليّ شاعر لا كاتب، لوضوح المعنى وتعيّن المقصور عليه فيهما، فهو (شاعر)، وفيه تأكيد مضاعف، ولا يصحّ: ما عليّ إلاّ كاتب لا شاعر.

ـ اجتماع إنّما مع التّقديم؛ متدافعان في موضع المقصور عليه، لأنّه في التّقديم هو المقدّم، وفي إنّما هو المؤخّر، فإذا كان التّقديم بالخبر؛ نحو قوله تعالى: "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴿الرّعد﴾، أُفِيدَ القصر من إنّما، ودلالة التّقديم ملغاة، كما تبطل في النّفي والاستثناء؛ كقوله تعالى: "مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ ...﴿٩٩﴾ ﴿المائدة﴾، "...إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ ...﴿٤٨﴾ ﴿الشورى﴾، فيكون التّقديم

1ـ ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج: 4، ص: 319.

2ـ ينظر: المصدر السّابق، ج: 1، ص: 622.

3ـ ينظر: السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 512.

4ـ ينظر: القزويني؛ الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، ص: 127/ والسّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 513.

لغرض آخر كالاهتمام وتحديد المهمّة والانتباه، وفي جملة العطف من الآية "وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ"، إن عطف على ما بعد إنّما كان الحساب مقصورا عليه، وإن عطف على جملة القصر بإنّما كان المقصور عليه "علينا"، أي الحساب علينا لا عليك وهو الظّاهر من المنطوق والسيّاق، ولو أريدت دلالة التّقديم في جملة القصر لكان المعنى: ما البلاغ إلاّ عليك لا على غيرك وهو غير مقصود هنا[1]، ومن هذا نخلص إلى ضرورة العناية بمجاري المعاني في بناء العبارة؛ إذا جمعت بين طرق يمكن الملاءمة بينها.

ويمكن القول بأنّ تقديم الخبر على المبتدأ مع إنّما حسب المقام والقرائن، فإن أفاد التّقديم القصر ألغيت إنّما، وإلاّ بقيت دلالتها.

وإذا اجتمعت إنّما مع التّقديم بالمفعول به، ألغيت دلالة إنّما على القصر، وبقيت دالّة على التّأكيد، وبقي التّقديم دالاّ على القصر.

ـ الأصل في العطف أن ينصّ فيه على المثبت والمنفي، أمّا الطرق الأخرى فتدلّ على المثبت دون المنفي.

ـ الخبر بـ"إنّما" يفيد إيجاب الفعل ونفيه عن غيره دفعة واحدة، وفي حال واحدة وتجعل الأمر ظاهرا؛ والنّفي فيها ليس صريحا، ولا تقع (من) الزّائدة ولا لفظة (أحد) في جملتها، لأنّهما لا تقعان إلاّ في حيّز النّفي بـ (ما) و(إلاّ)؛ نحو: ما من إله إلاّ الله، وما أحد إلاّ يقول هذا.

ـ تعامل "غير" معاملة "إلاّ"، ويضاف له احتمال النّفي والإثبات؛ نحو: "ما جاءني غير زيد" فيحتمل: نفي أن يكون قد جاء معه إنسان آخر، كما يحتمل نفي مجيئه وإثباته لجاء آخر.

ـ القصر بضمير الفصل في باب إنّ وأخواتها، وباب المبتدأ والخبر، لا يظهر له حكم، لأنّ أخبارها مرفوعة، ولا يعلم أنّ المضمر فصل أو مبتدأ إلاّ بالإرادة والنيّة، ويظهر مع الفعل النّاسخ، لأنّ أخبارها منصوبة[2].

1ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص: 339، 340/ والزّمخشري، الكشّاف، ج: 2، ص: 299/ ودرّاز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص ص: 243، 244.

2ـ ينظر: نجاح أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه، ص: 74.

ـ القصر بتعريف الطّرفين يتولّد ممّا بين الكلمات، ويفيد أنّك أردت أن تثبت حدثا مخصوصا قد حدث من واحد، فإذا أثبته له لم يصحّ إثباته لغيره، وقد يكون تعريف المسند على دعوى أنّ المعنى الّذي يتضمّنه لا يكون إلاّ منه، ولا يستطيعه غيره؛ نحو: هو المانح الجوائز[1].

ـ قد يكون الغرض من تعريف المسند الإشارة إلى بلوغ المسند إليه مبلغ الكمال في الصّفة لا القصر، والمعوّل عليه في فهم هذا المعنى وإدراكه هو مراجعة النّفس والتّأمّل.

ـ قد يأتي القصر بالتّقديم وضمير الفصل وتعريف الجزءين في أمر ينكره المخاطب أو يجهله أو ما ينزل هذه المنزلة، وقد تدلّ هذه الأساليب على التّعريض كإنّما.

5 ـ الأسرار البلاغيّة والجماليّة :

لا شكّ أنّ القصر يطرأ على الأسلوب، بطرقه وأدواته فيحدث فيه خصوصيات ومزايا تتلاءم والحال الّتي اقتضت طريقا خاصّا وصياغة معيّنة؛ منها :

1ـ تداخل النّفي والإثبات في القصر يجعله مركّزا، ذا إشعاع وظلال، وقوّة وحسم ومبالغة في الحكم لأنّه توكيد فوق توكيد.

2 ـ القصر يحدّد المعاني تحديداً كاملاً، ولذا كثيرا ما يستفاد منه في التعريفات العلمية وغيرها.

3 ـ القصر من ضروب الإيجاز وهو من أهمّ أركان البلاغة، فجملة القصر تقوم مقام جملتين : مثبتة ومنفية، وقيمته تظهر في الأداء والإبانة والتّعابير المحكمة في مقامات لا ينهض بها سواه.

4 ـ إذا اختصصت الشّيء بحكم يعني أنّك نفيت عنه باقي الأوصاف الّتي تتوهّم وتنافي ذلك الحكم ولا تنفي ما ليس من ذلك الحكم، فقولك : "ما زيد إلاّ قائم"، تنفي عنه الجلوس والاضطجاع والاتّكاء وما شاكل ذلك، ولا تنفي أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا، وكذلك لا تنفي أن يكون في الدّنيا قائم سواه، وإنّما تعني : ما قائم حيث نحن وبحضرتنا.

5 ـ لطرق القصر عامّة أغراض بلاغيّة كثيرة؛ منها : الوعد والوعيد، الزّجر والتّقريع، التّخويف، قطع الأطماع، التّهوين من شأن، التّحقير والتّوبيخ، التّنبيه ولفت الأنظار والتّذكير، الاستهزاء والعتاب

1ـ ينظر : نحلة؛ محمود أحمد، في البلاغة العربيّة؛ علم المعاني، الطّبعة الأولى، دار العلوم العربيّة، بيروت، لبنان، ص : 63.

بشدّة، تحفيز الهمم والتّعظيم، وإلهاب الحماسة والتّرهيب والحثّ والتّرغيب، والبشارة والإشعار بالعفو والصّفح والرّحمة.

6 ـ القصر بالتّقديم والتّأخير يوسّع المعنى ويوجز في التّعبير، ويولّد معانيَ جديدةً، ويزيل اللّبس؛ فقولك: ما شاعر إلاّ أحمد، ليست هي: ما أحمد إلاّ شاعر، وبه نعرف معنى قوله تعالى: "وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ...﴿١٠٠﴾ ﴿الأنعام﴾، تفيد: (إنكار أن يكون لله شريك من الجنّ ومن غيرهم؛ والجنّ بدل، ولو قال: جعلوا الجنّ شركاء لله لما أفاد إنكار أن يكون لله شريك ولكنّه من غير الجنّ)[1].

7ـ جملة القصر ذات دلالة قطعيّة لا احتماليّة؛ "لا إله إلاّ الله"، "الله ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين".

8 ـ قصر الصّفة على الموصوف نحو:("ما شاعر إلاّ أحمد"، ظاهرة دلاليّة وتعبيريّة تفيد التّفخيم والتّعظيم)[2].

9 ـ قصر الموصوف على الصّفة نحو: ("ما أنت إلاّ شاعر"، قد يفيد التّقليل والتّحقير)[3].

10 ـ ليس كلّ كلام بـ"ما" و"إلاّ" يصلح فيه " إنّما"، فإذا قلت بدل: إنّما هو درهم لا دينار/ ما هو إلاّ درهم لا دينار، لم يكن شيئا، فجعل "إنّما" في معنى "ما" و"إلّا" يسقط الفرق وما ينبني عليهما[4].

11 ـ التّعبير بالنّفي والاستثناء بعامّة، وبـ(إن) و(إلاّ) بخاصّة؛ لابدّ أن يأتي في سياق يقتضيه، وهو ما يسمّيه عبد القاهر بالنّظم أو التّلاؤم، والملاحظ في نظائر هذا الأسلوب أنّه إذا ذكر لفظ الجلالة الأقدس مقصورا عليه اختفى وانتفى ما يقابله [5].

12 ـ المقام والنّسق الخاصّ أو العامّ؛ هو الّذي يعيّن نوع القصر ونوع الأداة المستعملة، ويقتضي طريقا دون سواه، لاختلافهما إيقاعا ودلالة، وصياغة وقوّة ووجهة خاصّة من الأغراض والمعاني[1]، والتّعريض ليس خاصّا بإنّما، ولا إنّما خاصّة به، فقد يفيد النّفي ذلك أيضا.

1ـ السامرّائي؛ فاضل صالح، الجملة العربيّة والمعنى، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، لبنان. 1421هـ/ 2000م، ص: 162.

2ـ المرجع السّابق، ص: 243.

3ـ المرجع السّابق، ص: 245.

4ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 328.

5ـ ينظر: درّاز صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 62.

13 ـ التّقديم عند جمهور البيانيين لازم للتّخصيص غالبا، لا دائما، فقد يصحّ لأغراض أخرى كالاهتمام والعناية ومراعاة نظم الكلام، وقد يفيدهما معا، ولا منافاة بين الأمرين، فيكون في ذلك مراعاة لجانب اللّفظ والمعنى جميعا، فالاختصاص أمر معنوي، ونظم الكلام أو التّشاكل أمر لفظي وعلى هذا قوله تعالى: "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴿طه﴾، وقوله سبحانه:"خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴿الحَاقَّة﴾، فبالتّقديم تحصل ملاحظة الأمرين جميعا[2]، فلا تزاحم بين المقتضيات.

14 ـ تختم الآيات في القرآن الكريم غالبا بذكر بعض أسماء الله تعالى، بتعريف الطّرفين تذييلا مناسبا ملائما لما سبق الآية، وهذا السّابق هو أثر من آثار الصّفات اللاّحقة، كقوله تعالى: "لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴿الأنعام﴾، وقوله: "لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴿الحَدِيد﴾.

15 ـ ترابط أطراف هذا البحث نحويّا وبلاغيّا وأصوليّا، رغم الخلاف الّذي كان بين العلماء؛ خاصّة الأصوليين؛ أدّى إلى وجود ثروة لغويّة وأصوليّة وفقهيّة لا بأس بها، تفاوتت فيها أفهام العلماء، وتركت لنا تراثا نعتمد عليه في دراساتنا اللّغويّة والشّرعيّة.

1ـ ينظر: دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 238.

2ـ ينظر: العلوي؛ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطّراز، ج: 2، ص: 38.

الفصل الثّاني

بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي المعاصر

تمهيد: البنية والوظيفة

المبحث الأوّل؛ الوظيفيّة البنيويّة، حلقة براغ أنموذجا

1 ـ وظيفيّة حلقة براغ

أ ـ مفهوم البنية عند مدرسة براغ

بـ ـ مفهوم الوظيفة عند حلقة براغ

ج ـ نظرتها الوظيفية للجملة (علاقة البنية بالوظيفة)

2 ـ التّحليل الوظيفي للجملة عند أندريه مارتيني

أ ـ التّركيب الإسنادي

بـ ـ الدراسات الصياتية

ج ـ علاقة البنية بالوظيفة عند مارتيني

المبحث الثّاني؛ وظائف اللّغة الأخرى

المبحث الثّالث؛ بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي التّداولي

1 ـ أهمّ مبادئ نظريّة النّحو الوظيفي التّداولي

2 ـ الجملة والبنية في النّحو الوظيفي بين البناء والإنجاز

3 ـ تبعيّة البنية للوظيفة

4 ـ بنى القصر ووظائفه التّواصليّة

5 ـ الحصر عند أحمد المتوكّل

المبحث الرّابع؛ دور المقام والسيّاق في تحديد بنية ومعنى جملة القصر

1 ـ دور المقام

2 ـ دور السياق في تحديد المنفي في جملة القصر

3 ـ دور المخاطب والمتكلّم في بنية جملة القصر

4 ـ سياق الأسلوب والمعجم ومرمى القصر

الفصل الثّاني :

بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي المعاصر :

تمهيد : البنية والوظيفة :

يعنى الاتّجاه الوظيفي بكيفيّة استخدام اللّغة بوصفها وسيلة اتّصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصّل إلى أهداف وغايات معيّنة، ويربط بين النّظام اللّغوي وكيفيّة توظيف هذا النّظام لأداء المعاني، مع وجود خيارات متعدّدة أمام المتكلّم ضمن نظام اللّغة تجعله يختار نظاما معيّنا يقدّم من خلاله ما يريد قوله مراعيا ظروف الكلام، وسياقا له وظائف محدّدة، والخيارات الممكنة لا تعني أنّها مترادفة، لأنّ كلاّ منها يركّز على جانب معيّن[1].

1ـ مفهوم البنية :

من بَنَى يَبْنِي بِنَاء، وبِنْيَةً؛ ورد في لسان العرب « البِنْيَةُ والبُنْيَةُ ما بَنَيْتَه، .. يقال : بِنْيَة؛ وهي مثل رِشْوَة ورِشًا، كأنّ البِنْيَةَ الهَيْئَة الّتي بُنِيَ عليها؛ مثل المِشْيَة والرِّكْبَة... يقال بُنيَة وبُنًى وبِنْيَة وبِنًى »[2].

وبِنْيَةُ الشَّيْءِ : ما هو جوهري فيه، أو ما هو أصيل فيه وثابت لا يتبدّل بتبدّل الأوضاع والحالات[3].

وهي أنواع : بنية كلمة وبنية جملة وبنية نصّ، وبنية الكلمة عند النّحاة العرب هي صيغتها أو وزنها أو هيئتها المتمثّلة في عدد حروفها المرتّبة؛ أصليّة وزائدة، وحركاتها المعيّنة وسكونها[4]، وتأخذ بعض التّعريفات بمبدأ العلاقة فتحدّد البنية بأنّها نظام يقوم على قوانين داخليّة تتحكّم في الرّبط بين العناصر المكوّنة للبنية، أي؛ أنّها علاقات تربط المكوّنات بعضها ببعض، دون الرّجوع إلى عناصر خارجيّة، والمعنى يستخرج من مجموع العلاقات النّظميّة الّتي تربط بين تلك المكوّنات وفق أحكام لغويّة معيّنة تبعا لنظام تلك اللّغة المستعملة[5].

1ـ ينظر : أحمد محمّد قدور، مبادئ اللّسانيّات، ط 3، طبعة مزيدة منقّحة، دار الفكر، دمشق 2008م، ص : 297، 298.

2ـ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مج : 1، ج : 3، باب : الباء، مادّة (بنى)، ص : 365.

3ـ ينظر : مهيبل عمر، البنيويّة في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط3، 2010م، ص : 19.

4ـ ينظر : عبد الرّحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، موفم للنّشر الجزائر، 2007م، ج1، ص : 207، وهامش : 213.

5ـ ينظر : دفة بلقاسم، بنية الجملة الطّلبيّة ودلالتها في السّور المدنيّة، منشورات مخبر الأبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، جامعة محمّد خيضر بسكرة، 2008م، ج1، ص : 6.

2ـ مفهوم الوظيفة :

يقول ابن منظور : «وَظُفَ : الوَظِيفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ مَا يُقَدَّرُ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ رِزْقٍ، أَوْ طَعَامٍ، أَوْ عَلَفٍ، أَوْ شَرَابٍ، وَجَمْعُهَا الوَظَائِفُ وَالوُظُفُ، وَوَظَفَ الشَّيْءَ عَلَى نَفْسِهِ وَوَظَّفَهُ تَوْظِيفًا؛ أَلْزَمَهَا إِيَّاهُ، وقد وَظَّفْتُ لَهُ تَوْظِيفًا؛ عَلَى الصَّبِيِّ كُلَّ يَوْمٍ حِفْظَ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» [1].

والوظيفة عموما هي الدّور، وكلمة "وظيفة" في الدّراسة اللّغويّة لها معنيان[2]:

أ ـ الوظيفة بمعنى الدّور والغرض الّذي تؤدّيه اللّغة كظاهرة اجتماعيّة وهو التّواصل.

بـ ـ الوظيفة بمعنى العلاقة القائمة بين مكوّنات المركّب الاسمي أو الجملة؛ كعلاقة الإسناد في الدّراسة الوظيفيّة للجملة، وكالعلاقات المقترحة في إطار الجهاز الوظائفي عند سيمون ديك، وتعني بدورها الوظائف الثّلاث :

الوظائف الدّلاليّة (وظيفة المنفّذ، المتقبّل، المستقبل، المستفيد...)، والوظائف التّركيبيّة (وظيفة الفاعل والمفعول)، والوظائف التّداوليّة (وظيفة المبتدأ، المنادى، المحور، البؤرة، الذّيل)، وكالعلاقات الّتي تقوم بين العناصر اللّغويّة في البنية النّحويّة للتّعبير (الفونيم، المورفيم، الكلمة، المركّب...).

وفي الأنحاء الصّوريّة يستعمل هذا المصطلح للدّلالة على العلاقات التّركيبيّة؛ كعلاقات الفاعل والمفعول المباشر والمفعول غير المباشر.

ومفهوما العلاقة والدّور بالنّسبة للوظيفة مفهومان متباينان، حيث إنّ العلاقة رابط بنيوي قائم بين مكوّنات الجملة أو مكوّنات المركّب، في حين أنّ الدّور يخصّ اللّغة بوصفها نسقا كاملا، وهذا التّباين لا يلغي ترابطهما في مبدأ أنّ للّغة دورا معيّنا تسخّر لأجله؛ كدور تحقيق التّواصل بين مستعمليها، وأنّ هذا الدّور حاضر في العلاقات الدّلاليّة والتّداوليّة القائمة بين مكوّنات العبارات اللّغويّة؛ مركّبات وجملا ونصوصا، بالإضافة إلى الوظائف الأخرى، وهذا الدّور يجب أخذه بعين الاعتبار في وصف الظّواهر

1ـ ابن منظور، لسان العرب، مج: 6، ج: 51، باب: الواو، مادّة (وظف)، ص: 4869.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد: التّركيبات الوظيفيّة؛ قضايا ومقاربات، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005م، الرّباط، ص ص: 21، 23/ واللّسانيات الوظيفيّة (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط2، 2010م، ليبيا ص: 50.

اللّغويّة وتفسيرها ، والرّبط بين بنياتها التّركيبيّة ووظيفتها التّواصليّة على أساس أنّ الثّانيّة تحدّد سمات الأولى؛ مكوّناتٍ ورتبةً [1].

والتّركيز في هذه الدّراسة على الوظيفة الّتي تعني الدّور المنوط ببنيات اللّغة وهو التّواصل ، أكثر منه على الوظيفة الّتي بمعنى العلاقة.

والوظيفيّة نسبة إلى الوظيفة ، وتعني في الاتّجاه الوظيفي(**functionalism**)؛ ارتباط بنية اللّغة بوظيفة التّواصل والبيان ، ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة وتابعة لها.

وقسّمت النّظريّات الّتي اعتمدت مبدأ وظيفة اللّغة التّواصلي إلى : وظيفيّة بنويّة؛ ركّزت على وظيفة البنيات اللّغويّة ، وظهرت مع مدرسة براغ ، ووظيفيّة تداوليّة تنظر إلى اللّغة مرتبطة بمختلف الظّروف والملابسات المقاميّة الّتي تنتج فيها الجمل أو ينجز فيها الكلام لأداء وظيفة التّواصل كذلك ، وأشهر من يمثّلها سيمون ديك الهولندي ومن العرب أحمد المتوكّل[2].

1ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، التّركيبات الوظيفيّة ، قضايا ومقاربات ، ص ص : 23 ، 43.

2ـ ينظر : الطّاهر شارف ، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير لابن عاشور؛ بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة ، 2005 ، 2006ص : 20.

المبحث الأوّل؛ الوظيفيّة البنيويّة ، حلقة براغ أنموذجا :

1 ـ وظيفيّة حلقة براغ؛

بدأ الاتجاه الوظيفي يبرز إلى الوجود وتتكوّن ملامحه في حلقة (مدرسة) براغ الّتي استفادت من آراء دي سوسير، واشتهرت في ميدان اللّسانيات بدراساتها الصوتية، وكوّنت لنفسها نظريّة لغويّة تحدّد منهجها انطلاقا من اعتبارها اللّغة نظاماً وظيفيّاً يرمي إلى تمكين الإنسان من التّعبير والتّواصل، وفسّر أصحابها اللّغة بأنّها بنية وظيفيّة يمكن تقطيعها إلى بنيات صغيرة لها وظائف خاصّة ومتميّزة، فضبطوا منهجاً للتّمييز بين ما هو وظيفي فيها وما ليس وظيفيّا[1].

فالبنى الصياتية، والقواعدية، والدلالية محكومة بالوظائف التي تؤدّيها في المجتمعات التي تعمل فيها، ومن الصّعوبة الفصل بين البنية اللّغوية، والسياق الّذي تعمل فيه، والوظيفة الّتي تؤدّيها تلك البنية في السيّاق، لذلك يجب أن تكون دراستها دراسة وظيفيّة محضة، فالباحث يحاول دائما أن يكشف ما إذا كانت كلّ القطع الصّوتيّة الّتي يحتوي عليها النصّ تؤدّي وظيفة في التّبليغ أم لا[2].

وإذا كان سوسير يعتبر اللّغة نظاما من العلامات، فمدرسة براغ ترى أنّها؛ نظام من الوظائف وكلّ وظيفة نظام من العلامات، أو وحدات لغويّة صوتيّة، وكلّ وحدة لغويّة لا حقيقة لها لغويّا إلاّ إذا ثبت أنّ لها وظيفة، أي أنّها تساهم بنصيبها في تبليغ المعنى[3].

أ ـ مفهوم البنية عند مدرسة براغ :

أجزاء مفردة تترابط ترابطا غير مستقلّ لتشكّل نظاما من العلامات له علاقة بأنظمة علاماتيّة أخرى، لها وظيفة تواصليّة ووظائف أخرى، وقد نظروا في البنية اللّغويّة في ارتباطها الوثيق بالأبنية

1ـ ينظر: المهيري؛ عبد القادر وآخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، ط2، 1990م، تونس، ص ص: 40، 41.

2ـ ينظر: محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيّات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004م، ص: 70.

3ـ ينظر: المهيري؛ عبد القادر وآخرون، أهمّ المدارس اللّسانيّة، ص: 42.

المحيطة بها ، وبذلك فهم راعوا الواقع غير اللّغوي ، فصارت البنية تعني الأجزاء وعلاقتها المستقلّة بالعلم غير اللّغوي ، أو هي التّرتيب الدّاخلي للوحدات الّتي تكوّن النّظام اللّساني[1].

ب ـ مفهوم الوظيفة عند مدرسة براغ :

يفهم أعضاء هذه المجموعة الوظيفة بالمعنى اللّغوي العادي؛ (له وظيفة ، له مهمّة ، وله دور) ، فاللّغة بالنّسبة لهم وسيلة إفهام وهدف ، و(إذا كان دور اللّغة هو توفير أسباب التّواصل فإنّ دراسة اللّغة ينبغي أن تراعي ذلك ، فكلّ ما يضطلع بدور في التّواصل ينتمي إلى اللّغة وكلّ ما ليس له مثل هذا الدّور فهو خارج عنها)[2] ، فنظروا إلى اللّغة كما ينظر المرء إلى محرّك محاولا أن يفهم الوظائف الّتي تؤدّيها أجزاؤه المختلفة ، وكيف تحدّد طبيعة جزء معيّن طبيعة الأجزاء الأخرى ، ولم يكتفوا بالحديث عن ماهيّة اللّغة ، بل تحدّثوا عن سبب اتّخاذ اللّغات الأشكال الّتي نجدها عليها[3].

ج ـ نظرتها الوظيفية للجملة (علاقة البنية بالوظيفة):

عبّر ماثيوس عن نظرته الوظيفيّة في شكل ثنائيّات متمايزة تتعلّق بالطّرفين الأساسيين للجملة ، وتأثير كيفيّة ترتيبهما في الوظيفة الّتي تؤدّيها الجملة ، وهذه الثّنائيّات هي ثنائيّة الموضوع ، والتّعليق أو البؤرة ، وثنائيّة المتقدّم والمتأخّر ، وثنائيّة المسلّمة والإضافة ، فالمتقدّم هو الشّيء المتحدّث عنه الّذي يفترض المتكلّم معرفة المخاطب له ، والمتأخّر هو الجزء المتمّم للجملة الّذي يضيف إلى معلومات المخاطب السّابقة معلومات جديدة تتّصل بالمتقدّم ، والمسلّمة هي ما يقدّمه المتكلّم من معلومات يدركها السّامع من مصدر ما في المحيط (أي المقام ، أو النصّ السّابق) ، والإضافة ما يقدّمه المتكلّم من معلومات لا يدركها

1ـ ينظر : بوقرة؛ نعمان ، المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب ، دراسة معجميّة ، جدارا للكتاب العالمي ، عمّان الأردن ، ط1 ، 2009م ، ص ص : 94 ، 95.

2ـ المهيري؛ عبد القادر وآخرون ، أهمّ المدارس اللّسانيّة ، ص : 40.

3ـ ينظر : جفري؛ سامسون ، مدارس اللّسانيّات ، التّسابق والتطوّر ، ترجمة : محمّد زياد كبة ، مطابع جامعة الملك سعود ، 1417هـ ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، ص : 106.

السّامع من مصادر أخرى[1]، ففي قوله تعالى: "...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾ ﴿فَاطِر﴾، وقول العلماء في شرحها: إنّما يخشى العلماءُ اللهَ.

نجد أنّ المعنى الإسنادي (أو النّسبة الخارجيّة) واحد فيهما، إذ كلاهما يفيد أنّ خشية الله تعالى تكون من العلماء، وبناء على ذلك فهما مترادفان تقريبا، ولكن من الواضح أنّهما يستعملان في سياقين مختلفين، ففي تبادل الرّتب يحدث تغيير في المعنى، وفي ضوء هذا التّفريق يكون تفسير معنى القصر؛ إذ إنّه مع تقديم اسم الله تعالى يكون الغرض تبيين الخاشعين من هم، ويخبر بأنّهم العلماء خاصّة دون غيرهم، وفي تأخير ذكر اسم الله تعالى وتقديم العلماء؛ يصبح المعنى على ضدّ ما هو عليه الآن، فيصبح الغرض بيان المخشى من هو، والإخبار بأنّه الله تعالى دون غيره[2].

فاختلاف البنيتين باختلاف السيّاقين؛ يفسّر ما يعرفه المخاطب حول موضوع الجملتين، وهو المقدّم، وأنّ الطرف الثاني غير معروف، وكما هو واضح فإن بنية كلّ جملة من الجملتين السّابقتين محكوم بالوظيفة الّتي يريد المتكلّم أن يؤدّيها خطابه أي الغرض الإبلاغي.

وقوله تعالى: "...إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ...﴿٣٣﴾ ﴿الأعراف﴾؛ في مقابل: ما حرّم ربّي إلاّ الفواحش، التّقابل بينهما في المعنى لا يعني المطابقة وإسقاط الفرق بينهما، ولكن اشتراكهما في الدّلالة العامّة، فالموضوع المتقدّم واحد هو: (حرّم ربّي)، والبؤرة المتأخّر في كليهما هو: (الفواحش)، وهما ليسا سواء، لذلك اختلفت الأدوات الّتي تعيّن الهيئة أو الجهة أو تحدّد المعنى المقصود، فالأداة إنّما تكون في موقف اللّين، وتعيّن الجهة الموجّه لها الخطاب، وهي غير المُنكِرة ولا المعاندة، وتدلّ على أنّ الخطاب مسلّم به لا يحتاج إلى مشاحّة.

على عكس «ما وإلاّ»، فتدلّ على أنّه موقف شدّة، وأنّ المخاطب معاند، وأنّ الخطاب فيه غلظة. فالمعنى لابدّ أن يتغيّر مع تغيّر البنية، رغم إمكانيّة اشتراكهما أو تبادلهما في بعض المواضع في

---

1. ينظر: محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيّات، ص ص: 71.

2. ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص: 336، 337/ وبحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، ص: 261.

الظّاهر، إلاّ أنّه في بعض المواضع الأخرى غير ممكن، ففي قوله تعالى: "...وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ ...﴿٦٢﴾ ﴿آل عمران﴾؛ لا يصلح أن تقول: إنّما من إله الله، لأنّ ذلك كلام لا معنى له، وتعليل النّحاة يؤكّد ذلك، فـ(من) الزّائدة في الآية الكريمة لا تكون إلاّ في النّفي، والنّفي في (إنّما) ضمنيّ[1].

فإذا كان العدول في البنية، تغيّرَ المعنى، والتّبادل هنا يحكمه مبدأ دلاليّ، فإذا كان الأمر ظاهرا معلوما مع «إنّما» لم يجز تبادلها مع «ما وإلاّ»، وإذا لم يكن ظاهرا معلوما، أو في حكمه جاز التّبادل، بيد أنّ ذلك المبدأ الدّلالي فيه تجوّز، لأنّه لا يصمد حين نقابل بين الآية: "إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴿النّازعات﴾، والآية: "إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴿فاطر﴾، فليس القصد هنا إعلام المخاطب بأمر يجهله أو ينكره، وإنّما هو تنبيهه ﷺ ولفته إلى ذلك، وأنّه ليس له طاقة فوق ذلك، فالقصد واحد فيهما، إلاّ أنّ البنية الأولى جاءت مؤكّدة للإثبات، والثّانيّة مؤكّدة للنّفي، والاتّفاق كان في المعنى المحوري للقصر وهو قوّة التّوكيد، وهي الدّلالة الثّابتة المستقرّة، ومن هذا يمكن القول؛ إنّ الفروق الدّقيقة بين تلك الأبنيّة الّتي يستند فيها إلى مبادئ دلاليّة فرعيّة؛ غير مستقرّة، فهي تصلح في مواضع ولا تصلح في أخرى، وليست لها صفة الاطّراد، فتَحُولُ دون إمكانيّة تبادلهما، ومخالفة ذلك يؤدّي إلى إسقاط هذه الفروق، والابتعاد عن المعنى المقصود، كما أنّ بنية (إنّما) يصحّ الابتداء بها، وبنية (ما وإلاّ) لا تأتي إلاّ ردّا، فينبغي اعتماد هذا التّفسير للتّفريق بينهما[2].

وعند إسقاط (إنّما) من الكلام، يسقط معه أثر البنية وهو التّعريض بأمر هو مقتضاه، أي أنّ إسقاط إنّما يؤدّي إلى سقوط النّفي المتضمّن، ويصير الكلام غير مناسب لحمل معنى التّعريض.

إنّ مراعاة المتكلّم في اختياره لمكوّنات البنية اللّغويّة والتّأليف بينها؛ لأداء معنى بعينه، يريد من المخاطب أن يقع في ذهنه على هيئة تكوّنه في نفس المتكلّم، يحافظ على تفاعل المخاطب معه في عمليّة التلقّي والفهم والتّواصل والتّفسير، ومراعاة سياقها من الكلام السابق والكلام اللاّحق، والمناسبة

---

1. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب؛ دراسة بلاغيّة، ص: 145، 146.

2. ينظر: بحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، ص: 268.

(مراعاة قرائن المقال والحال)، يبرز موضع الدقّة وينفذ إلى المعانى الظّاهرة والخفيّة ويكشف الغموض ويرصد الدّلالات المختلفة لكلّ بنية في سياقاتها المختلفة[1].

وطوّر دانيش فيما بعد أفكار ماثيسيوس فاقترح مقاربة للجملة تميّز بين ثلاثة مستويات للتّحليل؛

مستوى البنية الدّلاليّة: تتضمّن حدثا ومشاركين، لها مفاهيم دوريّة كمفهوم المنفّذ والمتقبّل أو الهدف.

مستوى البنية النّحويّة: يمثّل فيها لعلاقات تركيبيّة كعلاقتي الفاعل والمفعول.

مستوى البنية الوظيفيّة: تنظيم الجملة على أساس مطابقتها للسيّاق التّواصلي، وتضطلع بالتّمثيل لعلائق تداوليّة؛ كعلاقتي المحور والتّعليق؛ نحو: «إنّما أنت منذر» ، يحمل المكوّن «أنت» الدّور الدّلالي؛ المنفّذ، والعلاقة التّركيبيّة؛ الفاعل، والوظيفة؛ المحور، باعتباره محطّ الحديث، والمكوّن «منذر»؛ يحمل دور الهدف ووظيفة التّعليق [2].

وتختلف مكوّنات الجملة من حيث درجة حركيّتها التّبليغيّة، طبقا لقدم وجدّة ما تحمله من معلومات، فتتقدّم المكوّنات الحاملة للمعلومات القديمة «المعطاة» ، وتأخذ أدنى درجات الحركيّة التّبليغيّة، وتتأخّر أو تتوسّط المكوّنات الحاملة للمعلومات الجديدة، وتأخذ أعلى درجات الحركيّة التّبليغيّة [3].

ومن ملاحظة هذه المدوّنة ـ على المستوى الإفرادي ـ تظهر أنّ ثمّة وحدات لسانيّة مختلفة من حيث البناء، وهذا التّقابل هو الّذي يعكس الفوارق الدّلاليّة بينها، ممّا يؤكّد أنّ لكلّ كلمة وظيفة داخل التّركيب، وينطبق نفس المنهج على المستوى الصّوتي، وهذا ما نلاحظه عند أندريه مارتيني.

1ـ ينظر: بحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، ص: 268.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط2، 2010م، ليبيا، ص ص: 36، 117.

3ـ ينظر: المرجع السّابق، ص: 118.

2 ـ التّحليل الوظيفي للجملة عند أندريه مارتيني :

ينحصر في بيان الوظائف الّتي تؤدّيها اللّغة في البيئة اللّغويّة، من خلال دراسة الأصوات الوظيفية وتفاعلها مع الواقع الّذي توجد فيه والّذي يعبّر عن المستوى الكلامي، حيث يتجلّى المنظور الوظيفي والقيمة الاتّصاليّة للّغة[1]، والعناصر الّتي يعتمدها في تحليل العبارة اللّغويّة؛ هي :

أ ـ التّركيب الإسنادي :

والنّهج الّذي جرى عليه أندريه مارتيني، في تحليل التّركيب الإسنادي، لا يبعد عن سابقيه، وفيه ثلاثة عناصر يمكن أن تحلّل في الجملة، هي :

/ العنصر المركزي وهو المحمول، أي المسند : لا يمكن حذفه؛ يدلّ على فحوى الكلام، يحمل معلومات معروفة مسبقا أو أشير إليها من خلال السياق.

/ وأداة التّحصيل، أي المسند إليه : عنصر إلزامي لا يمكن حذفه، يحتلّ موقعا ضمن الجملة يدخل على المسند وقد يكون مستقلاّ عنه، يُشترط فيه حمل معلومات جديدة تفيد السامع.

/ وأنماط الإلحاق، أي التكملة؛ نحو : النّعت والعطف والإضافة والظّرف[2].

كقوله تعالى : "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴿١٤٤﴾ ﴿آل عمران﴾؛ "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ...﴿١١٧﴾ ﴿المائدة﴾، فرسول مسند، ومحمّد مسند إليه، و"قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ " تكملة (نعت)، وفي الآية الثّانيّة؛ المسند : قل (في قلت)، أضيف له وحدة تركيبيّة (الضّمير)؛ تاء المتكلّم (دالّ على الفاعل)، ليتمّ التّحصيل (المسند إليه)، وما أمرتني به؛ تكملة (مفعول به وجار ومجرور).

وفي قوله تعالى : "وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴿النّمل﴾، المسند إليه : ما من غائبة [3]، والمسند : في كتاب، وأنماط الإلحاق : مبين (نعت)، في السّماء والأرض (جار ومجرور

1ـ ينظر : أحمد محمّد قدور، مبادئ اللّسانيّات، ص : 298.

2ـ ينظر : المرجع السّابق، ص ص : 302، 303.

3ـ ما : حرف نفي، من : حرف جرّ زائد، غائبة : مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلاّ.

وعطف)، وفي قوله تعالى: "إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا..﴿٩١﴾ ﴿النّمل﴾، المسند: أمر، والمسند إليه: التّاء (نائب الفاعل)، أنماط الإلحاق: أن أعبد....(مفعول به ونعت)، وأعبد: مسند، والضّمير المستتر (أنا): مسند إليه، والتّكملة: ربّ هذه البلدة الّذي حرّمها (مفعول به، ونعت)... وفي قوله تعالى: "وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴿البقرة﴾، المسند: تقول، والمسند إليه: واو الفاعل (الضّمير المتّصل)، والباقي تكملة، وفي جملة ما بعد العطف؛ المسند: أحياء، والمسند إليه: الضّمير المستتر العائد على "مَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ"، وفي قوله تعالى: "...عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴿الشورى﴾، المسند: توكّل، والمسند إليه: تاء الفاعل، والجار والمجرور: تكملة، و(عليه وإليه) أداة تحصيل تقدّمت على المحمول (توكّلت، أنيب) لأداء وظيفة التّخصيص، وقوله تعالى: "إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴿البُرُوج﴾، المسند: يبدئ، والمسند إليه: الهاء في إنّه، والتّكملة: ضمير الفصل، العطف، وضمير الفصل جيء به لأداء وظيفة التّخصيص، وفي قوله تعالى: "...وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴿البقرة﴾، المسند في الآية: السّميع، والمسند إليه: هو، والتّكملة: العليم (نعت)، وقد اختلفت بنيات القصر في هذه الآيات لأداء وظائف تواصليّة مختلفة يحدّدها السياق، واشتركت في وظيفة التّخصيص.

وكلّ وحدة من وحدات العبارة تصبح خاضعة إلى نوعين من الضّغوط المتاقبلة[1]:

ضغط أفقي ناتج عن تعاقب الألفاظ في سلسلة الكلام وفيه (تجاذب) بين الوحدات المتجاورة، وضغط عمودي تفرضه الوحدات (الكلمات) المنحدرة والّتي كان بالإمكان ـ في غير القرآن الكريم ـ أن تحلّ في ذلك الموضع.

1ـ ينظر: بنّاني؛ محمّد الصّغير، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، 2001م، ص: 71.

والضّغط الأوّل قائم على التّماثل والضّغط الثّاني على التّباين، وبذلك يمكن التّمييز بين الكلمات الوظيفيّة، أي التّمييز بين الأدوات الّتي لها الصّدارة والأدوات المتمّمة الّتي تـأتي في الآخـر، أو بين الصّيغ الصّرفيّة الّتي تعيِّنُ الهيئة أو الوجهة أو العدد أو أدوات التّعريف والتّنكير.

ب ـ الدراسات الصياتية:

للوظيفيين اهتمام كبير بدراسة الأصوات فاق أي اهتمام آخر، لأنّ اللّغة ظاهرة صوتيّة، ولها وظائف تظهر من خلال التّقطيع والاستبدال[1]، ومن إنجازاتهم في هذا المجال ما قام به أندري مارتيني في ما أسماه بقانون المقابلة والتبديل، إذ على الباحث أن يسعى إلى الكشف عن القطع الصّوتيّة الّتي يمكنها أن تغيّر المعنى كلّما استبدلت بأخرى، وذلك دليل على أنّ لها وظيفة، وإذا أراد الباحث تحليل المدوّنة اللّسانيّة تحليلا وظيفيّا عليه أن يحصي مجموعة من الوحدات اللّغويّة، ثمّ يرتّبها من حيث الشّبه والاختلاف (أي يقابل بينها)، وعندها تتّضح له الفوارق الّتي تعكس قيمتها الذّاتيّة، أي وظيفتها[2]، ويظهر ذلك من خلال :

ـ التّقطيع المزدوج :

هو من أهمّ المبادئ المميّزة الّتي تباين الأنظمة اللّسانيّة البشريّة عن التّنظيمات الاتّصاليّة الأخرى؛ كلغة الحيوان والطّبيعة والإشارات، وهو القطب الّذي تدور عليه رحى الوظيفيّة، وفيه تعزل القطع لتظهر كوحدات وتكتب على شكل تسلسلي، ثمّ يتمّ تحديد دلالاتها ومعانيها واستبدالها لاكتشاف وظائفها، وبفضل هذا التّقطيع يمكن الحصول على تراكيب غير محدودة من العبارات انطلاقاً من عدد محدود من المقاطع، وتحليل الوحدات اللّغويّة يتمّ على مستويين[3] :

1ـ ينظر: محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيات، ص ص: 74، 75.

2ـ ينظر: العلوي؛ شفيقة، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع، ط 1، 2004، بيروت لبنان، ص: 17.

3ـ ينظر: العلوي؛ شفيقة، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، ص: 19/ وبنّاني؛ محمّد الصّغير، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة، ص: 70.

ـ التّقطيع الأوّل :

تقطيع مكوّنات الجملة إلى وحدات ذات دلالة ومعنى ، أي المونيمات (**les monèmes**)؛ وهي الّتي عن طريق التّأليف بينها يمكن لنا التّواصل ، ويتناول الكلمات في صورتها اللّفظية ومن حيث مضمونها؛ مثل : "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ... ﴿٢﴾ ﴿الفاتحة﴾ ⟵ / ال/ حمد/ ل/ الله/ فـ(ال) محدّد تركيبي لمجال الاسم؛ له وظيفة ثانويّة لتخصيصه ، لتعريف الجنس تحيل على ما بعدها ، وتمنحه وظيفة/ حمد؛ اسم للجنس بمعنى الشّكر والثّناء له وظيفة نحويّة (المسند إليه) ، يتّحد مع (ال) ليدلّ بمعناه المعجمي على القصر على ما بعده/ و(الله) اسم الجلالة اسم للإله الواحد الخالق المتحكّم في الكون والنّاس ، له وظيفة نحويّة (المسند) ، ومعناه المعجمي ورتبته يجعله مقصورا عليه.

نلاحظ أن هذا المثال يحتوي على مونيمات متتابعة ، ويسمّى معنى كلّ لفظة مدلولا ، وصيغتها الصّوتية دالاّ ، وهي وحدات دنيا يستحيل تحليلها إلى وحدات دالّة أصغر منها ، ويمكن استبدالها بوحدات أخرى ـ في غير القرآن الكريم ـ ضمن قائمة مفتوحة.

فالوحدة "الحمد" وحدة معجميّة ، تنتمي إلى قائمة مفتوحة ، لأنّ عدد وحداتها متزايد ، وغير متناه؛ مثل: الشّكر ، الثّناء ، الطّاعة ، العبادة....

ويمكن استبدالها (في غير القرآن الكريم) ضمن قائمة مغلقة ، مثل: حمدي لله ، حمدك ، حمده... فالوحدة (ي) وحدة نحوية تنتمي إلى قائمة مغلقة لأنّ عدد وحداتها محدود.

ونحو قوله تعالى : "...مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴿النّور﴾ ⟵ / (ما)؛ تدلّ على النّفي لها وظيفة استبداليّة/(على)؛ تدلّ على الاستعلاء لها وظيفة استبداليّة ، تحدّد وظيفة ما بعدها/ (ال)؛ تدلّ على التّعريف لها وظيفة تركيبيّة/ (رسول)؛ لها معنى معجمي ، لها وظيفة نحويّة تشكّل مع الجار مسندا/ (إلاّ)؛ تدلّ على الاستثناء لها وظيفة استبداليّة/ (ال)؛ تدلّ على التّعريف/ (بلاغ)؛ له

معنى معجمي؛ له وظيفة نحويّة تحيل على الجدول التّركيبي/ (ال) تدلّ على التّعريف/ (مبين)؛ تدلّ على التّكملة (نعت) تحيل على الجدول التّركيبي لها وظيفة نحويّة وهو محدّد معجمي مخصّص للاسم[1].

وقوله تعالى : "...فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴿التَّغَابُن﴾ ← /(ف)؛ رابطة/ (إنّ)؛ تدلّ على التّوكيد لها وظيفة استبداليّة/ (ما)؛ لها وظيفة استبداليّة تدلّ على معنى النّفي وكفّ عمل إنّ/ (على)؛ لا معنى لها في ذاتها، وتدلّ على الاستعلاء، ذات وظيفة استبداليّة وتساعد على تحديد وظيفة ما بعدها وتجلب له وظيفة/ (رسول)؛ له وظيفة تحيل على الجدول التّركيبي (المسند إليه)؛ وله معنى معجمي/ (نا)؛ له وظيفة استبداليّة تركيبيّة لتعريف المضاف وله معنى الضّمير (نحن)/ (ال)؛ ذات وظيفة تركيبيّة تدلّ على التّعريف/ (بلاغ)؛ له معنى معجمي ووظيفة نحويّة (المسند إليه) / (المبين)؛ له معنى معجمي ووظيفة تركيبيّة (تكملة).

و**البنية : ما / إلاّ**؛ تدلّ على تعبير خاصّ لمقام خاصّ لغرض خاصّ، يختلف عن مقام وغرض بنية : إنّما، ويختلف عن البنية المجرّدة منها، فلكلّ بنية منها وظيفة تقتضي موقفا خاصّا بها، ولا وظيفة لها في حدّ ذاتها، هي مخصّصات تساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى، ولها دور في تحديد الموضوع والبؤرة وتحديد المعنى[2].

و**(ال) التّعريف**؛ لا معنى لها في ذاتها، ولها وظيفة تتحدّد من خلال اتّصالها بغيرها، وهي تدلّ على القصر من خلال المعنى المعجمي للاسم المتّصل بها والسّياق الّذي تأتي فيه،"أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...﴿٤﴾ ﴿الأنفَال﴾، (ال) في "ٱلْمُؤْمِنُون" دالّة على الكمال، والضّمير المنفصل "هم" يؤكّد ذلك، لأنّ وظيفته تخصيصيّة، وبذلك لا يخرج من الإيمان كلّ من شهد بالوحدانيّة لله وبالرّسالة لنبيّه؛ حتّى وإن لم يشعر بما شعر به المؤمنون الكاملون، وهي تختلف عن (ال) في "ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ" الدالّة على تعريف الجنس دون القصر.

---

1. ينظر : حركات مصطفى، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة، المكتبة العصريّة، دار الآفاق، دط، دت، ص: 97.

2. ينظر : حركات مصطفى، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة، المكتبة العصريّة: ص: 97، 98، وما بعدها.

وتتحدّد وظيفة كلّ مونيم داخل الجملة انطلاقا من الصّلات القائمة بين الوحدات اللّسانية أي العلاقات بين المونيمات، وما ينتج عن ذلك من تأثير في طبيعة التّراكيب، ويجب معرفة موقعها وانتظامها داخل تركيب وفق ترتيب معين، فاختلاف الموقف يؤدّي إلى اختلاف وظيفتها التّركيبيّة[1]؛ كقوله تعالى: "إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴿البُرُوج﴾، فالعلاقة بين المونيم: "هو" والمونيم المتقدّم عليه والمتأخّر، تحدّد وظيفة كلّ واحد منها، فتكون الهاء في "إِنَّهُ" (المسند إليه)، و"يُبۡدِئُ" (المسند الخبر)، و"هو" للفصل والتّوكيد، ودلالة على أنّ هذا الفعل خاصّ ومتنازع فيه، فجاء الضّمير ليدلّ على قصره على الله سبحانه وتعالى، وبهذا تظهر وظيفته، وبه يتحدّد المعنى المقصود، وفي حذفه لا يظهر هذا الغرض الإبلاغي.

والمحتوى الدّلالي للمونيم يكسبه دلالة خاصّة ومستقلّة عن غيره، تجعله يؤدّي وظيفة مميّزة داخل التّركيب؛ فالمونيم "نَعۡبُد"، في قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ...﴿٥﴾ ﴿الفاتحة﴾، بدلالته يجعله متميّزا وخاصّا بمعبود واحد هو الله سبحانه وتعالى، و"إِيَّاكَ"؛ في سياقها هنا خاصّة بالله سبحانه وتعالى وحده دون سواه من خلقه، ولا يمكن استبدالها.

وأدوات القصر السّابقة الذّكر تحوّل معنى الجملة الإعلامي الصّرف، وتسبغ عليها معنى آخر، وتدخلها في أسلوب خاصّ من أساليب التّعبير، وتفتقر هذه الأدوات إلى غيرها، ولا يكتمل معناها إلاّ بها، ولها وظيفة تؤدّيها؛ فهي واصلة لأجزاء الكلام، ويسمّى أسلوب تعبير الجملة باسم الوظيفة الّتي تؤدّيها الأداة[2].

وهذه الأدوات يستخدمها المتكلّم لإحكام دلالة الجملة، وإتمام إفادتها حتّى يطابق الكلام مقتضى الحال، إذ يتوسّل بها لإنشاء معان مختلفة يقتضيها المقام وظروف التّعبير، كما أنّ من شأنها جلب الحركة أو قطعها لما يقع بعدها من ألفاظ[3].

1ـ ينظر: محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيات، ص ص: 75، 78.

2 ـ ينظر: محمّد خان، الأدوات النّحويّة؛ بنيتها ووظيفتها، مقال، مجلّة كليّة الأداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة محمّد خيضر بسكرة، العدد: 4، 2009م، ص ص: 7، 10.

3ـ المرجع السّابق، ص: 2.

ـ التّقطيع الثّاني :

وينطلق من هذه النّتيجة ليقوم بتحليل تلك الوحدات المستقلّة ذات المحتوى الصّوتي والدّلالي إلى الفونيمات(**les phonèmes**)، أي إلى أصغر الوحدات الصّوتيّة المجرّدة من المعنى[1]، ولكنّها قد تكون دالّة، ولها قيمة ووظيفة، وليس لها معنى معجمي، وهناك تقطيع آخر في العربيّة أقلّ من هذه الوحدات الصّوتيّة؛ وهي العلامات التّشكيليّة، وهي الكسرة؛ أقلّ من الياء، والفتحة أقلّ من الألف، والضمّة أقلّ من الواو؛ وهي تدلّ ولها وظائف كتحقيق الحالات الإعرابيّة، ولا تحمل معاني، يسمّيها المتوكّل لواصق وصرفات تلحق بوحدة معجميّة لتحقيق وظائف [2].

كقوله تعالى: "وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ...﴿٢٤﴾ ﴿الجاثية﴾ ←و/ ق/ ا/ ل/ و/ ا/ م/ ا/ هـ/ ي/ إ/ ل/ ل/ا ... فالواو لها وظيفة الاستئناف وتدلّ على عدم الاشتراك في الحكم/ والقاف لا معنى معيّن لها وليس لها دلالة ولها وظيفة استبداليّة ذات طبيعة اقتصاديّة، إذا استبدلت بحرف آخر تغيّر المعنى/ وكذلك الألف واللاّم/ بينما الواو الثّانيّة تدلّ على الفاعليّة (لها وظيفة تحيل على الجدول التّركيبي)، وهي ذات معنى لأنّه يمكن استبدالها باسم ظاهر ـ في غير القرآن الكريم ـ ... وهكذا، والضمّة لها وظيفة استبداليّة ذات طبيعة اقتصاديّة، وليس لها معنى، وتدلّ على العدد ونوع الجنس، تحيل على ضمير الجمع (هم)، وبالاستبدال يظهر دوره.

وهذا التّقطيع لا يعنى فيه إلاّ بالصّورة اللّفظيّة، فاستبدال مقطع صوتي من المقاطع المذكورة بمقطع من نفس النّوع لا يؤدّي في كلّ حالة إلى نفس التّغيير المعنوي فنقل «ا» من قال إلى زال، لا يغيّر صورة المدلولات الّتي هي مختلفة في أصلها، عكس ما هو الحال عليه في التّقطيع الأوّل حيث يكون حمدي، حمدك، حمدها، نفس اللّفظة (حمد) ألصقت بها أصوات مختلفة؛ ضمير المتكلّم والمخاطب والمخاطبة [3]، فالفونيم عبارة عن نماذج صوتيّة لها القدرة على تمييز الكلمات، وأشكالها، وأنماط صوتيّة

1ـ ينظر: العلوي؛ شفيقة، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، ص: 19.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، التّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص: 92.

3ـ ينظر: بناني؛ محمّد الصّغير، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي المدارس الحديثة، ص: 70.

مستقلّة ، تميّز الحدث الكلامي عن غيره من الأصوات ، أصوات لها سمات خاصّة ، قادرة على التّمييز بين الكلمات في كلّ اللّغات بإبدالها بفونيمات أخرى وبترتيبها وموقعها في بنية الكلمة ، وهو ما يشبه فكرة التّقاليب والتّباديل في الاشتقاق الأكبر في العربيّة.

ولهذا المبدأ قيمة لسانيّة ، ذلك أنّه يمنح اللّغة القدرة على التّعبير عن اللاّمتناهي من الأفكار والمعاني المجرّدة بواسطة هذا العدد المحصور من الفونيمات (أي الأصوات اللّغويّة)، وهذا ما يؤسّس مفهوم الاقتصاد اللّغوي في اللّسانيّات ، أو إلى تحسين المردود الوظيفي؛ الّذي هو وظيفة لسانيّة [1] .

فلو أخذنا مدوّنة مكوّنة من؛ قاد ، عاد ، ساد ، ثمّ قمنا بتقطيعها إلى أصغر الوحدات غير الدالّة أي الفونيمات ، لاتّضحت الفوارق والتّشابه على مستوى المخرج أو الصّفة[2] على هذا النّحو :

/ ق/ « لهوي » مجهور » شديد » مستعل.

/ ع/ « حلقي » مجهور » بيني.

/ س/ « أسناني » مهموس » صفيري.

فهذا التّقابل بين هذه الفونيمات على مستوى الصّفة والمخرج؛ يؤكّد أنّ لها جميعا وظيفة ، وهي قدرتها على تغيير معاني هذه الكلمات.

قال تعالى ـ على لسان قارون ـ : "قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ..﴿٧٨﴾ ﴿ القَصَص﴾ ، وفي ذلك تصوير لصلافة صدره وكبره؛ يظهر من خلال بطء المقاطع وتأتأته وعلعلته[3] ، في تجمع أصواتي أو فونيمي يتّفق مع إيقاع النّفس ، ممّا يؤكّد أنّ لهذه الأصوات دور في اللّغة.

وقال تعالى : "هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴿٢٢﴾ ﴿الحَشر﴾ ، بهذه الدّائرة المحيطة الخالدة؛ فالمقصور عليه واحد من القصرين "هُو"؛ بدءا ونهاية ، وهذه الظّاهرة تعدّدت في القرآن الكريم حين يكون المقام

---

1 ـ ينظر : العلوي؛ شفيقة ، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة ، ص : 19.

2ـ ينظر : المرجع السّابق ، ص : 18.

3ـ ينظر : دراز صبّاح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم؛ وأسرارها البلاغيّة ، 236.

أو النّسق شديد التوهّج والجلال، والتّعبير مبنيّ على حروف اللاّم والألف والهاء والواو، والأصوات خارجة من الأعماق دون عائق يصل بها النّفس إلى منتهاه، ولا يبقى إلاّ قلب نابض بالتّوحيد.

وقوله تعالى في خطاب لموسى عليه الصّلاة والسّلام: "وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴿طه﴾، ونسج الأسلوب جزل شديد الوقع (من الحاء وتكرار التّاءات مع العين واللاّم؛ وكثرة المقاطع المغلقة في الجزء الأوّل، وكثرة اللاّمات الممدودة والهاءان في شهادة التّوحيد، ثمّ المقاطع المغلقة والفاء والعين توازيا في الجزء الأخير مع الجزء الأوّل، وكثرة حروف المدّ بأنواعها؛ جعل للإيقاع وقعا عميقا مهولا مهيبا)[1].

وقال تعالى: "... قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴿إبراهيم﴾، و(إن) النّافيّة أكثر توكيدا من (ما) النّافيّة، (وجملة القصر من مقاطع مغلقة، دلالة على غليان الغضب والهياج، وبعدها جملة كثرت حروف لينها؛ تجسيدا لارتفاع الأصوات والصّياح وحرارة ما يتأجّج في صدورهم)[2]، فقد فهمت هذه المعاني من صفة الفونيمات ومخارجها المختلفة.

ج ـ علاقة البنية بالوظيفة عند مارتيني:

تظهر من خلال ازدواجيّة التّقطيع الّتي تقتضي من المتكلّم أن يختار من اللّغة ما به يعبّر ويبلّغ، ولا مبرّر لاختياره علامة دون أخرى إلاّ لأنّها تستجيب لغايته، ولا يقيم بينها وبين غيرها علاقات معيّنة في خطابه إلاّ لأنّها تساهم معها في أداء الرّسالة الّتي يبلّغها الخطاب، ممّا يدعو إلى البحث عن نوع العلاقات الحاصلة بين الوحدات[3]، أي البحث عن وظيفة كلّ واحدة منها، دون تجاوز الصّيغة الخطيّة في

---

1. المرجع السّابق، ص: 190.

2. دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم؛ وأسرارها البلاغيّة، ص: 101.

3. يستعمل مصطلح «الوحدة» بدل «الكلمة» في التّحليل التّركيبي، اجتنابا للخلط بين المفاهيم، وهو يطلق على وحدات دنيا من مثل: من، على، هل، ووحدات ليست دنيا؛ من مثل: أُخرُجْ، الّتي تتضمّن الحروف الأصول، والصّيغة الدالّة على الأمر، (ينظر: المهيري، أهمّ المدارس اللّسانيّة، ص: 46).

الكلام (تتابع الوحدات)، فمرتبة الوحدات مفيدة بقدر ما تفيد الفروق الصّوتيّة، إذ تكشف عن نوع العلاقات الّتي تقوم بينها في سلسلة الكلام، ولذلك يصنّف مارتيني الوحدات اللّغويّة انطلاقا من وظائفها إلى مونيمات، وفي جملة القصر تظهر في[1]:

أ- المونيم الوظيفي (**m.fonctionnel**): وهو الّذي يساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى مشاركة له في التّركيب، ولا يمكن لها أن تستقلّ بنفسها في السيّاق الّذي ترد فيه؛ كوظيفة: ما وإلاّ، وإنّما، وال التّعريف، وضمير الفصل، وحروف العطف.

ب - التّركيب الإسنادي (**le syntagme prédiatif**): وهي الّتي لا توحي بذاتها عن نوع العلاقة الّتي تحصل بين الوحدات، كالمرتبة، والقصر فيه يظهر من خلال التّقديم.

1- ينظر: المهيري؛ عبد القادر وآخرون، أهمّ المدارس اللّسانيّة، ص ص: 45، 48.

المبحث الثّاني؛ وظائف اللّغة الأخرى :

يعتمد ياكوبسون على وظائف الكلام من خلال نظرة المتكلّم والسّامع والرّسالة والسّياق وعلى الاتّصال بين المرسل والمتقبّل ومعقد الكلام[1].

والوظائف عندهم أقسام؛ إذ يقوم المرسل بإرسال رسالة إلى المرسل إليه، وتتطلّب هذه الرّسالة لكي تكون فاعلة، سياقا تشير إليه، يمكن للمرسل إليه استيعابه، كما تقتضي الرّسالة شفرة مشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وقناة اتّصال فيزيائيّة، أو رابط سيكولوجي، بين المرسل والمرسل إليه، يمكّنها من إقامة عمليّة الاتّصال، والإبقاء عليه، وفي حالة ما إذا تمّ التّركيز على إحدي هذه الوظائف دون غيرها، ينتج هذا الخطاب وظيفة أخرى، فكلّ عنصر من هذه العناصر يولّد وظيفة لسانيّة مختلفة، وعليه ميّز "جاكوبسون " بين ستّ وظائف للّغة[2]؛ هي :

- 1 الوظيفة التّعبيرية (الانفعاليّة) :

إذا تمّ التّركيز على "المرسل" تكون الوظيفة "انفعالية" معبرة عن حالة ذهنية، وتهدف إلى تقديم انطباع عن انفعال معيَّن صادق أو خادع؛ وتستطيع تحديد العلائق بين الرِّسالة والمرسِل؛ كقوله تعالى على لسان المكذّبين : "...إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾، وقول هاروت وماروت : "...إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ...﴿١٠٢﴾ ﴿البقرة﴾.

2- الوظيفة الندائية (التّأثيريّة) :

بالتّركيز على "المرسل إليه" تصبح الوظيفة ساعية إلى التّأثير، توجد في الجمل التي ينادي بها المرسل المتلقّي، لإثارة انتباهه، أو لطلب القيام بعمل ما، فتدخل في صلبها الجمل الأمريَّة؛ نحو: "...قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَٰحِدٌ...﴿١٩﴾ ﴿الأنعَم﴾، "...إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ...﴿١٢﴾ ﴿هُود﴾، تعني بالإضافة إلى أنّه يعلم ويقرّ بصحة ذلك: ما عليك إلاّ الإتيان بما يصحّ به أنّك رسول منذر، ولتنبيه المخاطب المعني للّذي يجب

1ـ بناني؛ محمد الصغير، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، 2001م، ص: 71.

2ـ ينظر: القضماني؛ رضوان، وأسامة العكس، نظريّة التّواصل ـ المفهوم والمصطلح ـ مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، العدد (1)2007م، ص: 140، وما بعدها.

عليه ، وكقوله تعالى ـ تسلية لنبيّه محمّدﷺ : "مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ ، ليصبر على أذى قومه ، ويتأسّى بالرّسل الّذين أوذوا من قبله وتخويف العصاة[1].

3- وظيفة إقامة الاتّصال :

بالتّركيز على "قناة الاتّصال" تصبح الوظيفة "تواصليّة" ، وذلك حين يحاول المرسل إبقاء الاتّصال مع المتلقّي ، عن طريق ألفاظ بسيطة لا تحمل أفكارا مثل : (ألو) ، و(هاه) ، والعبارة الشكسبيرية (أعرني أذنك) ، أو إعادة مقولة المخاطب ، نحو قول الرّسل في قوله تعالى ردّا على المكذّبين : "قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ ...﴿١١﴾ ﴿ إِبْرَٰهِيم ﴾ ، جيء بالقصر من باب مجاراة الخصم ، فلم يسلّموا لهم مقدّمتهم بمعناها وفحواها فحسب ، وإنّما بألفاظها ، وأنغامها وتراكيبها ، كما نطق بها الخصم من دون تغيير ، وأخرجوه مخرج ما يعتقدون ، حكاية لقولهم ، وفي هذا ما يؤنس نفوسهم ويستميلها نحو سماع الحجّة ، وهو أرفع أساليب الحوار والإنصاف[2].

4- وظيفة ما وراء اللغة (المعجمية ، الشّارحة) :

بالتّركيز على "الشفرة" تصبح الوظيفة "شارحة" ، وتظهر في الرّسائل الّتي تكون فيها اللّغة مادة للدّراسة لوصف اللغة ، وذكر عناصرها وتعريف مفرداتها ، إنها وظيفة كلام اللغة عن اللغة نفسها.

ـ 5 الوظيفة المرجعيّة :

إذا تمّ التّركيز على "السياق" تصبح الوظيفة "مرجعية" ، أي تشير إلى المرجع الخارجي الذي تتحدث "الرسالة" عنه ، أو الموضوع المشترك بين طرفي التّواصل الأساسيين ؛ أي ما هو متّفق عليه من قبل المرسِل والمرسَل إليه ، كقوله تعالى : "وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ... ﴿٨٥﴾

---

1. ينظر : الزّمخشري ، الكشّاف ، ج5 ، ص : 385.

2. ينظر : الزّركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ص : 1064/ وأبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ، ص : 112.

﴿الحجر﴾، وقوله تعالى: "...يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿البقرة﴾، فالموضوع المشترك هو الثّبات على الإسلام طول الحياة، والنّهي عن كونهم على خلافه وهو الكفر، إذ الموت على غير الإسلام لا خير فيه[1].

- 6 الوظيفة الشعرية:

وبالتّركيز على "الرّسالة" نفسها، تصبح الوظيفة "شعريّة" تدخل على اللّغة ديناميكية، وبدونها تصبح اللّغة ميتة وسكونيّة، وهي موجودة في كلّ أنواع الكلام، تمثّل عنصراً قائماً بذاته؛ هي الوظيفة الجماليَّة بامتياز، تمثّل صيغة لفظيَّة مكتوبة تشمل مضموناً دلاليًّاً يقوم المتلقّي بتأويله بالاعتماد على فكّ شيفراتها،وهو ما يسمّى بالاقتضاء التّخاطبي، للتوصّل إلى المقتضى الّذي يقصد إبلاغه، ويحصل عندما يأتي النصّ بشكل غير صريح؛ عن طريق الكناية والتّلويح والرّمز والاستعارة [2]... قال الله تعالى: "يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴿البقرة﴾، تظهر هذه الوظيفة في مجيء الفعل المضارع المفيد للدّيمومة، والدالّ على أنّ الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى الرّسول والمؤمنين، كناية عن انحصار ضرره فيهم، (وكذلك قصر الشّيء على نفسه أو ما هو قريب منه يعطي معاني نفسيّة وبلاغيّة مثيرة كعدم التوقّع، والمفاجأة، وهزّة نفسيّة وعقليّة تلفت إلى لون خاصّ من الأساليب في نسق، ومقام خاصّ؛ متميّز)[3].

وقوله تعالى ـ يفضح المنافقين حين بنوا مسجد الضّرار ـ: "لَا يَزَالُ بُنۡيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ ...﴿١١٠﴾ ﴿التوبة﴾، (والرّيبة قارّة لاصقة في قلوبهم إلاّ إذا ماتوا ومزّقت قلوبهم، وهي كناية عن دفائن القلوب، وكأنّ الرّيبة وهي من المعاني النّفسيّة جزء من هذه القلوب، وهذا على سبيل الفرض والتّصوير)[4].

---

1. ينظر: دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 154.
2. ينظر: عماد عبد يحيى الحيالي، الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة في تراكيب القرآن الكريم، ص: 71.
3. دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 33.
4. المرجع السّابق، ص: 44.

والاقتضاءات الكنائيّة تأتي غالبا، لتحديد دلالات كثيرة بأساليب تأديبيّة؛ كقوله سبحانه وتعالى: «مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥» (المائدة)، فلم يكن المقصود هو المعنى الظّاهر، أي: أكل الطّعام، وإنّما هناك اقتضاء لمعنى كنائي آخر جاء بصورة تهذيبيّة تأديبيّة، أراد سبحانه وتعالى وصف عيسى عليه الصّلاة والسّلام بصفات بشريّة وليس بأكل الطّعام، وإنّما يقصد عمليّة ما وراء الطّعام كالهضم والنّفض...[1].

ومن ذلك ما جاء فيه المقصور عليه في معرض صورة بيانيّة كالتّشبيه، تمثّل حالا خاصّة لها جمال التّصوير والتّأثير متعانقا مع فورة التّوكيد؛ كقوله تعالى: "لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤» (الرّعد)، أي أنّ لله تعالى وحده دعوة الحقّ والصّدق والتّوحيد، ثمّ صوّر بطريق الطّباق: أنّ الأصنام والشّركاء باطلة لا تنفع ولا تجيب دعاء، وقد جمعها جمع عاقل لأنّها في أوهامهم عاقلة، وقد نفى عنها الاستجابة إلاّ في حال واحدة ذكرها فإذا هي حال ميئوس منها، تأكيدا لنفي الاستجابة، إذ المعلّق على المحال محال، والطّرفان في غاية التّباين والتّجاذب، وقد جاء المقصور عليه صورة تشبيه غريبة غرابة تفكيرهم، فالمشبّه به هيئة إنسان عطشان يكاد يهلكه الظّمأ، لكنّه لغبائه المستحكم يقف أمام الماء الجاري باسطا كفّيه في بلاهة وسذاجة ظانّا أنّ بسط الكفّين سيوصل الماء إلى فمه، والماء في طريقه لا يلوي على شيء، إنّه تشبيه طريف يرسم صورة هازئة للغباء وضياع المقصد، أي لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ استجابة كاستجابة الماء لمن يبسط كفّيه، فهم بالعبث وله يعيشون[2].

إنّ هيمنة إحدى هذه الوظائف لا تنفي وجود الوظائف الأخرى، بل تحدّد نوع الرّسالة.

1- ينظر: عماد عبد يحيى الحيالي، الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة في تراكيب القرآن الكريم، ص: 72.

2- ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج: 13، ص: 124.

المبحث الثّالث؛ بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي التّداولي:

1 ـ أهمّ مبادئ نظريّة النّحو الوظيفي التّداولي:

يتمثّل هذا الاتّجاه؛ في نظريّة النّحو الوظيفي الّتي يمثّلها سيمون ديك الهولندي، ومن العرب أحمد المتوكّل، وقد تأثّر هذا الاتّجاه بالفلسفة التّحليليّة ذات الفروع اللّسانيّة واتّجاهها الوظيفي في دراسة الظّواهر اللّغويّة، والّتي لا تفصل الإنتاج اللّغوي عن شروطه الخارجيّة[1]، وهذا الانعطاف مهّدت له أعمال العديد من الفلاسفة في مقدّمتهم الفيلسوف الإنجليزي أوستين، في نظريّته (أفعال الكلام)، الّتي أعاد تصنيفها سيرل، وخلافا للاتّجاه الوظيفي البنيوي الأوّل يرى هؤلاء وجوب العودة إلى السّياق اللّغوي والمقام (سياق الحال) وقصد المتكلّم لفهم المعنى، واستثمرت هذه النّظريّة في اللّسانيّات، واهتمّت بدراسة ظواهر اللّغة بوصفها كلاما مستعملا من قبل شخص معيّن في مقام معيّن، موجّه إلى مخاطب معيّن، لأداء غرض معيّن، مهتمّة بالنّظام وبالكلام وما يتبعه من ملابسات خطابيّة أثناء الأداء، ولذلك سمّيت بالنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وخصّصت للجانب التّداولي في نموذجها الوصفي مستوى إجرائيّا، يكون دوره التّمثيل لأثر المقام في صياغة الجملة، فيكون أثره أوضح في فهم معنى التّركيب، وأدرجت ذلك في وصف الظّاهرة اللّغويّة وتفسيرها، وهذا ينطبق على مختلف الألسنة البشريّة[2]، وانبثق عنها نموذج وصفي تفسيري أهمّ ما فيه المبدأ الوظيفي الّذي نصّه: أنّ بنية اللّغات الطّبيعيّة ترتبط بوظيفتها ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة[3]، أي أنّ خصائص بنيات اللّغات تحدّد بحسب الأهداف التّواصليّة الّتي تستعمل هذه اللّغات لتحقيقها[4]، وبعض مبادئها الأخرى كان معروفا عند اللّغويين؛ وأهمّها: أنّ الوظيفة الأولى للّغات الطّبيعيّة هي وظيفة التّواصل والإبلاغ، وهذا لا ينفي أنّها تقوم بوظائف ثانويّة أخرى كالوظائف الستّ الّتي أقرّها جاكبسون، وأنّ النّحو الأكفى هو النّحو الّذي يسعى إلى تحقيق ثلاثة

---

1. ينظر: زيدان؛ محمود فهمي، في فلسفة اللّغة، دار النّهضة العربيّة، بيروت لبنان، 1985م، دط، ص: 43، وما بعدها.
2. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1985م، ص: 8، 9، وما بعدها.
3. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية (مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة)، منشورات عكاظ 1993م، الرّباط ص: 10.
4. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 11/ واللسانيّات الوظيفيّة، ص: 89.

أنواع من الكفايات؛ الكفاية النّفسيّة، والكفاية النّمطيّة، والكفاية التّداوليّة، وأنّ موضوع الدّرس اللّساني هو وصف القدرة التّواصليّة للمتكلّم / المخاطب.

2 ـ الجملة والبنية في النّحو الوظيفي التّداولي بين البناء والإنجاز:

أ ـ بناء الجملة:

يقصد بالبنية عامّة؛ مجموعة من الوحدات (أو مكوّنات) تربط بينها علاقات معيّنة، إمّا علاقات «ترادف» (معاقبة)، أو علاقات «تراكب»، والبنية من حيث طبيعتها يمكن أن تكون؛ صرفيّة تركيبيّة أو فونولوجيّة أو دلاليّة أو تداوليّة [1].

وقبل أن تصير الجملة جملة فإنّه في نظريّة النّحو الوظيفي يتمّ بناؤها عبر ثلاث بنيات، بمراعاة المبدأ الأساس الّذي يرى أسبقيّة تحديد الجوانب الدّلاليّة والتّداوليّة للجوانب التّركيبيّة، بموجب المبدأ المنهجي القاضي ببنية العبارة طبقا للأهداف التّواصليّة الّتي تريدها، ويتمّ بناؤها عن طريق تطبيق مجموعة من القواعد لكلّ بنية، هذه البنيات هي[2]:

البنية الحمليّة: بنية دلاليّة منطقيّة، تتكوّن من محمول وحدود موضوعات ولواحق يفرضها المحمول على محلاّته، تعنى بالتّمثيل للمحتوى القضوي للجملة في استقلال عن سياق ورودها، لها وظائف دلاليّة كالمنفّذ والمستقبل، والمتقبّل والمستفيد والأداة والزّمان... يتمّ بناؤها عن طريق قواعد الأساس (المعجم، وقواعد تكوين المحمولات والحدود).

البنية الوظيفيّة: بنية دلاليّة تداوليّة، تستثمر المعلومات الواردة في البنية الحمليّة، وتخصّص العلاقات التّداوليّة القائمة بين المكوّنات، لها وظائف تركيبيّة هي الفاعل والمفعول. يتمّ نقلها عن طريق قواعد إسناد الوظائف التّركيبيّة والتّداوليّة.

---

1 ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة المقارنة، دراسة في التّنميط والتطوّر، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2012م، ص: 18.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة (مدخل نظري)، ص: 137، 140 وما بعدها/ الزّهري؛ نعيمة، الأمر والنّهي في اللّغة العربيّة، سلسلة الأطروحات والرّسائل: 2، جامعة الحسن الثّاني، عين الشقّ، ص ص: 217، 218/ و الجندي طه، البعد التّداولي في النّحو الوظيفي (بحث)، مجلّة كليّة دار العلوم الشّهريّة، القاهرة، بعدد رقم: 27، 2010م، ص: 50 وما بعدها.

البنية المكوّنيّة : بنية صرفيّة تركيبيّة ، ولها وظائف تداوليّة كالبؤرة والمحور ، والمبتدأ والمنادى والذّيل. يتمّ بناؤها عن طريق قواعد التّعبير .

والجملة كبنية منجزة هي نتاج المقام؛ أي أنّها جاءت لخدمة المقام الّذي استدعى التلفّظ بها أو إنجازها ، دليل ذلك؛ أنّها نسق من الوحدات لا يمكن تحديد بعض خصائصها ـ على الأقلّ ـ إلاّ بمراعاة ظروف إنتاجها انطلاقا من مقاصد متلفّظيها أثناء عمليّة التّبليغ[1] ، وانطلاقا من ذلك فالجملة في النّحو الوظيفي هي : فعل لغوي يتميّز بخصائص دلاليّة تداوليّة ، تعكسها خصائص بنيويّة صرفيّة تركيبيّة ، يستغلّها مستعمل اللّغة الطّبيعيّة لتغطيّة احتيّاجاته في عشيرته اللّغويّة الّتي يعيش فيها ، ومصطلح الفعل اللّغوي أو العمل اللّغوي أو الفعل الكلامي مصطلح افترضته نظريّة النّحو الوظيفي ، ويعني أنّ قول شيء ما هو إلاّ تحقيق أو إنجاز لعمل معيّن ، وحين نتلفّظ بعبارة ما فنحن نقوم بإنجاز ثلاثة أعمال كما يرى أوستين : فعل قول / وفعل إنجاز / وفعل تأثير[2].

بـ ـ القوّة الإنجازيّة :

وعندما ننجز جملة نميّز بين قوّتين ، الأولى هي القوّة الإنجازيّة المدركة مقاليّا ويدلّ عليها الفعل أو الأداة أو التّنغيم ، أي ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللّفظيّة ، فما يقال مطابق لما يعنى ، والثّانيّة القوّة الإنجازيّة المدركة مقاميّا والّتي تستلزمها الجملة في طبقات مقاميّة معيّنة ، ولا قرائن بنيويّة تدلّ عليها في صورة الجملة ، أي ما يريد المتكلّم أن يبلّغه السّامع على نحو غير مباشر[3] ، ولا يمكن للمخاطب أن يتوصّل إليها إلاّ عبر عمليّات ذهنيّة استدلاليّة متفاوتة من حيث الطّول والتّعقيد[4] ، والّذي يساعد على معرفتها والوصول إليها هو مبدأ الكمّ المعلوماتي المناسب دون زيادة أو نقصان ، ومبدأ الكيف (الأسلوب) باحترام مجموعة من الشّروط ذات طابع اجتماعي وأخلاقي وجمالي ، ومبدأ الطّريقة؛

1ـ ينظر : أرمينكو فرانسواز ، المقاربة التّداوليّة ، ترجمة : علّوش سعيد ، الرّباط ، مركز الإنماء القومي ، دط ، ص : 7.

2ـ ينظر : الزّهري؛ نعيمة ، الأمر والنّهي في اللّغة العربيّة ، ص ص : 146 ، 148.

3ـ ينظر : المرجع السّابق ، ص : 160.

4ـ ينظر : نحلة؛ محمود أحمد ، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعيّة ، 2002م ، ص : 50 ، 51/ والشّهري؛ عبد الهادي بن ظافر ، استراتيجيّات الخطاب ، (مقاربة لغويّة تداوليّة) ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، ط1 ، 2004م ، طرابلس ليبيا ، ص : 117.

كتجنّب الغموض واللّبس، ثمّ الورود (علاقة الخبر بالمقام)، ووسائل الاستدلال أو مبدأ المناسبة، بأن لا يكون الخطاب متناولا لموضوع غير المتحاور عليه، وعند خرق قاعدة من هذه القواعد يحدث الاستلزام الحواري، مع المحافظة على مبدأ التّعاون، وإلاّ يقود إلى استلزام آخر، قد يؤدّي إلى قطع العمليّة الحواريّة، ويفهم من ذلك أنّ للجملة حمولة دلاليّة تنقسم إلى معان صريحة؛ هي المعنى الصّريح الحرفي للجملة المدلول عليه بصيغة الجملة ذاتها، ومعان ضمنيّة هي المعنى المستلزم من المقام؛ لا تدلّ عليه صيغة الجملة[1]، والمعاني الصّريحة يتمّ فهمها من المحتوى القضوي (مجموع دلالات مكوّنات الجملة مضموم بعضها إلى بعض، ويضمّ فعل الإحالة وفعل الحمل)[2]؛ كقوله تعالى: "...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴿الرَّعْد﴾، وظاهر معناه؛ أي القوّة الإنجازيّة المدركة مقاليّا هو: أنّ أولي الألباب يتذكّرون، وأنّه لا يتذكّر غيرهم، وليس هو الغرض الّذي يريد إعلامه للسّامعين، لأنّه من البداهات الّتي لا يحتاج أحد أن ينبّه إليها، يبعد إذن؛ أن تكون الجملة الشّريفة جاءت لتقول ذلك فقط، والتذكّر من معانيه تعقّل القضايا وإدارتها في النّفس إدارة ذكيّة تكشف ما يحيط بها ممّا يغري بقبولها أو رفضها، والبحث عن الحقيقة والتقاطها لا يمكن أن يكون من المجانين، لابدّ إذن من مرمى آخر للتّعبير، هو مقتضى هذا المعنى (القوّة الإنجازيّة المدركة مقاميّا)، يعني إذا كان التذكّر ثابتا لأولي الألباب ومنفيا عن غيرهم؛ اقتضى هذا أن يكون غير المتذكّرين من غير أولي الألباب، وهناك على مقربة من هذا القول طائفة رفضت التّفكير فيما عرض عليها من قضيّة الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ولم تناقشها مناقشة معقولة؛ تنتهي بها إلى الرّفض أو القبول، وإنّما ركبت متن العناد، هؤلاء ليسوا من أولي الألباب، هكذا ينبعث المعنى المباشر من العبارة، ويتولّد منه لازمه، ويلامس السيّاق، وبعد ذلك ينتج المعنى المعرّض به، لذمّ الكفّار وأن يقال إنّهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل، فلا تطمعوا منهم أن ينظروا ويتذكّروا، ولو قلت: ليتذكّر أولو الألباب؛ وحذفت (إنّما) لكان مجرّد وصف ولم يدلّ على ما دلّ عليه

1ـ ينظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص: 33، 35، 38، 39، وأرمينكو فرانسواز، المقاربة التّداوليّة، ص: 51.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفي، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، (المغرب)، ط1، 1986م، ص: 105/ ويحيى؛ بعيطيش، نحو نظريّة وظيفيّة للنّحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة في اللّسانيات الوظيفيّة الحديثة، 2005، 2006م، ص: 169/ والزهري؛ نعيمة، الأمر والنّهي في اللّغة العربيّة، ص: 160.

في الآية ، وليس في الأسلوب كلام يفيد هذا بحيث نفهمه من متن العبارة ، وإنّما هو غرض يقف بعيدا عن العبارة بعدا ليس بالكثير، فيغيب عن الرّؤية ، وإدراك مرماه محتاج إلى قدر من الفطنة والوعي بالسيّاق ، ولا ينال إلاّ بعد نشاط النّفس ، وملاحظة الإطار العام الّذي تتحرّك فيه العبارة[1].

لكن كلّ ذلك قد لا ينطبق على جميع الأفعال اللّغويّة؛ وهي خاضعة لجانب من جوانب القدرة اللّغويّة (للمتكلّم / المخاطب)، وتشمل القواعد اللّغويّة وما تعارف عليه أصحاب اللّغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفكّ عنها ، مهما اختلفت بها السّياقات وتغيّرت التّراكيب؛ وهو ما يسمّى عند جرايس بالاستلزام العرفي ، من ذلك (لكن) الّتي تستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقّعه السّامع؛ كقوله تعالى : "مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴿ الأحزاب ﴾،

و(إنّما) الّتي تستلزم أن يكون ما بعدها معلوما أو لا ينكره السّامع أو ما ينزل منزلته.

وتشمل أيضا القواعد غير اللّغويّة؛ وتتعلّق بالسّياقات والمعنى الدّلالي لما يقال ، لا بالصّيغة اللّغويّة[2].

3 ـ تبعيّة البنية للوظيفة :

أهمّ المبادئ وظيفيّة وأشدّها إجرائيّة وأقواها حضورا في الممارسة التّطبيقيّة هو مبدأ؛ بنية اللّغات الطّبيعيّة تابعة إلى حدّ بعيد لوظيفتها ، وعليه فإنّ علاقة البنية بالوظيفة تعني ارتباط التّراكيب اللّغويّة بمقاصد الخطاب ومقتضيات الحال ارتباطا ، يجعل الأولى تابعة للأخيرة تبعيّة قويّة[3]، ذلك أنّ الخصائص التّداوليّة للعبارات اللّغويّة تتفاعل في تحديد خصائصها البنويّة[4]، أي تتحدّد الخصائص البنويّة للعبارات اللّغويّة (صرفا ، تركيبا ، تنغيما) انطلاقا من الأغراض التّواصليّة الّتي تستعمل هذه العبارات وسائل لتحقيقها[5]، فتقديم المفعول على الفعل مثلا يغيّر في شكل الجملة ، وهذا لغرض وظيفي يُفرض على

1ـ ينظر : الجرجاني؛ عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص ص : 346 ، 347/ وأبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ، ص : 160.

2ـ ينظر : نحلة؛ محمود أحمد ، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر ، ص : 33/ والشّهري؛ عبد الهادي ، استراتيجيّات الخطاب ، ص : 120.

3ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، اللّسانيّات الوظيفيّة ، (مدخل نظري) ، دار الكتاب الجديد المتّحدة ، ط2 ، 2010م ، ليبيا ، ص ص : 15 ، 58.

4ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، الوظيفة والبنية ، (مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة) منشورات عكاظ ، الرّباط ، 1993م ، هوامش ، ص : 25.

5ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، آفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفي (هامش) ، كليّة الآداب ، الرّباط ، المغرب ، ط1 ، 1993 ، ص : 21.

المتكلّم أو يقصده هو، لردّ خطأ في تعيينه، أو لتخصيصه؛ كما في قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴿الفاتحة﴾، بمعنى نخصّك بالعبادة، لا نعبد غيرك، ونخصّك بالاستعانة فلا نستعين بغيرك، فبنية الجملة هنا تبعت وظيفتها، فلكلّ مقام تركيب معيّن، وباختلاف المقامات تختلف وجوه التّراكيب، كما أنّ كلّ أداة من الأدوات الّتي يستعملها المتكلّم تأخذ البنية الّتي تلائم الوظيفة المستعملة من أجلها، ولا يمكن وصف الخصائص البنيويّة وصفا مُرضيا دون الرّجوع إلى الخصائص الوظيفيّة، الدّلاليّة، والتّداوليّة [1].

والحديث عن العلاقة بين البنية والوظيفة مرتبط بالحديث عن الفروق بين ضروب التّراكيب الّتي لا تستعمل في نمط مقاميّ واحد، بل في أنماط مقاميّة متباينة استجابة لمقتضيات الحال، فالتّباين في الأنماط المقاميّة يستلزم التّباين في التّراكيب[2]، ويقود هذا إلى معرفة طبقات مقاميّة معيّنة تمثّل القواعد التّداوليّة، بالإضافة إلى القواعد التّركيبيّة والدّلاليّة والصّوتيّة الّتي تمكّن من تحقيق الأهداف التّواصليّة، وهي مفاهيم تستعمل الوظيفة بمفهوم العلاقات القائمة بين مكوّنات الجملة بدرجات متفاوتة، فهي علاقات بنيويّة تقوم بين عناصر البنية الواحدة[3].

وممّا يؤكّد أنّ الوظيفة تحدّد البنية؛ هذه الموازنة بين آيتين تشابهتا حكما وألفاظا واختلفتا في المعرض، فجاءت إحداهما خاليّة من التّوكيد، والثّانية توالت فيها أساليب القصر بالنّفي الخاصّ والاستثناء:

قال الله تعالى من سورة الأحقاف: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴿الأحقاف﴾، وفي سورة سبأ: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ

---

1. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، ص: 58، والتّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص: 48.

2. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية، ص: 10، والوظيفيّة بين الكليّة والنّمطيّة، ص: 29، واللسانيّات الوظيفيّة، ص: 96.

3. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 9، 11، والوظيفة بين الكليّة والنّمطيّة، دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرّباط، ط1، 2003م، ص: 29.

مُّفۡتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ ﴿سبأ﴾، فآية الأحقاف ضمن آيات تناقش في هدوء فكرة الخلق والوحدانيّة، وإبطال عبادة الأصنام، فجاءت البنية إخباريّة خالية من أدوات التّوكيد، أمّا آيات سبأ فالأسلوب أعنف، ويتحدّث عن موقف المشركين من نبيّ القرآن ﷺ في الدّنيا، دون فاصل أسلوبي يعجب من سيطرة الضّلال عليهم، مصوّرا انفعالاتهم الصّبيانيّة في ثلاث جمل متواليّة ثائرة بالقصر الّذي ترقّت أساليبه لأداء وظيفة التّأكيد؛ ودلالة على الغضب، فكان النّفي بـ(ما) و(إلاّ) مرّتين ثمّ بـ(إن) و(إلاّ)، وثورتهم الأسلوبيّة من تكرار اسم الإشارة وتنكير "رجل" وتوقيرهم المتكلّف لشرك الآباء، ووصف الإفك بالافتراء مبالغة؛ والسّحر بالإبانة[1].

فترتيب المتكلّم لعبارته مرتبط بشروط مقاميّة تعود إلى قصده وإرادته، فقد يقصد من وراء حديثه إضافة معلومة لم تكن متوفّرة عند المخاطب، أو يريد الحصر ورفع التوهّم أو الشكّ أو توكيد معلومة يعتقد أنّها الواردة، فيقدّمها مصحوبة بإحدى أدوات التّوكيد، أو يصدّرها في أوّل الحمل، وكلّها أغراض تواصليّة لها دورها المؤثّر في البنية اللّغويّة، وهي أمور تظهر أنّ البنية التّركيبيّة لها ارتباطها بوظيفة التّواصل؛ كقوله تعالى: "وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴿النّجم﴾، فمنه الإحياء والإماتة، والإغناء والإقناء، وهكذا كلّ موضع كانت الوظيفة فيه أن يثبت المعنى بأنّه من شأن الله تعالى؛ وإبطال الشّريك وأنّه لا يكون إلاّ منه جيء بضمير الفصل، كما أنّ الأفعال منزّلة منزلة اللاّزم لإظهار بديع القدرة والتّعريض، فلم يذكر المفعول به لقصد تأديّة وظيفة تخصيص الفاعل بالفعل وحده، وإثبات انفراد الله سبحانه وتعالى بالتصرّف في الإنسان وأحواله، فالقصد إلى الأفعال لا إلى مفاعيلها[2].

1ـ ينظر: الرازي؛ محمّد فخر الدّين، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج: 25، ص: 267. وج: 28، ص: 5، 6، 7./ ودرّاز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 92.

2ـ ينظر: ابن عاشور؛ محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م، ج27، ص ص: 143، 144.

وتغيّر أشكال الرّتب؛ يدلّ على اختلاف البنيات اللّغويّة لاختلاف الوظائف التّواصليّة، وهي محكومة تداوليّا، وإن بدت حرّة في المقاربات غير الوظيفيّة،وهي نوعان[1]؛ محفوظة يتحتّم الإتيان بها في موقعها؛ كحروف الجرّ، وحروف النّفي والاستثناء وإنّما وضمير الفصل، وحروف العطف.

وغير محفوظة؛ يمكن فيها لأحد الكلمتين أن تتقدّم أو تتأخّر بحسب حاجة الاستعمال؛ ولغرض محدّد يتعلّق بالمعنى لا بالبنية الشّكليّة، وموجّهة لمستمع محدّد؛ ومنها تقديم المسند لغرض إبلاغي ولتأديّة وظيفة تواصليّة كالتّخصيص؛ كما في قوله تعالى: "ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ...﴿٢٦﴾ ﴿الرّعد﴾، أي: الله سبحانه وتعالى وحده هو الباسط والقادر، وقوله تعالى: "ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ... ﴿١٥﴾ ﴿البقرة﴾، تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقويّة الحكم وإفادة القصر، أي: الله العظيم سبحانه وتعالى يتولّى أمرهم ومقابلة سوء صنيعهم[2].

وقوله تعالى: "تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ ...﴿١٣٤﴾ ﴿البقرة﴾، فتقديم المسندين على المسندين إليهما في: "لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ"، لقصر المسند إليه على المسند؛ أي ما كسبت الأمّة لا يتجاوزها إلى غيرها، وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قصر إضافي جاءت بنيته على هذه الصّورة لأداء وظيفة أساسيّة؛ هي قلب اعتقاد المخاطبين، الّذين يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من فضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم[3].

وتقديم المجرور على المتعلّق به يحقّق فائدة الاهتمام به، أو قصره عليه أو تخصيصه؛ كقوله تعالى: "...وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ...﴿١٣٩﴾ ﴿البقرة﴾، للاختصاص، أي لنا أعمالنا الصّالحة الخيّرة كما يدلّ على ذلك السيّاق، لا أعمالكم الّتي خلطتم فيها عبادة الله سبحانه وتعالى بغيره، فلا تحاجّونا في أنّكم

1ـ ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآني)، عالم الكتب، ط1، 1993م، ص ص: 91، 92، وما بعدها/ والمتوكّل؛ أحمد، التّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص: 33.

2ـ ينظر: ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 293.

3ـ ينظر: المصدر السّابق، ج: 1، ص: 735.

أفضل منّا[1]، وقوله تعالى: "...لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ...﴿٢٥٥﴾ ﴿البقرة﴾، لأداء وظيفة الردّ على أصناف المشركين وإبطال العقائد الضالّة وتعليم التّوحيد[2].

وتقديم المفعول به أيضا تحكمه الوظيفة التّداوليّة، وبالإضافة إلى العناية والاهتمام تؤدّي بنيته وظائف الحصر والقصر، وردّ الخطأ في التّعيين؛ كقوله تعالى: "...وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴿البقرة﴾، فتقديمه متعيّن للاختصاص، ليحصل من الجملة إثبات ونفي، واختير من طرق القصر التّقديم دون (ما وإلاّ)؛ ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى، ويكون النّهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم في صيغة واحدة[3]، وقوله تعالى: "...وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿البقرة﴾، أكّد تقديم المفعول على قصر ظلمهم على أنفسهم، والله سبحانه وتعالى أعزّ من أن يظلم[4].

4 ـ بنى القصر ووظائفه التّواصليّة:

للقصر بنى عديدة تؤدّي وظائف تواصليّة مختلفة حسب مقامات الخطاب وحال المخاطبين؛ منها [5]:

أ ـ بنية النّفي والاستثناء: ويكون هذا التّركيب اللّغوي لتأديّة وظائف تواصليّة تداوليّة؛ منها: دفع الإنكار، الشكّ، تحديد المعنى وتعيينه ابتداء من غير أن يكون ثمّة منكر ينكر أو شاكّ يشكّ، تمكين المعنى وتقريره في النّفس، والتّنبيه، الاختصاص والعدول عن بنية الإخبار، لأنّ المخاطب يريد معرفة تعيينه، فيكون النّفي شاملا لكلّ ما عدا المذكور (المخصّص) لأنّ استعمال المتكلّم صياغات تتضادّ مع معرفة المخاطب وحاجته تفضي إلى وقوع خلل في عمليّة التّواصل؛ قال الله تعالى: "ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴿آل عمران﴾، فـ"لا إله إلا الله"؛ يخاطب بها المشرك الّذي يقرّ بألوهيّة الله سبحانه وتعالى،

---

1. ينظر: المصدر السّابق، ج: 1، ص: 746.
2. ينظر: المصدر السّابق، ج: 3، ص: 20.
3. ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 454.
4. ينظر: ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 512/ والطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير؛ رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة، ص: 73، 74.
5. ينظر: الطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير، ص: 99.

ويزعم آلهة من دونه، فيأتي القصر فيفرده، ويخاطب بها المجوسي الّذي يزعم أنّ النّار إله الكون كلّه، وأنّه لا إله سواها، فيقلب القصر زعمه، ويخاطب بها المتردّد كالنّصراني الّذي يتردّد بين ثلاثة ويقول الثّلاثة واحد والواحد ثلاثة، فيعيّنه القصر. فحال المخاطب يعيّن الوظيفة التّواصليّة والوظائف الأخرى.

ب ـ القصر بـ(إنّما): ومن الوظائف الّتي يؤدّيها ـ بالإضافة إلى التّخصيص ـ التّنبيه على خطأ أو غفلة بتذكير المخاطب بأمر ثابت معلوم، الادّعاء والمبالغة، التّعريض، وتستعمل للردّ على من اعتقد نفي ما أثبته أو منزّل هذه المنزلة، ولا تصلح حين لا يكون هناك مخاطب له هذا الموقف، إذ لا تكون ابتداء؛ كقوله تعالى: "...قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴿البقرة﴾، أفاد إنّما هنا قصر الموصوف على الصّفة، ردّا على قول من قال لهم: لا تفسدوا... فردّوا عليهم بقصر القلب، واختير في كلامهم الحرف إنّما؛ لأنّه يخاطب به مخاطب مصرّ على الخطأ، وهو أمر معلوم عندهم، وجعلت جملة القصر اسميّة لتفيد أنّهم جعلوا اتّصافهم بالإصلاح أمرا ثابتا دائما[1]، والوظيفة التّواصليّة للقصر هنا هي تصحيح خطأ المخاطبين وقلب اعتقادهم، وفي قوله تعالى: "...إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ ... ﴿١٤﴾ ﴿البقرة﴾، القصر فيه ادّعائي للمبالغة[2].

وبحذف إنّما يتحقّق التّقرير أو الإثبات الموجود في جملة الإخبار أو قبل دخولها، وتتحدّد مزيّتها عند وجودها في الجمع بين الإثبات (لما يذكر بعدها) والنّفي (لما سواه)، فتحقّق المبالغة في التّأكيد، وهذه هي الوظيفة المميّزة لها، فتفيد الحصر الّذي هو تأكيد على تأكيد[3].

ج ـ القصر بالعطف: ومن الوظائف الّتي يؤدّيها؛ تصحيح خطأ المخاطب وقلب اعتقاده، والقصر بالعطف بـ«لكن» هو لرفع توهّم من الكلام المتقدّم رفعا شبيها بالاستثناء، (لأنّه حين تقول: ما جاءني زيد، يتوهّم سامعك أنّ عمرا أيضا لم يجئ، لأنّ هناك ملابسة ما بين عمرو وزيد، بحيث يسند الوهم

1ـ ينظر: ابن عاشور، محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 285.

2ـ المصدر السّابق، ج: 1، ص: 643.

3ـ ينظر: بحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، ص: 252.

لأحدهما ما أسند اللّفظ للآخر، فيعتقد نفي الفعل عن كليهما، لأنّه سمع نفيه عن الأوّل؛ فتردف: لكن عمرا، فتقطع هذا الوهم وتصحّح الخبر عند السّامع، وبذلك يكون إثبات الفعل لما توهّم نفيه)[1].

د ـ القصر بضمير الفصل وبلام الجنس في المسند: ومن وظائفه؛ إبطال ادّعاء وإثبات عكسه، وإبراز حقيقة وتقريرها؛ كقوله تعالى: "أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴿البقرة﴾، ردّ عليهم في غرورهم وحصرهم أنفسهم في الصّلاح، بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطّريق الّذي قالوه، لأنّ تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه، فيفيد قصر الإفساد عليهم، وقد أكّد قصره عليهم بضمير الفصل[2]، والقصر هنا لإبطال ادّعائهم الصّلاح وإثبات أنّهم مفسدون، وقوله تعالى: "...قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ ...﴿١٢٠﴾ ﴿البقرة﴾، فيه طريقان من طرق القصر هما؛ ضمير الفصل وتعريف الجزءين، وفي الجمع بينها إفادة تحقيق القصر وتأكيده للعناية به[3].

هـ ـ القصر بتقديم ما حقّه التّأخير: ويكون لزيادة التّمكين والتّقرير؛ كقوله تعالى: "...ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿البقرة﴾، تقديم المتعلّق على عامله يفيد القصر، وهو قصر حقيقي سيق للمخاطبين، لإفادتهم وزيادة تأكيد وتقرير حقيقة الرّجوع إلى الله تعالى، وتأييس المنكرين من نفع الأصنام الّتي يحاجّون بأنّها تنصرهم يوم البعث[4]، وقوله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا...﴿٢٩﴾ ﴿البقرة﴾، قصر حقيقي سيق للمخاطبين من المشركين الّذين لاشكّ عندهم في أنّ الله سبحانه وتعالى خالق ما في الأرض، وأفادت بنية القصر هنا إبراز حقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق

---

1. أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 98.
2. ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 285، 286.
3. ينظر: المصدر السّابق، ص: ج: 1، 694.
4. ينظر: المصدر السّابق، ص: ج: 1، 377.

وحده وإنزالهم منزلة الجاهل، وإظهار عظيم المنّة على البشر، ومكانة الإنسان عند الله تعالى، وكلّ ذلك يقتضي اقتلاع الكفر من نفوسهم[1].

وممّا سبق يظهر أنّ الرّبط بين البنية والوظيفة يكون انطلاقا من تعبيرها عن وظيفة خصّت بها في ظروف مقاميّة خاصّة وفي سياقات معيّنة.

كما أنّ للوظائف الدّلاليّة دورا في تحديد رتبة المكوّنات، فالمكوّن "هو" في قوله تعالى: "هُو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ"، يحتلّ الموقع الصّدر لأنّه حامل لوظيفة دلاليّة؛ هي: المنفّذ، ووظيفة تداوليّة معيّنة؛ وظيفة التّخصيص[2].

5 ـ الحصر عند أحمد المتوكّل[3]:

يتمّ بواسطة أداتين اثنتين؛ الأولى؛ الأداة المتقطّعة المؤلّفة من أداة نفي و"إلاّ"، والثّانيّة؛ الأداة "إنّما".

أ ـ خصائصه البنيويّة: الوسيلة الأولى:

يعدّ محصورا في التّركيب؛ المكوّن الّذي يلي "إلاّ"، سواء كان موضوعا أو لاحقا.

وتعدّ ظاهرة الاستثناء قريبة من ظاهرة الحصر في اتّفاقهما في المُخْرَج، مع اختلافهما في المقصود في التّراكيب، فشأن ما بعد إلاّ في قولنا: ما حضر الضّيوف، إلاّ عليّا، هو شأنه في قولنا: ما حضر إلاّ عليّ، إلاّ أنّ الغرض مختلف، فالأولى؛ تهدف إلى نفي الحضور عن الضّيوف، والثّانيّة تهدف إلى تأكيد الحضور لعليّ وقصره عليه.

يشكّل المكوّن مدخول "إلاّ" في أساليب الحصر عنصرا من عناصر الحمل، فهو هنا حامل للوظيفة الدّلاليّة "المنفّذ"، والوظيفية التّركيبيّة "الفاعل"، فلا يمكن الاستغناء عنه. وفي الاستثناء هو مكوّن خارجي بالنّسبة للحمل وعليه فهو "ذيل"؛ يقوم بدور تعديل الحمولة المعلوماتيّة، ولذلك يمكن الاستغناء عنه،

---

1. المصدر نفسه، ج: 1، ص: 379.

2. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 8/ والطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير، ص: 100.

3. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية، ص ص: 128، 130.

والتّمييز بينه وبين الحمل بمؤشّر فاصلة ، واختصاصه بإعراب الرّفع أو النّصب لا يحدّده عامل من عوامل الحمل.

وكذلك إمكانيّة ارتباط "إلاّ" بتراكيب استثناء غير مسبوقة بنفي ، يجعلها أداة ذات مدخلين معجميين؛ أحدهما يفيد الاستثناء ، والآخر يكون جزءا من الحصر.

الوسيلة الثّانيّة : "إنّما" ؛ تأتي حاصرة لأحد مكوّنات الحمل ، أو تأتي حاصرة للحمل كلّه؛ نحو: إنّما العلم نور ، ولا قيد يخضع له المكّون المحصور ، ويقع الحصر بها على المكوّن الأخير في الجملة.

ب ـ **خصائصه التّداوليّة** [1] :

تستعمل تراكيب الحصر في طبقات مقاميّة يعتقد فيها المخاطب أن مجموعة ما من الذّوات تتقاسم خاصيّة ما ، أو يعتقد أنّ تلك الخاصيّة لا تتّصف بها إلاّ ذات دون باقي ذوات المجموعة ، أو ليرفع المتكلّم انطلاقا من معتقده وَهْمَ المخاطب بقصرها على واحدة دون غيرها.

وبهذا المعنى يتمايز الحصر مع التّصدير الّذي هو وسيلة ردّ على مخاطب متردّد بين معلومات متعدّدة؛ ويطلب تعيين المعلومة الواردة؛ نحو: كتابا قرأ زيد ، في حين أنّ الحصر وسيلة للردّ على من يعتقد أنّ مجموعة من المعلومات كلّها واردة ، بينما المذكور منها واحدة فقط.

وما يستنتجه المتوكّل بعد إيراده لرأي الجرجاني في مقامات الحصر ومناقشته؛ أنّه :

ـ تستعمل كلّ من الأداتين في مقام الردّ على المخاطب المعتقد أنّ مجموعة الذّوات تتقاسم خاصيّة ما ، ويكون حيّزهما أحد مكوّنات الحمل.

ـ تختصّ الأداة "إنّما" بالدّلالة على التّنبيه ، إذا كان الحمل كلّه محصورا ، وتَقَاسمَ معرِفةَ محتواه كلٌّ من المتكلّم والمخاطب؛ نحو: إنّما هو صاحبك القديم.

---

1. ينظر: المتوكّل؛ أحمد ، الوظيفة والبنية ، ص ص: 131 ، 133.

ج ـ أنواع البؤرة وأسلوب القصر :

البؤرة : وظيفة تداوليّة داخلة في نطاق الحمل ، ومبعث تداوليّتها راجع إلى تبعيّتها لقصد المتكلّم وإرادته ، والبؤرة هي الوظيفة المسندة إلى المكوّن الحامل للمعلومة الأكثر أهميّة ، أو الأكثر بروزا في الجملة[1] ، وميّز المتوكّل في البداية بين نوعين منها [2]؛

بؤرة الجديد؛ وتسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة الّتي يجهلها المتكلّم في حالة الاستخبار ، أو المخاطب في حالة الإخبار.

و**بؤرة المقابلة**؛ وتسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة المتجادل في ورودها.

ثمّ تبيّن له أنّ ذلك لا يفي بالغرض ، فهذه التّراكيب لا تستعمل في نفس الطّبقة المقاميّة ، فكلّ ضرب يستعمل في طبقة معيّنة ولتأديّة غرض معيّن ، ممّا يحتّم وجود أنماط متعدّدة من البؤر ، تحقّق الكفاية التّداوليّة الّتي يسعى النّحو الوظيفي لتحقيقها ، والّذي يعتمد مبدأ ترابط بنية اللّسان ووظيفته التّواصليّة ، فاقترح تفريع بؤرة المقابلة إلى البؤر الأربع التّاليّة [3] :

بؤرة الانتقاء :

تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة المنتقاة من بين مجموعة من المعلومات على اعتبار أنّها المعلومة الواردة ، وتأخذ هذه البؤرة المكوّن المتصدّر في الجمل؛ مثل : بكرا صفع خالد ، وتؤدّي وظيفة التّخصيص.

بؤرة الحصر :

تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة الّتي تحصر مجموعة من القيم في قيمة تعدّ القيمة الواردة ، وتظهر في تراكيب الحصر من قبيل : لم يشتر خالد إلاّ معطفا / إنّما اشترى خالد معطفا ، فتسند إلى المكوّن الّذي يحتلّ الموقع الأخير في الجملة ، أي المقصور عليه بتعبير البلاغيين ، وهنا قد يكون المكوّن المبأّر أحد مكوّنات الجملة ، وقد تكون الجملة كلّها [4]؛ كقوله تعالى : "قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ

1ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة ، ص : 28.

2 ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، الوظيفة والبنية ، ص : 143.

3 ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد ، الوظيفة والبنية ، ص ص : 146 ، 147 ، 149.

[4] ـ ينظر :المتوكل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 34.

طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ....﴿١٤٥﴾ ﴿الأنعام﴾،

"...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴿الزمر﴾، أمّا عند البلاغيين فيتمّ تأويلها إلى مفرد.

بؤرة التّثبيت: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة الّتي يصادق المتكلّم على ورودها، وتظهر في التّراكيب شبه المفصولة؛ مثل: الّذي صفعه خالد بكر.

بؤرة القلب: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة الّتي يعوّض بها المتكلّم معلومة يعدّها غير واردة، وترد في التّراكيب من مثل: صفع خالد بكرا لا عمرا / ما عمرا صفع خالد بل بكرا، وقوله تعالى: "وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴿البقرة﴾.

ـ المبحث الرّابع؛ دور المقام والسّياق في تحديد بنية ومعنى جملة القصر:

1 ـ دور المقام:

المقام هو مجموع العلاقات والملابسات والظّروف، ويعرف بسياق الحال، وهو كلّ ما يشترك بين المرسل والمتلقّي، وهو الشّروط الخارجة عن القول، وله تأثير بارز في إنتاج الكلام وبنية الخطاب وتوجيه معناه، ومن عناصره المتكلّمون والمستمعون، مكان التّفاعل، القول اللّغوي وغير اللّغوي، مقاصد المتكلّمين، وأسباب النّزول [1]...

وممّن دعا إلى دراسة المعنى وتحليله بالاعتماد على المقام؛ اللّغوي المعاصر فيرث (ت1960م)، الّذي ينظر إلى المعنى على أنّه وظيفة في سياق، ويرى أنّه يجب التخلّي عن البحث في المعنى بوصفه عمليّات ذهنيّة، والنّظر إليه على أنّه مركّب من العلاقات السيّاقيّة، وذهب إلى أنّ الوظيفة الدّلاليّة لا تتأتّى إلاّ بعد أن تتجسّد القولة في موقف فعلي معيّن، أي بعد خروجها من خانة الوجود الوضعي الكامن إلى حيّز الاستعمال الفعلي، ولا يتحقّق ذلك إلاّ في سياق الموقف، ويتحدّد معنى الكلمة بمقدار ما يحدثه هذا المعنى من تغيير، والصّيتة صورة مجرّدة أو صوت مفرد مجرّد تتحدّد معانيه بعلاقته بالسيّاقات الأصواتيّة الّتي يظهر فيها، والأصوات الأخرى الّتي يمكن أن تحلّ محلّه [2]، وذلك لكشف ظروف الكلام وملابساته، فللسيّاق دور في توجيه معنى العبارات ودلالات المفردات، وما كان فصيحا في سياق تواصلي معيّن يكون محالا في سياق آخر، كما أنّ السياق والعناصر الخارجة عن الإطار التّركيبي للّغة يساعدان على تحديد وظائف البنيات اللّغويّة، ومراعاة الواقع الاستعمالي وسياق الحال يحقّقان ما يسمّى في الدّرس الوظيفي المعاصر بالكفاية التّداوليّة؛ ومن ذلك قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴿٨٣﴾ ﴿البقرة﴾، وقوله "لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ"؛ خبر في معنى الأمر، وهو أبلغ من صيغة الأمر، (لأنّ الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله

---

1 ـ ينظر: الطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير لابن عاشور؛ رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة، ص: 129.

2 ـ ينظر: محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيّات، ص ص: 80، 81.

بالشّيء الحاصل حتّى إنّه يخبر عنه، وجملة "لَا تَعۡبُدُونَ" مبدأ بيان للميثاق)[1]، وسياق الحال هو الّذي يحيل على هذا المعنى، وقوله تعالى: "...وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴿البقرة﴾، وقد دلّ التّعريف في قوله "أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ" على القصر، أي يعلمون أنّ استقبال الكعبة هو الحقّ دون غيره[2]، ومن السياق الّذي وردت فيه الآية يتّضح المقصود بالحقّ، وجاء القصر بتعريف الطّرفين، لأنّه الأنسب لأداء وظيفة تخصيصيّة تهدف إلى إثبات العقيدة في نفوس البشر وإبطال ادّعاء اليهود وإثبات عكسه، وإبراز هذه الحقيقة وتقريرها، وتذييلا مناسبا ملائما لما سبق الآية.

وقال الله تعالى ـ على لسان منكري البعث ـ : "إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴿الدخان﴾، ومقتضى الظّاهر أن يقولوا: إن هي إلاّ حياتنا الأولى، وقالوا ذلك جوابا لما قيل لهم إنّكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما تقدّمتكم موتة أعقبتها حياة، وذلك قوله تعالى: "...وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ...﴿٢٨﴾ ﴿البقرة﴾، فقالوا ذلك للتّلاؤم مع السّياق[3].

وقوله تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ ﴿الْمُلك﴾، وهم يعنون بالوعد؛ وقت الحشر، والردّ أن العلم بالسّاعة وغيرها عند الله سبحانه وتعالى لا عندي، وإنّما أنا لكم نذير مبين، أنذركم وقوع الموعود لا وقته، ويجوز أن يكون الإنذار عامّا لا يقدّر له متعلّق، أي أحذّركم من الكفر بالله سبحانه وتعالى ودينه ولا وظيفة لي غيره، ويلزم منه البشارة لمن أطاع، دون سؤالي عمّا لم يأذن لي فيه الله تبارك وتعالى، والسّياق السّابق

1. ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج: 1، ص: 582.
2. المصدر نفسه، ج: 2، ص: 34.
3. ينظر: دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 30.

واللاّحق والمناسبة تدلّ على الأوّل وهو الإنذار بوقوع وعده لا بوقته[1]، وجاء بالبنية «إنّما» لوضوح هذا الأمر، وللتّعريض بالمنكرين.

ومن القضايا الّتي كثر مجيئها في القرآن الكريم والّتي تحمل معاني عامّة أو خاصّة، يقوم السيّاق بتحديد معناها وبنيتها؛ "التذكّر"، فإذا جاء في سياق آيات كونيّة أو ضرب مَثَلٍ منتزع من الطّبيعة المنظورة، أو جاء مقصودا به الاعتبار والتأثّر ثمّ الإخلاص في العبادة؛ كما في قوله تعالى: "إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴿السجدة﴾، فهو تذكّر عامّ، أو لون منه تقوم به إنّما، وإن كان تذكّرا خاصّا عميقا دقيقا عليما جاء بالنّفي والاستثناء، قال الله تعالى: "يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴿البقرة﴾، "...وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴿آل عمران﴾، فالمقامات والسّياقات هي الّتي تحدّد المعاني وطريقة النّظم[2].

2 ـ دور السياق في تحديد المنفي في جملة القصر:

وللسياق دور في تحديد المنفي المقابل في جملة القصر؛ قال تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴿النّحل﴾، المنفي المقابل لصفة البلاغ هو؛ صفة الهداية والتّوفيق؛ بمعنى إيجاد الهداية وخلق الإيمان في القلب وما هو من سبيلها؛ وهي خاصّة بالله تعالى، وهي الّتي نفاها عن النبيّ وعن البشر، وفي قوله تعالى: "فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ

1. ينظر: دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 119، 120.
2. ينظر: المرجع السّابق، ص ص: 232، 233.

أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ...﴿٤٨﴾ ﴿الشورى﴾، المنفي المقابل لصفة البلاغ هو؛ صفة الحساب والعقاب، وجاءت الآية تأكيدا للصّفة المنفيّة؛ وهي حفظه وحسابه لهم، فذلك خاصّ بالله تعالى[1]، فرغم تشابه بنيتي القصر؛ إلاّ أنّ المعنى والمنفي في الأولى يختلف عنه في الثّانيّة، وفُهِمَ ذلك بمعونة السيّاق الّذي جاءت فيه.

والقصر قد يجيء بمعونة السّياق، وليس هذا قدحا فيه، وإنّما هو تحديد ملامح هذا الطّريق الّذي تقتضيه مقامات لا يسدّها غيره، قال سبحانه وتعالى: "...وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ ﴿هود﴾، وقد ذكر الزّمخشري[2] في الآية؛ أنّ التّقديم فيه للاختصاص، وأنّهم يريدون نفي ذلك عنه خصوصا، بخلاف قومه فإنّهم أعزّة عليهم، ومن الشّواهد الّتي لا قصر فيها؛ قوله تعالى: "مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ ﴿القلم﴾، المراد نفي هذا الزّيف الّذي زعموه، والقصر هنا لا يلائم السيّاق، لأنّه ليس المراد وصف أحد بهذه الصّفة، بل المراد التّشديد في نفيها، وقد أردف ذلك ببيان منزلته عند الله سبحانه وتعالى، وأشار إلى عظمة خلقه وأهليّته لنعمة النبوّة، وقوله تعالى: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴿البقرة﴾، فليس المراد قصر نفي الإيمان عليهم، بل تأكيد نفي إيمانهم، وبيان كذبهم فيما يزعمون.

3ـ دور المخاطب والمتكلّم في بنية جملة القصر:

لا يستقيم الكلام في القصر بالنّفي والاستثناء في كثير من المواقف بالتّركيز على أحوال المخاطب وإهمال المتكلّم، فقوله تعالى على لسان يونس عليه الصّلاة والسّلام ـ: "وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

1ـ ينظر: دراز صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 126، 127.

2ـ ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج: 3، ص: 230، 231.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿الأنبياء﴾، قصر الألوهيّة على الله سبحانه، فالتّوكيد بالقصر هنا لا يفسّره حال المخاطب، وهو حديث ضراعة متّجهة إلى الله سبحانه فلا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب جلّ جلاله، وإنّما هو حال المتكلّم وحسّه بالمعنى، وأنّه متقرّر في نفسه، مؤكّد في ضميره، وهذا المعنى موجود في توكيد الخبر بـ«إنّ» في قوله: "إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ"، فلا يذكر في مثل هذا إنكار المخاطب ولا تنزيله منزلة المنكر، كما أنّه لا يقال فيه أنّه غريب، ولا أنّه على خلاف ظنّ المتكلّم، فهو يفسّره قوّة الشّعور بالمعنى وعمق الإحساس به، أمّا في مثل قوله تعالى: "إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴿آل عمران﴾، قصر الألوهيّة على الله سبحانه وتعالى، ففي مثل هذا منظور فيه إلى حال المخاطب، لأنّه كلام موجّه إلى من يرفض هذه الحقيقة ويجادل فيها، ويناهض بالحجّة والدّليل[1].

وهناك مواقع للنّفي والاستثناء لا يفسّرها حال المخاطب ولا حال المتكلّم، فيقال فيها جاءت لمحض التّوكيد والتّقرير، كما في قوله تعالى: "ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴿الأنعام﴾، فليس المخاطب عليه الصّلاة والسّلام منكرا، ولا منزّلا منزلة المنكر، كما أنّ المتكلّم ليس عميق الإحساس بالفكرة قويّ الشّعور بها، لأنّه سبحانه جلّ عن ذلك، فالنّفي والاستثناء هنا لمحض التّوكيد، وإفراغ الحقيقة في قالب متين موثق؛ لتقريرها وتوكيدها في النّفوس بهذه اللّهجة الحاسمة، فقد يكون توثيقا وتوكيدا ومظهرا من مظاهر العناية بالفكرة والحفاوة بها، وقد يكون في جملة النّفي والاستثناء جملة من هذه المعاني ففي هذه التّراكيب إشارة إلى قوّة الإحساس بالمعنى وعمق الشّعور به، وفيها أيضا دفع لمن ينكرون، وفيها توثيق وتوكيد وحفاوة[2].

1. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 107، 108.

2. ينظر: المرجع السّابق، ص: 110.

4 ـ سياق الأسلوب والمعجم ومرمى القصر :

تحتاج كثير من الصّور إلى مساءلة السّياق ومتابعة الأسلوب في جريانه للتعرّف على مرمى القصر تعرّفا واعيّا ، إذ (سياق الأسلوب قد يستدعي نسقا من التّركيب اللّغوي المعين لإيصال صورة خاصّة من معنى خاصّ إلى نفس المتلقّي)[1]؛ قال الله تعالى : "...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴿فَاطِر﴾، فالعلماء هنا ليسوا علماء الفقه وإنّما هم علماء النّبات وعلماء طبقات الأرض والأجناس والطّبيعة والدّوابّ ، هؤلاء وضعوا أيديهم على أسرارها وأدركوا نظامها المحكم ، فهم الّذين يخشون الله سبحانه وتعالى الخشية الحقيقيّة ، لأنّ الآية الكريمة جاءت في سياق التّنويه بالعلم الّذي يكتنه أسرار آيات الله تعالى ، ويكشف ما ينطوي عليه الكون من نظام محكم ودقّة بالغة لا يكون إلاّ بيد عليم خبير ، والآية ترشد إلى أنّ الرّقيّ الإيماني اليقيني بالله سبحانه وتعالى لا يكون إلاّ بالعلم ، ومن هذا العلم رؤية السّنن الكونيّة ومعرفتها[2] ، وجاء القصر بـ« إنّما » لأنّه ليس هناك من ينكر أنّ الخشية الحقيقيّة تكون من هؤلاء العلماء الّذين وضعوا أيديهم على هذه الأسرار ، إن هم آمنوا وأسلموا؛ والله أعلم.

وللمعجم دور في دلالة الجملة على القصر؛ ومن ذلك أن يكون في مادّة الفعل معنى النّفي ، وأن يكون هذا النّفي ضمنيا مقصودا مصحّحا للتّفريغ ، ومنه الفعل أبى؛ كقوله تعالى : "يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿التوبة﴾ ، المقصور : إباء الله سبحانه وتعالى والمقصور عليه : إتمام النّور ، قصر صفة على موصوف ، ويأبى في تأويل الزّمخشري؛ بمعنى لا يريد لأنّها وقعت في مقابل "يريد"[3] ، (وإن كان هذا التّأويل لا يغني عن الفعل "يأبى" بنية ومعنى ودلالة على النّفي والمنع في قوّة واستعلاء حقّ)[4].

---

1. رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التّقنيّة والتطوّر ، ص : 127.
2. ينظر : أبو موسى؛ محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب ، ص : 47 ، 48 ، 49.
3. ينظر : الزّمخشري ، الكشّاف ، ج : 3 ، ص : 35 ، 36.
4. دراز صباح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة ، ص : 163.

وقد يدلّ الأسلوب على النّفي دون فعل؛ كقوله تعالى ـ على لسان يعقوب عليه الصّلاة والسّلام : "قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ ...﴿٦٦﴾ ﴿يُوسُف﴾، ومعنى الآية : لن أرسله معكم حتّى تقسموا لا تمتنعون من الإتيان به في كلّ حال إلاّ حال كونه محاطا بكم أو إلاّ لعلّة الإحاطة أو زمانها، والاستثناء هنا (لا تمتنعون) دلّ عليه الأسلوب لتصحيح التّفريغ[1].

1ـ ينظر : الزّمخشري، الكشاف، ج : 3، ص ص : 304، 305.

الفصل الثّالث

نـــــــــــــقد وتقـــــــويم

المبحث الأوّل؛ نقد الجانب البلاغي

المبحث الثّاني؛ نقد النّظريّة الوظيفيّة

المبحث الثّالث؛ مقاربة بين التّراث اللّغوي العربي والنّظريّات الوظيفيّة

المبحث الرّابع؛ تقويم

الفصل الثّالث؛ نقد وتقويم :

يعرض هذا الفصل آراء نقديّة ومواقف مختلفة لعلماء لسانيين ولغويين وبلاغيين وأصوليين، وجّهت لأسلوب القصر في بعض مفاهيمه، وللنّظريّة الوظيفيّة بقسميها (البنيوي والتّداولي)، ومقاربات وظيفيّة لعلماء لغويين عرب وبعض ما جاءت به النّظريّات الوظيفيّة، ومواقف أخرى تقويميّة تخلّلت هذا النّقد أو أعقبته، وإحصاء لموضوعات القصر في القرآن الكريم في حقول دلاليّة متبوعة بجدول إحصائي.

المبحث الأوّل؛ نقد الجانب البلاغي :

1 ـ رأي في أسلوب القصر :

أنكر إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللّغة) في فصل : منطق اللّغة، وفي مسألة النّفي اللّغوي، دلالة النّفي والاستثناء على القصر، فقد قرّر أنّ القصر (لا يعدو أن يكون تأكيدا للكلام ومبالغة في توضيح الأحكام وتثبيتها في الأذهان)[1]، وردّ عليه بعض العلماء ومنهم صبّاح عبيد دراز ومحمّد محمّد أبو موسى، وأكّدوا أنّ ما ذهب إليه الرّجل مقتطع من كلام القدماء بطريقة غير واعيّة، لأنّهم (القدماء) لـمّا قرّروا دلالة القصر بالنّفي والاستثناء بالوضع، لحظوا أنّها تفيد التّوكيد والتّقرير، وتأتي في الأمر الّذي يجهله المخاطب، كما لحظوا التّوكيد في إنّما، وأنّها دلالة ذات وجهين؛ وجه هو الإثبات والدّلالة عليه نصيّة، ووجه هو النّفي والدّلالة عليه بالمفهوم، (وكيف نبيّن أنّ قولنا : ما جاء إلاّ هو، يفيد أنّه جاء وأنّه لم يجئ غيره؟ هذا ممّا تعارف عليه أهل اللّسان؛ عالمهم وجاهلهم والاستشهاد عليه تكلّف، والخلاف فيه مغالطة، والقول بأنّ القصر يفيد التّوكيد فقط إغفال للمعنى الأهمّ أو المعنى الأمّ في التّركيب)[2].

2 ـ رأي في قصر التّعيين :

لم يقتنع ـ د ـ صباح عبيد درّاز بجعل التّعيين من أنواع القصر الإضافي ذلك الّذي اقتضته القسمة العقليّة، للأسباب الآتيّة :

ـ لم ينصّ عليه الإمامان عبد القاهر والسّكاكي، في رأيه؛ إلاّ ألفاظا توضيحيّة جاءت في تحليل عبد القاهر؛ كقوله : (إذا رأيت شخصا من بعيد فقلت : "ما هو إلاّ زيد"، لم تقله إلاّ وصاحبك يتوهّم أنّه

1ـ من أسرار اللّغة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط6، 1978م، ص : 190.

2ـ أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، دراسة بلاغيّة، ص : 131، 132 وما بعدها.

ليس زيدا، وأنّه إنسان آخر ويجدّ في الإنكار أن يكون زيدا) وقوله: (وجملة الأمر أنّك متى رأيت شيئا هو من المعلوم الّذي لا يشكُّ فيه قد جاء بالنّفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه، فمن ذلك قوله تعالى: "...وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴿فاطِر﴾)[1]، والشكّ والتوهّم في عبارة الإمام ـ كما يرى د. دراز ـ خاصّ ببدء الإحساس حين يكون شكّا ثمّ يتصاعد حتّى يكون إنكارا، وأنّ ما استشهد به من الآية الكريمة واضح في قصر الإفراد التّنزيلي، أي أنّ رسول الله ﷺ نذير لا هاد، لأنّهم أموات تحقّق موتهم كأصحاب القبور، وكذلك قول السّكاكي: (زيد قائم لا قاعد لمن يتوهّم زيدا على أحد الوصفين من غير ترجيح ويسمّى هذا قصر إفراد، بمعنى أنّه يزيل شركة الثّاني)[2]، (وقد أوّلوا عبارة السّكاكي بأنّ إزالة الشّركة المتيقّنة إفراد، والشّركة الاحتماليّة تعيين، ويرى آخر أنّ المتردّد المتوهّم مطلقا في التّعيين سواء كان في الاشتراك أو العكس، وهذا كلّه من باب الاحتمالات المنطقيّة وهي بعيدة)[3]، ثمّ يؤكّد أنّه لم يحصل على شاهد أدبيّ معتبر لقصر التّعيين، كما أنّه لم يذكر واحد من المفسّرين المهتمّين بالبلاغة القرآنيّة شاهدا له، وقد وقع على نصّ وحيد للشّهاب الخفّاجي في حواشيه عند تفسير قوله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿يُونُس﴾، وذكر قوله رحمه الله تعالى: (تعريف الطّرفين "هُوَ ٱلَّذِي" أفاد القصر بمعنى دلالة القدرة على التحكّم في اللّيل والنّهار على العبادة، وحصر العبادة أو قصرها على هو، ثمّ قال: إنّه قصر تعيين)[4]، والقدرة الكاملة والنّعمة الشّاملة ـ كما يرى ـ د. درّاز ـ لا تدلّ على العبادة، بل على استحقاق العبادة، وقصر الموصول بصلته على الضّمير "هُوَ ٱلَّذِي..." قصر حقيقي تحقيقي، إلحاقا له بنظائره من هذه الأساليب الكثيرة في الذّكر الحكيم، وليس هنا تردّد حتّى على فرض أنّ الخطاب عامّ أو خاصّ بالكافرين؛ لأنّهم معترفون بالخالق أو وحدة الرّبوبيّة: "وَلَئِن سَأَلۡتَهُم

1. الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص: 331، 332.
2. السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 507.
3. دراز؛ صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص ص: 76، 77.
4. المرجع السّابق، ص: 77.

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴿٦١﴾ ﴿العنكبوت﴾، فليس المراد قصر التّعيين. واحتجّ بأنّ التردّد عمليّة نفسيّة عقليّة تزول بأدنى توكيد ولا تقتضي أسلوب القصر الّذي هو توكيد فوق توكيد، وأنّ هذا المعنى أشار إليه الدّسوقي والعصام والأمبابي، حين ذكروا النّفي والاستثناء، وأنّه فيما يجهله المخاطب وينكره، وأنّ استعماله في قصر التّعيين على خلاف الأصل إذ المتردّد لا إنكار عنده، ويؤكّد أنّه لم تستثمر إشارتهم الواعيّة[1].

وممّن ذهب إلى هذا الرّأي؛ صاحب «الفوائد الغيّاثيّة» الّذي يرى أنّ القصر ينقسم إلى قصر إفراد؛ ردّا لمن يدّعي أمرين أو أحدهما بلا ترجيح، وقصر قلب لمن يعتقد نفي ما تثبته، وإثبات ما تنفيه، ولم يذكر قصر التّعيين ولم يشر إليه [2].

ولم يذكر المتوكّل قصر التّعيين واكتفى بذكر قصر الإفراد وقصر القلب، كما أنّه فرّق بين التّخصيص والقصر، فجعل التّقديم لإفادة التّخصيص، و«النّفي والاستثناء» و«إنّما» لإفادة القصر [3].

3 ـ نقد لرأي عبد القاهر في إنّما :

وهو لمحمّد محمّد أبي موسى؛ أستاذ ورئيس قسم البلاغة، كليّة اللّغة العربيّة، جامعة الأزهر، ومجمله؛ بعد أن ذكر قول الإمام عبد القاهر: (ومعلوم أنّك إذا قلت: إنّما جاءني زيد، ولم تزد على ذلك، أنّه لا يسبق إلى القلب من المعنى إلاّ ما قدّمنا شرحه من أنّك أردت النصّ على زيد أنّه الجائي، وأن تبطل ظنّ المخاطب أنّ المجيء لم يكن منه، ولكن كان من عمرو، حسب ما يكون إذا قلت جاءني زيد لا عمرو)[4]، أنّ الأصل الّذي يعتمده الإمام في هذا التّحديد هو ما يسبق إلى القلب، والسّبق إلى القلب ليس أصلا ثابتا، وإنّما هو أصل يهتزّ باعتبار الأحوال والعوارض الّتي تعتري القلب من نشاط وفتور وغيرها، ولهذا لا نستطيع أن نعوّل عليه في كلّ حال بهذا التّحديد وهذه الصّرامة، وكيف ونحن لا نجد هذا في القلب عند سماع: إنّما جاءني زيد، بل يقع في نفوسنا أنّك تخصّه بالمجيء، وقد يكون ذلك

1ـ ينظر: دراز؛ صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 78.

2 ـ ينظر: الإيجي؛ عضد الدّين، الفوائد الغيّاثيّة في علوم البلاغة، تح: عاشق حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1991م، ص ص: 132، 133.

3ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية، ص: 144.

4ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 335.

إعلاما أوّليّا، وقد يكون دفعا لمن ظنّ أنّهما جاءاك، إلى آخر ما يرشد إليه السّياق والقرائن، واستدلّ بقوله تعالى: "..إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾ ﴿فَاطِر﴾، إذ لا يمكن أن يقال إنّها ردّ على من اعتقد أنّ غير العلماء يخشون الله سبحانه وتعالى، وأنّ العلماء لا يخشون الله تعالى. كما أنّ قولك: إنّما جاءني زيد؛ يمكن أن يكون ردّا على من اعتقد أنّه لم يأت، وأنّ الّذي أتى هو فلان، وماذا يقول في قولهم: (إنّما يعجل من يخشى الفوت)، هل يمكن أن يكون هذا ردّا على من اعتقد أنّ العجلة تكون من الّذي لا يخشى الفوت وأنّها لا تكون ممّن يخشى الفوت؟ وقوله تعالى: "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ...﴿٣٦﴾ ﴿الأنعَام﴾، هل يمكن أن تكون ردّا على من اعتقد أنّ المجيب هو الأصمّ، وأنّ الّذي يسمع لا يجيب؟[1].

4 ـ فكرة المخاطب:

دعا بعض الباحثين إلى تجديد وتطوير البلاغة العربيّة، بحجّة البحث العلمي وتطعيمها بالنقد الغربي، لبعث علم جديد أعمّ يأخذ من النّقد والأدب وعلم اللّغة والاجتماع، كالأسلوب والأسلوبيّة والبنيويّة، ومراجعة بعض قضاياها، وفكرة المخاطب الّتي أُدُّعِيَ من خلالها أنّ البلاغة العربيّة بلاغة مخاطب ممّا يهمّنا هنا، وقد ردّ الدّكتور محمّد أبو موسى بأسلوبه المتأمّل وحججه على ذلك[2]، وتبعه آخرون، وأكّدوا أنّ أصل الفكرة نابع من القصر الإضافي، وأنّه مرتبط بالمخاطب، كما أنّ التّوكيد مرتبط به في بعض جوانبه، وردّ أنّ للمتكلّم أيضا أهميّة، في الصّياغة بوجه عامّ وفي التّوكيد بشكل خاصّ، كما نبّه عبد القاهر، وما ذكره أصحاب الحواشي كعبد الحكيم من أنّ المتكلّم لا يورد كلاما إلاّ على حسب اعتقاده[3] يؤكّد دوره.

وفكرة المخاطب في التّراث فكرة افتراضيّة؛ الغرض منها تعليميّ، ووسيلة من وسائل التّوضيح والبيان، ولذا تفترض كثير من الكتب مخاطبا، ضمانا لاهتمام المتلقّي، والتّأثير فيه، وهي مأخوذة من

---

1. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب؛ دراسة بلاغيّة، ص: 139، 140.

2. المرجع السّابق، ص: 70، 71.

3. حاشيّته، ص: 311، نقلا عن: دراز صباح عبيد، أساليب القصر، ص: 81.

الأدب والشّعراء الّذين كانوا يفترضون صاحبا أو صاحبين، وكان الشّاعر يجرّد من نفسه شخصا يخاطبه أو يلتفت إليه، وقد يخاطب ناقته أو أحد مظاهر الطّبيعة، معبّرا عن انفعاله ووجدانه، وعلى ذلك سار الأدب منذ امرئ القيس، وعليه جاء قوله تعالى: "أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴿ق﴾، مع أنّ الخطاب لمالك خازن النّار، أو للملكين، أو لواحد على تنزيل تثنيّة الفاعل منزلة تثنيّة الفعل، فلابدّ من مخاطب، إذ من البديهي أنّه لولاه ما احتيج إلى التّعبير عمّا في النّفس[1]، كما أنّ التّراث زاخر بمئات المؤلّفات في الإعجاز والبلاغة وعلوم القرآن، والتّفاسير والنّقد الأدبي وشرح النّصوص والقصائد، ولا نجد لفكرة المخاطب تأثيرا في التّحليل والتّقسيم والتّأليف، إلاّ في القصر الإضافي وجانب من الخبر والتّوكيد، ونجد في القرآن الكريم؛ ما هو بعيد عن المخاطب، كقول الله تعالى ـ في خطاب عيسى عليه الصّلاة والسّلام لربّه جلّ وعلا بمحضر ممّن أشرك به ـ: "مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ...﴿١١٧﴾ ﴿المائدة﴾، أي ما أمرتني به من التّوحيد، لا هذا الإشراك الّذي يزعمونه، فهو قصر قلب للصّفات بعيد عن المخاطب سبحانه، فالولوج في فكرة المخاطب عند كلّ قصر إضافيّ ليس ضرورة، فكلام عيسى تسبيح وضراعة وتبرئة لساحته في حضرة الرّحمان، ويرمي إلى إبطال ما زعموه. وعندئذ يكون اعتبار المخاطب ظاهرا في الآية مع توسيع مدلوله، وهو أنّه ليس المخاطب المباشر للخطاب فحسب، وإنّما ما يرمي إليه الكلام، ولو كان بطريق غير مباشر كما هنا [2].

فمسألة المخاطب افتراضيّة في كثير من جوانبها، ووسيلة إيضاح لشرح بعض خصائص الأسلوب، وليست جوهريّة في صياغة الكلام، وهي فكرة قديمة عند النّحاة، وقد اتّكأ عليها سيبويه والفرّاء والزجّاج وغيرهم، ثمّ جاء عبد القاهر واصطنعها بصورة واضحة في منهجه الّذي يشبه منهج النّحاة من حيث الدقّة وإمعان النّظر في روابط الكلمات، وهي عند الشّعراء صورة مؤنسة من صور الحوار

1ـ السّهيلي، نتائج الفكر في النّحو، ص: 262.

2ـ ينظر: درّاز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 82.

الّتي ابتدعوها ليجروا فيها معانيهم، ويضعوا بواسطتها حاجاتهم، وليس من اللاّزم أن يكون ثمّ مخاطب في الواقع يحدّثهم[1].

والبلاغيون حين تكلّموا عن المخاطب الّذي تُرَاعَى حاله في أساليب الحوار، ذكروا أنّ القضيّة عند التّحقيق قضيّة متكلّم، لأنّ العبارة تتأثّر بما وعاه المتكلّم من حال المخاطب المنعكسة في نفس المتكلّم، وليس حال المخاطب في ذاته، فالمخاطب مثير من المثيرات الّتي تعمل في نفس مبدع الكلام، ويتّضح ذلك في عباراته وأحوال صياغتها، والمرجع هو ما في نفس المتكلّم من تصوّر لحال المخاطب، لأنّ هذا المتكلّم هو الّذي يصدر عنه الكلام، فهم يربطون الكلام في كلّ حال بنفس المتكلّم، وهو لا يقول إلاّ على حسب اعتقاده، وأنّ المخاطب لا تُرَاعَى حاله إلاّ بمقدار انعكاسها في نفس المتكلّم وإثارتها أفكارا، وقد أثيرت هذه القضيّة في القصر الإضافي لأنّه يراعي أحوال المخاطب، إلاّ أنّ تطبيقها تطبيقا تامّا ليس هو المقصود[2].

وممّا جاء فيه القصر الإضافي بعيدا عن المخاطب؛ ما جاء في القرآن الكريم من قول الكافرين بعد أن وجدوا أعمالهم مسطّرة في صحفهم: "يَـٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلۡكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ...﴿٤٩﴾ ﴿ الكَهۡف ﴾، فهو تجسيد لحسرتهم وندمهم[3]، والإحصاء هنا كناية عن الإحاطة، وليس هنا خطاب ولا مخاطب، فمعظم أقوالهم حسرات وآلام معبّرة عن نفوسهم.

1. ينظر: أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، ص: 71، 74.
2. المرجع السّابق، ص: 77.
3. ينظر: الزّمخشري، الكشاف، ج: 3، ص: 591.

5 ـ وظيفة القصر ومهمّته :

القصر معنى دقيق يحمل بين طيّاته دلالات مختلفة ، تصاغ في عدد من الأبنيّة الّتي تتباين فيما بينها؛ يختارها المتكلّم لحمل المعنى الّذي يريد إيصاله (قصده) ، مراعيا في اختيار أبنيّته وتأليفها حال المخاطب.

واتّفق النّحاة على أنّ أبنيّة القصر لا تستخدم في معنى الإخبار؛ الّذي يكون ابتداء ، والقصر يكون ردّا على آخر ، ودلالة الإخبار بسيطة؛ إمّا دلالة إثبات أو دلالة نفي أو توكيد ، أمّا دلالة أبنيّة القصر فهي دلالة مركّبة (إثبات متضمّن نفيا أو نفي متضمّن إثباتا) ، والإخبار إفادة معلومة جديدة يقدّمها المتكلّم للمخاطب الّذي لا علم له بها ، لذا يقبل الشكّ فيها ، فهي خبر يحتمل التّصديق والتّكذيب ، وهذا يتناقض مع أبنية القصر وخاصّة «إنّما» الّتي تجيء لخبر لا يجهله المخاطب أو ما ينزل منزلته ولو ادّعاء ، وهذا يلزم أن لا تكون ابتداء ، بل ردّا على كلام سابق ، وأن تكون هناك دلالة أخرى إضافيّة ، وإصابة معنى جديد مترتّب على تلك المعلومة؛ كأن يكون التّنبيه للّذي يجب ، أو التّذكير؛ كقوله تعالى : "إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن تَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴿النّزعَت﴾ ، فالقصر هنا للتّذكير بأمر ثابت معلوم لا يجهله المخاطب ، ولا يقع هذا المعنى حين تحذف «إنّما» إذ يكون المعنى في جملة : أنت منذر ، معلومة جديدة يجهلها المخاطب ، وليس هذا المقصود من الآية الكريمة[1].

ومن طريق التّشكيل اللّغوي ، الّذي هو عمليّة وسطى تتطلّب مراعاة حالي المتكلّم والمخاطب وقرائن المقال وقرائن الحال المنطوقة وغير المنطوقة؛ يدرك المخاطب قصد المتكلّم دون لبس ، فيتحقّق الإفهام والتّواصل ، ويتجلّى ذلك بصورة مباشرة في الخطاب العادي ، أمّا في لغة القرآن الكريم ولغة الأدب والشّعر؛ فإنّ الغرض ليس الإفهام في حدّ ذاته ، بل يضمّ إليه التّأثير والإقناع وأغراض أخرى متعدّدة ومتداخلة تتجاوز قيود الخطاب العادي[2].

1ـ ينظر : بحيري؛ سعيد حسن ، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة ، ص : 252.

2ـ المرجع السّابق ، ص : 249.

المبحث الثّاني؛ نقد النّظريّة الوظيفيّة :

1 ـ أثر النّظريّة الوظيفيّة :

نظريّة النّحو الوظيفي من أهمّ وأحدث النّظريّات اللّسانيّة الوظيفيّة الّتي نالت شهرة واسعة بين الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، وكان لها وقع كبير، وأصبحت محلّ استقطاب لكثير من الباحثين والدّارسين، ممّا دفع بأصحاب بعض النّظريّات اللّسانيّة الأعرق؛ مثل النّظريّة التّوليديّة والتّحويليّة إلى إعادة النّظر في أسس نظريّتهم ومبادئها، أو تركها والتحوّل عنها إلى التيارات الوظيفيّة[1]، واضطرّ بعض الباحثين واللّغويين إلى إعادة دراسة قواعد لغاتهم (فقد أصدر معهد اللّغة الرّوسيّة التّابع لأكاديميّة العلوم السّوفييتيّة عام 1970م؛ كتابا جديدا لقواعد اللّغة الرّوسيّة المعاصرة انطلاقا من النّظريّة البنيويّة الوظيفيّة، كما درس الكثير من لغات العالم من مواقع تلك النّظريّة كالإنجليزيّة والتشيكيّة واليابانيّة... وعقدت مؤتمرات دوليّة لبحث المسائل المتعلّقة بالتّقسيم الوظيفي للجملة)[2]، وقد أثبتت الدّراسة الوظيفيّة (بجناحيها البنيوي والتّداولي) موضوعيّتها العلميّة وواقعيّتها في كثير من مبادئها المنهجيّة، لأنّها لم تهمل أساسيّات يفرضها الواقع اللّغوي والّتي أهملتها النّظريّات السّابقة، ومنها ظروف إنجاز الخطاب والحال النّفسيّة والاجتماعيّة للمخاطِب والمتلقّي، وملابسات الخطاب والغرض منه... أي التّشديد على التّفاعل بين النّظام (أو البنية) والسيّاق، وإعطائها الأهميّة للوظيفة التّواصليّة في مقاربتها لتحليل البنية اللّغويّة بالإضافة إلى علاقتها البنيويّة ونسقها الشّكلي (صوتا، صرفا، تركيبا، معجما...)، ووظائفها الأخرى الإبلاغيّة والتّعبيريّة والاجتماعيّة والطّلبيّة، واعتبارها اللّغة ظاهرة اجتماعيّة تربط البنية اللّغويّة بوظيفة التّواصل، وتعتبرها أصواتا ومعنى يربطهما الحافز التّواصلي بين أفراد المجتمع اللّغوي[3].

ويسعى منظّرو النّحو الوظيفي إلى إقامة نموذج لقدرة مستعملي اللّغة الطّبيعيّة على التّواصل بواسطة اللّغة؛ نموذج يمثّل للملكات اللّغويّة وغير اللّغويّة المسهمة في هذه العمليّة؛ إنتاجا وفهما، ومكوّناته تتمركز حول النّحو، وتعتبره الأساس، وينفتح بعضها على بعض، وتتحكّم فيه معايير وضوابط أساسها

1ـ ينظر: روبنز، موجز تاريخ علم اللّغة (في الغرب)، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1997م، ص: 328، 331.

2ـ دك الباب؛ جعفر، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة الجليل، دمشق، سوريا، ط1، 1980م، ص: 116.

3ـ ينظر: دك الباب؛ جعفر، النّظريّة اللّغويّة العربيّة الحديثة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1996م، ص: 61.

ضابط الكفاية التّفسيريّة، الّتي تشمل ثلاثة أنواع من الكفايات؛ كفاية تداوليّة ترتبط بالسيّاق والموقف، وكفاية نفسيّة تعكس مدى تطابق قواعد النّحو وذهن المتكلّم وفهم المخاطب، وكفاية نمطيّة تكشف عن مبادئ وقواعد أكثر عدد من اللّغات ذات انطباقيّة واسعة، ورصد تطوّرها بما يلائم وظيفتها التّواصليّة [1].

وإلى جانب ذلك مهّدت النّظريّة السيّاقيّة السّبيل للتوسّع في الدّراسات التّخاطبيّة باعادة الاعتبار للمعنى، ممّا انعكس في عدد من الدّراسات الحديثة الّتي تعنى بدراسة المحادثة وأفعال الكلام والافتراضات ومناسبة الكلام [2].

والفرق الأساسي في معالجة البنيويين، والوظيفيين لهذه الجمل يتمثّل في أن البنيويين يصفونها كما هي في حين أن الوظيفيين يتساءلون عن سبب كونها كذلك؛ أي أنّ البنيويين يحاولون الإجابة عن كيف، أو ماذا، وأنّ الوظيفيين يحاولون الإجابة عن لماذا.

2 ـ نقد الوظيفيّة البنيويّة :

انتقدت الوظيفيّة البنيويّة؛ بكونها تركّز على الجانب الشّكلي في البنية اللّغويّة، ولا تراعي الجانب الوظيفي إلاّ تبعا، وأنّه من السّائغ عندهم وصف خصائص العبارات اللّغويّة بمعزل عن سياقات استعمالها، وإذا كان من حسناتها أنّها نادت مبكّرا بدراسة الجملة وظيفيّا، إلاّ أنّ هذه الوظيفيّة تصف الجملة وتفسّرها منعزلة عن ظروف وملابسات الكلام «حال المخاطِب والمتلقّي وسياق الكلام ومقامه»، فيؤخذ عليها إهمال الجانب الاستعمالي التّداولي من اللّغة البشريّة، ممّا أدّى إلى ضعف مستواها الوظيفي، وإبعادها؛ كما يرى بعضهم : (ولهذا السّبب لا نعدّها كافيّة منهجيّا لتمثيل النظريّات الوظيفيّة، على الرّغم من مناداتها المبكّرة بأنّ الدّراسة الوظيفيّة للجملة هي النّهج السّليم إلى وصفها وتفسيرها)[3].

---

1 ـ ينظر : المتوكّل؛ أحمد، التّركيبات الوظيفيّة، قضايا ومقاربات، ص ص : 50، 205.

2 ـ ينظر : محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيّات، ص : 81.

3 ـ صحراوي؛ مسعود، المنحى الوظيفي في التّراث اللّغوي العربي(مقال)، مجلّة الدّراسات اللّغويّة، ع1، 2003م، ص : 19، نقلا عن : الطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير لابن عاشور؛ رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة، ص : 34.

3 ـ نقد الوظيفيّة التّداوليّة :

لا يوجد في نماذج النّظريّات الوظيفيّة ما يكفل إحراز الكفاية الإجرائيّة باستثناء محاولات النّحو الوظيفي في الخطاب وصوغ الجهاز الواصف ، ولذلك لم يسلّم الباحثون بكلّ ما جاءت به هذه النّظريّة ، ويرون أنّها مازالت في طور الإنجاز ، وليست مستقرّة عند حدّ معيّن ، ولا تزال كثير من المفاهيم الإجرائيّة الّتي اعتمدتها تتطلّب التّطوير والتّحوير ، وتسعى إلى مجاوزة كفاية الوصف إلى كفاية التّفسير والإجراء ، ممّا يخوّل لها ولوج القطاعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة؛ كالتّرجمة وتعليم اللّغات والاضطرابات النّفسيّة اللّغويّة ، كما أنّ ما اعتمدته في جهازها الوصفي الوظائفي الّذي تقوم بتحليل التّراكيب اللّغويّة على أساسه يقوم على صياغات صوريّة معقّدة ورموز رياضيّة مجرّدة ، والكثير منها يبتعد عن الواقعيّة والبساطة ، ويميل إلى التّجريد والتّعقيد ، بالإضافة إلى هذا تُنتقد في عدم التحقّق الكلّي لمبادئها[1].

4 ـ نقد نظريّة فيرث السّياقيّة :

اعتنى فيرث وأتباعه بعلمي الصّياتة والدّلالة ، ولم يول النّحو والصّرف العناية الّتي يستحقّانها ، ويعدّ ما فعله فيرث في هذا الشّأن نقلة دعّمت الموقف الّذي يرى صعوبة البحث الدّلالي المعتمد على المنطق والتصوّرات الذّهنيّة ، وفتحت الباب نحو نهج جديد في دراسة المعنى على نحو يراعي الاستخدامات الفعليّة للّغة [2] ، وصار الحديث في المدرسة السّياقيّة عن مركّب من اللّفظ والمعنى في علاقته بغيره من المركّبات الّتي يمكن أن تحلّ محلّه في نفس السّياق ، وقد استفاد فيرث من تراث دي سوسير ، لاسيما في مجال العلاقات الاستبداليّة والائتلافيّة ووظّفها في منهجه [3].

ومشكلة فيرث رغم أهميّة ما جاء به من تغيير ، (هي أنّه لم يعرض نظريّته عرضا كاملا ، وشاملا يبرز فيه الأسس الفلسفيّة ، والمعرفيّة لأفكاره السّياقيّة؛ إذ لم يتجاوز ما كتبه عن هذه النّظريّة ما يبلغ

1ـ ينظر : صحراوي؛ مسعود ، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي ، دار الطّليعة ـ بيروت لبنان ، ط1 ، 2005م ، ص ص : 5 ، 6/ والمتوكّل؛ أحمد ، المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي؛ الأصول والامتداد ، دار الأمان ، ط1 ، 2006م ، الرّباط ، ص ص : 52 ، 53.

2ـ ينظر : محمّد محمّد علي يونس ، مدخل إلى اللّسانيّات ، ص ص : 78 ، 79.

3ـ المرجع السّابق ، ص : 80.

حجم كتاب) [1]، وقد قدّم هاليداي شرحا مفصّلا لنظريّة فيرث وضمّنها أبعادا جديدة تجاوزت مستوى الجملة حتّى غدا النصّ هو الوحدة الصّغرى للتّحليل، ففتح آفاقا جديدة للبحث النصّي، وأعطى أهميّة كبيرة في الدّراسات اللّسانيّة لعنصر السيّاق، والأبعاد الوظيفيّة للّغة [2].

5 ـ وظيفيّة النّحاة والبلاغيين :

شرح العلماء العرب القدامى ظواهر لغويّة (في النّحو والبلاغة خصوصا)، وبقدرات فائقة شرحا وظيفيّا، وأجروا عليها تطبيقات في القرآن الكريم والشّعر القديم، ومن تلك الظّواهر التّداوليّة: التّقديم والتّأخير والقصر والحصر؛ والمقامات الّتي تناسبها، فكلّ دلالة من الدّلالات أو غرض من الأغراض، أو مقام من المقامات؛ يتطلّب بنى تركيبيّة مناسبة لا تصلح إلاّ له، ولا يصلح إلاّ لها، فمن الخطأ عند الجرجاني أن نجعل التّقديم؛ مثلا، مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في البعض الآخر[3].

وعبد القاهر من أهمّ علماء اللّغة العربيّة، وهو نحويّ أوّلا، وكلمة المعاني الّتي وردت عنده في الدّلائل لم يكن يعني بها نفس المدلول الّذي عناه علماء البلاغة المتأخّرين، وإنّما قصد بها معاني النّحو، وكتابه يدلّ على ما لحق الدّرس النّحوي العربي من تطوّر على يده، ذلك أنّه جمع بين النّحو والبلاغة[4]، وتظهر وظيفيّة هؤلاء العلماء في احتفائهم بحال المخاطب والمتلقّي والمقام ومقتضيات الحال، وقد برزت في الظّواهر الّتي حلّلوها، وهي في جوهرها تطبيق لمبدأ ارتباط بنية اللّغة بوظيفتها التّواصليّة.

والبلاغة العربيّة تداوليّة في جوهرها كونها؛ تهتمّ بكيفيّة إنتاج النصّ لدى المتكلّم، وآليّة فهمه لدى السّامع، ومدى مراعاة الظّروف والأحوال الملتبسة بإنجازه، وذلك أنّها تأخذ بعين الاعتبار وضع المتكلّم أثناء إصدار الحدث الكلامي، وحال السّامع وهيأته وتأثير العناصر السّياقيّة والمقامات المختلفة، فكلّ هذا من صميم بحث الوظيفيّة التّداوليّة، وفي ضوء ذلك حلّلوا البنيات اللّغويّة وأقرّوا بأنّها تضمن التّعبير عن المعاني المختلفة، واستعمالها يرتبط ارتباطا وثيقا بأدائها التّواصلي، غير أنّ العرب القدماء لم يعرفوا مصطلحا يقابل مصطلح التّداوليّة بمعناه الغربي (**pragmatique**)، الّذي يعني دراسة اللّغة أثناء

---

1 ـ محمّد محمّد علي يونس، مدخل إلى اللّسانيّات، ص: 81.

2 ـ المرجع السّابق، ص: 81.

3 ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 151.

4 ـ ينظر: خفاجي؛ عبد المنعم، الأسلوبيّة والبيان العربي، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، ط1، 1992م، ص: 87 وما بعدها.

الاستعمال، واهتمّ به اللّغويّون المحدثون كطه عبد الرّحمان الّذي له اسم (التّداوليّات)، مقابلا للمصطلح الغربي؛ يقول: (وقد كانت أكثر استفادتنا في هذا البحث من قسم "التّداوليات" في أبوابه الثّلاثة؛ باب "أغراض الكلام" وباب "مقاصد المتكلّمين"، وباب "قواعد التّخاطب"، وقد وقع اختيارنا منذ 1970م؛ على مصطلح "التّداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا"، لأنّه يوفي المطلوب حقّه، باعتبار دلالته على معنيي "الاستعمال" و"التّفاعل" معا)[1].

6 ـ وظيفيّة الأصوليين والمفسّرين:

لقد اهتمّ الأصوليّون بالمعنى اهتماما كبيرا جعلهم يتفوّقون على غيرهم، فإنّهم (دقّقوا النّظر في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل إليها النّحاة ولا اللّغويّون، فإنّ كلام العرب متّسع والنّظر فيه متشعّب، فكتب اللّغة تضبط الألفاظ ومعانيها الظّاهرة دون المعاني الدّقيقة الّتي تحتاج إلى نظر الأصوليّ باستقراء زائد على استقراء اللّغويّ)[2]، حتّى قال عنهم بعض النّحاة في دراستهم لبعض المسائل: (إنّها بعلم الأصول أليق)[3]، والبحث الأصولي ينظر إلى العلوم الأخرى على أنّها وسائل لبلوغ العلم المقصود، ويعتبر «العلم باللّغة العربيّة» الوسيلة الأولى؛ لا يخرج عنها، ويلزم الباحث في هذا المجال أن يكون عالما باللّغة العربيّة، وليس له أن يحيد عنها، فبها نزلت الشّريعة.

ومن النّتائج الّتي توصّل إليها الأصوليّون والّتي يمكن استثمارها في دراسة النّصوص اللّغويّة، تقسيمهم لدلالة اللّفظ على المعنى على الشّكل التّالي[4]:

/ باعتبار المتكلّم والمخاطب: حقيقيّة (ما يقصده المتكلّم)، إضافيّة (ما يفهمه السّامع).

/ باعتبار المعنى الموضوع له اللّفظ: المطابقة، الالتزام، التضمّن.

/ باعتبار شمول اللّفظ لأفراد محصورين أو غير ذلك: العام، الخاص، المشترك.

1ـ ينظر: طه؛ عبد الرّحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، ط2، المغرب، 2000م، ص: 28.

2ـ الزّركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، دار الصّفوة للطّباعة والنّشر، الغردقة، القاهرة، ط2، 1992م، ج: 1، ص: 14.

3ـ السّيوطي؛ جلال الدّين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج: 2، ص: 196.

4ـ ينظر: تـمّام؛ حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة: 1994م، ص: 21 وما بعدها.

/ الاستعمال : الحقيقة والمجاز.

/ الوضوح والخفاء : المشكل، الخفي، المشابه.

/ طرق الدّلالة : عبارة النصّ، الإشارة، الفحوى، الاقتضاء.

/ القصد : المنطوق والمفهوم. وفي هذا الباب تحدّثوا عن الحصر وطرقه.

ولأنّ اللّغة أداتهم الأولى في استنباط الأحكام وتخريج المسائل الفقهيّة، قاموا بوصل علوم اللّغة بمختلف فروعها أثناء دراستهم النّصوص الّتي تعمل فيها اللّغة عملها، لذلك يمكن القول إنّ: (دراستهم للّغة كانت دراسة وظيفيّة تطبيقيّة، تنظر إلى اللّغة وهي تحيا في عالم النصّ فتعطي الاعتبار الأوّل للمعنى الّذي يؤدّيه كلّ عنصر من عناصر الكلمة، وبذلك يمكن التّفريق بين المنهج الّذي أسّسته المدارس النّحويّة والمنهج اللّغوي للفقهاء، أنّ الأوّل قواعد تنظيريّة يراد لها الاطّراد والشّمول لاستيعاب التّراث اللّغوي، وأنّ الثّاني نظرة تطبيقيّة لهذه القواعد مع جعل فهمهم لروح النصّ ومدلولاته في المقام الأوّل)[1].

والخصائص البنيويّة والدّلاليّة والتّداوليّة، الّتي يتميّز بها القرآن الكريم؛ ساعدتهم على إظهار وظيفيّتهم مع بعض المفسّرين، فبنيويّته تظهر في أنّه خطاب متكامل متماسك الأجزاء والوحدات، ممّا يلزم عدم الغفلة عن بعضه في تفسير بعضه، وفي هذا صاغ الزّركشي مبدأ مفاده أنّ: القرآن يفسّر بعضه بعضا، والّذي تحوّل إلى القاعدة المنهجيّة الذّهبيّة: (أحسن طرق التّفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن)[2]، فكان للدّراسات الأصوليّة مصطلحات خاصّة بآليات ضبط النصّ واستنباط دلالاته؛ منها: منطوق القرآن ومفهومه، مطلقه ومقيّده، عامّه وخاصّه، مجمله ومفصّله... والملاحظ هو اتّساق هذه الظّواهر الثّنائيّة في بنية يحكمها مبدأ التّداعي ومبدأ التّقابل الموجود في لسانيات دي سوسير البنيويّة، والأصوليّون كانوا مطبّقين لهذا المبدأ خير تطبيق، فلم يدرس المنطوق إلاّ بإزاء قرينة المفهوم في علاقة تقابليّة وهكذا مع باقي الثّنائيّات[3].

---

1. بكري؛ عبد الكريم، الزّمن في القرآن الكريم، دراسة دلاليّة للأفعال الواردة فيه، دار الفجر للنّشر والتّوزيع، ط3، 2001م، القاهرة، ص ص: 29، 30.

2. الزّركشي؛ بدر الدّين محمّد بن عبد اللّه، البرهان في علوم القرآن، ص: 432 .

3. ينظر: صحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، ص: 131.

وطابع القرآن الوظيفي التّداولي ، يتجلّى في عدّة جهات[1] :

/ تنوّع تراكيب النصّ القرآني بحسب أحوال المخاطبين؛ بين مؤمن به وشاكّ ، وبين كافر لا يرجى منه إيمان ، ومعاند ترجى توبته... فكلّ حالة تتطلّب تركيبا لغويّا خاصّا؛ وهو ما يلاحظ في بنيات القصر.

/ انفتاحه على الوقائع الحياتيّة ، لأنّه نزل في معترك الأحداث ، فلا يجوز لدارسه أن يغفل عن أسباب النّزول ، فمن آثار الجهل بها أن يبيح النّاس لأنفسهم التوجّه في الصّلاة إلى الجهة الّتي يرغبونها ، عملا بظاهر قوله تعالى : "وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ ﴿البقرة﴾ ، فمعرفة سبب النّزول ضابط أساسيّ في تحديد المعنى.

/ نزوله في بيئة عربيّة ، وهي ذات نظام قبلي له أنماط سوسيولوجيّة معيّنة ، ومستوى معيّن من التّفكير، ومن هنا يتوجّب على دارس القرآن الاطّلاع على الحياة الاجتماعيّة والفكريّة العربيّة القديمة ، لأنّ القرآن قد راعى البيئة الّتي نزل فيها في بعض أحكامه ، وفي نسيجه اللّغوي وفي انفتاحه المعرفي على الوعي البشري في عصره وفي كلّ العصور.

1- ينظر : صحراوي؛ مسعود ، المنحى الوظيفي في التّراث اللّغوي العربي(مقال) ، ص : 38 وما بعدها ، نقلا عن : الطاهر شارف ، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير لابن عاشور ، رسالة ماجستير ، ص : 151.

المبحث الثّالث؛ مقاربة بين التّراث اللّغوي العربي والنّظريّات الوظيفيّة :

يتميّز التّراث العربي بخصوصيّته المستمدّة من خصائص هذه اللّغة، وشموليّة مناهجه في دراسته، غير أنّ هذا التميّز لا يمنع من موازنته أو تفاعله مع ما وصل إليه الفكر اللّغوي البشري غير العربي، لكشف أوجه التّشابه والاختلاف بينهما، وذلك من شأنه إتاحة إمكانيّة دراسته في ضوء ما وصلت إليه النّظريّات اللّسانيّة الحديثة، وفي نفس الوقت الحفاظ على خصوصيّاته وخلفيّاته وأبعاده الفكريّة، إذ يمكن (إقامة حوار مثمر بين الفكر اللّغوي العربي القديم والفكر اللّساني الحديث على أساس القرض والاقتراض رغم انتماء الفكرين إلى "حقلين نظريين" متباينين)[1]، فكثير من الآراء والمصطلحات ومبادئ الوظيفيّة ومفاهيمها مبثوثة في كتب التّراث اللّغوي العربي، (النّحو، البلاغة، التّفسير، علم الأصول)، قال بها علماؤنا ـ من نحويين وبلاغيين وأصوليين ـ من أمثال الخليل وسيبويه والفراء وابن جنيّ وعبد القاهر والرّضي والغزالي والآمدي وغيرهم؛ وهي تعبّر عمّا هو مطروق في الدّرس الوظيفي الحديث، وإن كان بصيغ مختلفة، فهم ينطلقون في دراساتهم من خلفيّات تظهر فيها السّمات الوظيفيّة ـ ولو لم يقصدوا ذلك ـ وقد دافع أحمد المتوكّل وغيره عن ذلك[2]، فالمتطلّع على هذا التّراث يجد كثيرا من المبادئ الّتي تنادي بها النّظريّات اللّغويّة الحديثة؛ لها نظير في الدّراسات العربيّة القديمة، ممّا يشجّع فكرة التّقارب والقرض والاقتراض، ومنها :

1 ـ مبدأ التّقطيع :

الّذي جاء به مارتيني ورد ما يشابهه عند الآمدي حين يقول في سياق حديثه عن الألفاظ الدالّة : (أمّا حقيقته ـ أي اللّفظ الدالّ ـ فهو ما دلّ بالوضع على معنى، ولا جزء له يدلّ على شيء أصلا كلفظ الإنسان، فإنّ (إن) من قولنا إنسان وإن دلّت على الشّرطيّة؛ فليست إذ ذاك جزءا من لفظ الإنسان)[3].

1ـ المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، ص: 183.

2ـ ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، ص: 39 وما بعدها/ وصحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، ص: 48 وما بعدها.

3ـ الآمدي؛ سيف الدّين محمّد بن علي، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، دار الصّميعي للنّشر والتّوزيع، دار ابن حزم، بيروت لبنان، 2003م، ج: 1، ص: 7.

2 ـ فكرة المقيّد (النّعت) :

الّتي صاغها سيمون ديك وأكّدها أحمد المتوكّل، وفحواها أنّ النّعت لا يستقلّ لوحده كحدّ أو موضوع من حدود أو موضوعات الحمل، بل يحمل دور المقيّد الّذي يحيل على ما قبله تدريجيّا؛ فيشكّل مع تابعه حدّا أو موضوعا[1]، ورد ما يشابهها في دوره (أي النّعت)، في باب أسلوب القصر؛ فهو في جملة القصر غير مقصود كحدّ، وله وظيفة أخرى هي الإحالة، وهو لا يقع مقصورا عليه لأنّه ليس جزءا مستقلاّ، بل المتبوع مع تابعه، لأنّ التّوابع وإن كانت ذات دلالات ضروريّة إلاّ أنّها ليست مقاطع مستقلّة من المعاني يتوجّه إليها حكم.

3 ـ مبدأ المقام :

الّذي صاغه مالينوفسكي تلخّص في قول البلاغيين "لكلّ مقام مقال"؛ "ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام"، وهي (من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللّغات، لا في العربيّة الفصحى فقط، وتصلحان للتّطبيق في إطار كلّ الثّقافات على حدّ سواء، ولم يكن مالينوفسكي وهو يصوغ مصطلحه الشّهير **context of situation** يعلم أنّه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها، إنّ الّذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجّلوه في كتب لهم تحت اصطلاح "المقام"، ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدّعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح مالينوفسكي)[2].

فللمقام حظّ في الدّراسات اللّغويّة السّابقة، وذلك لتأثيره البارز في إنتاج الكلام وتوجيه معناه؛ ففي البلاغة نقول: لكلّ مقام مقال، مراعاة سياق الحال.. وفي النّحو: التّخصيص، العناية، الحصر... وفي التّفسير: أسباب النّزول، وفي الأصول: المطلق والمقيّد، العام والخاصّ، المنطوق والمفهوم، الضّرورات، الموافقة والمخالفة، يقول السّكاكي: (لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكّر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزيّة، ومقام المدح يباين مقام الذمّ... وكذلك مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار... وكذلك مقام الكلام مع الذّكي يغاير مقام

---

1. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية، (مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة)، ص: 35.

2. تمّام حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 372.

الكلام مع الغبيّ، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر)[1]، وفي هذا دلالة على أنّ الجمل لا تولد وحدها دون سياق أو إحالة قبليّة أو بعديّة؛ لغويّة كانت أو غير لغويّة.

4ـ مبدأ ارتباط المعاني بسياقاتها المختلفة:

هناك تقارب كبير بين تحليلات علماء العربيّة وما قرّرته نظريّة المعنى، فنجدهم يهتمّون بالمعاني الوظيفيّة للتّعابير أكثر من اهتمامهم بأشكالها؛ (ومعنى هذا أنّ نظريّة المعنى وارتباطها بالسياق، لم تكن بعيدة عن علماء العربيّة من لغويين وبلاغيين وفقهاء)[2]، ومن ذلك؛ ما تناوله الأصوليّون في تخصيص الدّلالة التّركيبيّة العامّة بأدلّة لغويّة متّصلة منطوقة ومفهومة؛ ومنها ما يفيد الحصر، هو ما تناوله اللّغويّون المحدثون تحت مصطلح السّياق الأصغر (**micro context**)، فعن طريق السّياق الأصغر في النصّ (نستطيع أن ندرس الكيفيات الّتي تتفاعل بها الكلمات، فيبرز بعضها بعضا، ويؤثّر بعضها في بعض) [3]، من حيث تخصيص العام وإيضاح الغامض وغيرها، قال الله تعالى: "...وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ...﴿٢٧٥﴾ (البقرة)، فقوله تعالى: « حَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ » تركيب مستقلّ تامّ بمعناه، ذكر مع اللّفظ العامّ بمعنى أوسع، فالرّبا عقد مالي يجري كغيره من المعاملات الّتي تدخل في البيع، ولولا التّخصيص بتحريم الرّبا لجاز للإنسان أن يجري جميع معاملات البيع بما فيها الرّبويّة.

وما ذكروه في تخصيص الدّلالة التّركيبيّة العامّة بالمخصّص اللغوي المنفصل الّذي يتناول السّياقات والنّصوص المنفصلة، الّتي تتفاعل فيما بينها في مواقع متفرّقة، فيتخصّص بعضها ببعض، هو ما يطلق عليه في الدّراسات اللّغويّة المعاصرة السّياق الأكبر (**macro-context**)[4]، يقول ستيفن أولمان: (إنّ السّياق على هذا التّفسير ينبغي أن يشمل ـ لا الكلمات والجمل الحقيقيّة السّابقة واللاّحقة فحسب ـ بل والقطعة كلّها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشمل ـ بوجه من الوجوه ـ كلّ ما يتّصل بالكلمة من ظروف

1ـ السّكاكي؛ أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص: 350.

2ـ حلمي؛ خليل، العربيّة وعلم اللغّة البنيوي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1996م، ص: 225.

3ـ ينظر: شكري؛ محمّد عياد، اتّجاهات البحث الأسلوبي، أصدقاء الكتاب للنّشر والتّوزيع، ط 2، 1996م، القاهرة، ص: 116.

4ـ ينظر: العبيدان؛ موسى، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنّشر والتّوزيع، سورية دمشق، ط1، 2002م، ص: 196.

وملابسات والعناصر غير اللّغويّة المتعلّقة بالمقام)[1]، فهذه العوامل كلّها لها أهميّتها البالغة وتأثيرها على المعنى الدّقيق للمفردات.

وقد أدرك الأصليّون هذه الأهميّة للسيّاق بنوعيه الأصغر والأكبر في تحديد معنى الوحدة الكلاميّة الّتي ينطق بها المتكلّم، وقد صرّح بذلك ابن قيّم الجوزيّة (ت751هـ) الّذي يقول: (الألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنّما هي أدلّة يستدلّ بها على مراد المتكلّم فإذا ظهر مراده ووضح بأيّ طريق كان، عمل بمقتضاه سواء كانت بإشارة أو كتابة أو إيماءة أو دلالة عقليّة أو قرينة حاليّة أو عادة له مطّردة لا يخلّ بها)[2]، ويعيب على الّذين يقتصرون على المستوى المعجمي دون اصطحاب السّياق، ويرى أنّ إهماله يوقع في الخطأ، يقول: (والسيّاق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدّلالة، وهو من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته)[3]، ثمّ يستشهد على خطأ إبعاد السّياق من تحديد الدّلالة والاكتفاء بالدّلالة المعجميّة، وكيف يوقع ذلك في تفسير غير سليم للمدلول، واستشهد لذلك بقوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴿الدخان﴾، فهي خارج سياقها تؤدّي معنى التّبجيل والتّعظيم؛ بقصر المخاطب على العزّة بهذه الوحدة الكلاميّة (القوّة الإنجازيّة المدركة مقاليّا)، وهي داخل السّياق تؤدّي معنى آخر وهو الذّليل الحقير وهي (القوّة الإنجازيّة المدركة مقاميّا).

وهذا ما نبّه إليه الشّاطبي من الأصوليين (ت790هـ) حيث يقول: (وجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال الّتي هي ملاك البيان)[4]، وقد أخذ على الّذين عرضوا لتفسير القرآن

---

1. أولمان؛ ستيفن، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة: كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، دط، دت، ص: 57.

2. ابن قيّم الجوزيّة؛ أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيّوب، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تعليق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، ط1، 1423هـ، المملكة العربيّة السّعوديّة، مج: 3، ص: 385.

3. ابن قيم الجوزيّة، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدّة، دت، دط، ج: 4، ص: 10. أو ص: 1314 في نسخة ذات مجلّد واحد.

4. الشّاطبي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد، الموافقات في أصول الشّريعة، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان، ط1، 1997م، المملكة العربيّة السّعوديّة، ج: 4، ص: 21.

الكريم دون النّظر إلى السّياق ، إذ إنّ بعضهم حمله على غير ما تقتضيه اللّغة فاستبعدوا السّياق اللّفظي ، فحملوا القرآن على معان لا تعرفها العرب[1].

وحاصل كلام الرّازي أنّ كلمة ما؛ لا معنى لها ، أو على حدّ تعبيره تخلو من الفائدة خارج السّياق ، فذلك يجعلها ذات معان متعدّدة قابلة للدّخول في أكثر من سياق ، والمطلوب معنى واحد يحدّده السّياق ، فالغرض الأصليّ من وضع المفردات كما يقول : (أن يضمّ بعضها إلى البعض لتحصل منها الفوائد المركّبة... واعلم ، أنّه يلزم ممّا بيّناه ، أن يكون ذكر المفردات وحده ، بمنزلة نعيق الغراب في الخلوّ عن الفائدة)[2].

وهذه النّظرة من الأصوليين للسيّاق هي ممّا نادى به علماء اللّغة المحدثون من أصحاب نظريّة السيّاق ، (فإنّهم يرون أنّ معنى الكلمة لا يتحدّد إلاّ من خلال تسييقها)[3]، ومنهم أولمان إذ يرى أنّ كثيرا من كلماتنا له أكثر من معنى ، غير أنّ المألوف هو استعمال واحد فقط من هذه المعاني في السيّاق الّذي يحددّها ويبيّنها ويعيّنها ، ويضرب أمثلة توضّح ذلك؛ فكلمة "أدرك" ، إذا انتزع من مكانه في النّظم يصبح غامضا ، غير محدّد المعنى ، هل معناه : لحق به ، أو عاصره ، أو أنّه يعني رأى ، أو بلغ ، فالتّركيب وحده هو الّذي يستطيع أن يجيبنا[4].

وما قرّره الأصوليّون بشأن عناصر السّياق لا يختلف في دلالته عمّا قرّره أصحاب نظريّة السّياق ، وهو كذلك متّفق مع ما ذهب إليه تمّام حسّان[5].

5 ـ أفعال الكلام والقوّة الإنجازيّة :

ما تحدّث عنه أصحاب الفلسفة التّحليليّة أو فلسفة اللّغة العاديّة وأفعال الكلام ، كأوستين وسيرل وجرايس وهم يؤكّدون على دراسة اللّغة في الاستعمال ، والتّمييز بين أنواع أفعال الكلام ، والقصد منها

1ـ ينظر : الشّاطبي ، الموافقات في أصول الشّريعة ، ج : 3 ، ص : 419 ، 420.

2ـ الرّازي؛ فخر الدّين محمّد بن عمر بن الحسين ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تح : نصر الله حاجي ، دار صادر بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004م ، ص : 73.

3ـ العبيدان؛ موسى بن مصطفى ، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين ، ص : 243.

4ـ ينظر ، أولمان؛ ستيفن ، دور الكلمة في اللّغة ، ترجمة : كمال محمّد بشر ، مكتبة الشّباب ، دط ، دت ، ص ص : 59 ، 60.

5ـ ينظر : تـمّام؛ حسّان ، اللّغة العربيّة معناها ومبناها ، ص : 353.

والأثر الّذي تتركه، والتّمييز بين القوّة الإنجازيّة الحرفيّة المدركة مقاليّا، والقوّة الإنجازيّة المدركة مقاميّا، يشبه ما ذهب إليه الأصوليّون وهم في سبيل وضع أصول استنباط الحكم الشّرعي من النصّ، إذ اتّجهوا إلى دراسته لا لمعرفة ما يجب أن يكون عليه الأسلوب البليغ، (بل لمعرفة ما يريده المتكلّم ـ بأيّ أسلوب بلاغيّ ـ من المخاطب، أيريد مثلا إفادته مضمون الخطاب فقط، أم يريد من وراء ذلك فعل شيء أو تركه، على نحو الإلزام بأحدهما أو التّخيير، ليستنبطوا من ذلك أحكام الوجوب أو الحرمة أو الإباحة)[1]. وكانوا خير من طبّق هذه النّظريّة في تراثنا من خلال نظريّة الخبر والإنشاء، ولم يكونوا مستهلكين لمنجزات غيرهم، بل كانوا مستقلّين بآراء مبتكرة وفكر مبدع أصيل، متأثّرين ببعضهم ومؤثّرين، واستنبطوا أفعالا كلاميّة جديدة لم تتمكّن اللّسانيّات الحديثة وفلسفة اللّغة من بلورتها إلاّ حديثا؛ أهمّها: الرّواية والشّهادة والدّعوى والإقرار والكذب والخلف والإذن والمنع والنّدب والإباحة والتّخيير وغيرها، معتدّين بمبدأ الغرض من كلام المتكلّم وقصده، وفضّلوه على الصّيغة إذا طرأ عليها ما يخلّ بأدائها الإنجازي، فالأولويّة للمقاصد والمعاني على الألفاظ والمباني، وهذه الظّواهر أفعال كلاميّة لأنّها ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف وسلوكات اجتماعيّة [2].

6 ـ الاقتضاء التّداولي:

ما ذكره اللّسانيّون المحدثون أصحاب النّظريّة التّداوليّة في أنواع الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة؛ يوجد ما يقابله في التّراث اللّغوي العربي؛ وهي [3]:

الاقتضاء العام الّذي يحصل دون الرّجوع إلى سياق حاليّ، والاكتفاء بمعاني الألفاظ ودلالاتها المنطقيّة الّتي تسمح لأشياء معيّنة أن تتضمّن دون التّصريح بها؛ ويقابله الاستدلال بالعقل عند الأصوليين.

والاقتضاء الخاصّ؛ ويحصل بوجود سياق حاليّ معيّن، ويتطلّب أدوات كالشّرط والتّوكيد، ويقابله التّخصيص بالقرائن اللّغويّة والسّياقيّة.

والاقتضاء العرفي؛ ويعود إلى معاني المفردات بالعرف؛ كما هو العرف الاجتماعي عند الأصوليين.

1ـ مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، ص : 11.

2ـ صحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، ص ص: 133، 172.

3ـ ينظر: عماد؛ عبد يحيى الحيالي، الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة في تراكيب القرآن الكريم، بحث، ص ص: 68، 70 وما بعدها.

والاقتضاء التّخاطبي؛ وهو اقتضاء لا عرفي، ويعتمد على مدى واسع من المعلومات السيّاقيّة، ويقابله أسباب النّزول لكلّ آية من القرآن الكريم.

7 ـ وظيفة اللّغة التّواصليّة :

أشار إليها علماء العربيّة القدماء، ومنهم الجرجاني في كتابه الدّلائل؛ إذ إنّ وظيفة اللّغة الأساسيّة عنده هي نقل ما يقصده المتكلّم إلى السّامع، وبهذا يتمّ التّواصل بينهما، يقول: (...أنّ النّاس إنّما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السّامع غرض المتكلّم ومقصوده...)[1]، وخير برهان على تقارب الفكرين: التّراثي والمعاصر؛ في تصوّرهم لطبيعة اللّغة ووظيفتها، ما ذكره ابن جنّي في حدّها بأنّها: "أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"، وكما هو واضح فهو مفهوم قائم على الثنائيّة بين الأصوات من جانب والأغراض الّتي يروم المتكلّم إبلاغهما من جانب آخر، ومراده بالأصوات هو تركيب الألفاظ بحسب ما يقتضيه نظام القواعد، وأنّ هذه التّراكيب تتميّز بكونها وظيفيّة، أي تجب معاملتها بربطها بما تؤدّيه من وظائف، ومن ثمّ فلا ينبغي أن تكون دراسة اللّغة بحثا في أنساق تركيبيّة مجردة، ومعزولة عن وظيفتها وعن الغرض منها[2].

8 ـ مبدأ علاقة البنية بالوظيفة :

اعتمده القدماء في تحليلاتهم، فعند الجرجاني يظهر فيما أسماه بمصطلح الوجوه والفروق، وذلك أنّ المتكلّم يختار أشكال التّراكيب الّتي تخدم الأغراض الّتي يريدها، وكلّ شكل يصحّ في مقام وغرض خاصّ به ولا يصحّ في غيره، وقد تتعدّد وجوه المعنى النّحوي الواحد؛ والفروق هي المعاني المترتّبة عن هذه الوجوه، واللّغة تتّسع لكلّ تعبير أو بيان أو إفصاح عن مشاعر، والنّحو يمدّ المتكلّم بأنماط مختلفة من التّعابير تتوافق مع أغراضه المختلفة، ويختار منها ما يخدم قصده[3].

والعلم بالوجوه والفروق لذاتها لا فائدة منه، بل المزيّة أن تدرك مواضعها، فالوظيفة التّداوليّة تفرض على المتكلّم أن يختار للغرض الّذي يؤمّ الوجه أو التّركيب الّذي يلائمه، فتصنع كلامك على

1ـ الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 488.

2ـ ينظر: الجندي؛ طه، البعد التّداولي في النّحو الوظيفي، بحث نشر بعدد27، مجلّة كليّة دار العلوم الشّهريّة، ص: 9.

3ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ص: 200، 203، وما بعدها.

الوجه الّذي تقتضيه هذه المواضع[1]، وقد درس الإمام الجرجاني صورا تداوليّة عديدة؛ كالتّقديم والحذف والقصر وغيرها، تُبيّن مدى مطابقة بنياتها لوظائفها، وأتبعها بتحليلات مؤكّدة لهذه المطابقة.

وعند السّكاكي يظهر في حديثه عن دور المقام في توجيه بنية الخطاب، فلكلّ مقام مقال، وما بنيات الكلام إلاّ انعكاس للوظائف المقصودة منه، فلكلّ مقام تخاطبي كلام تحيط بعناصره ظروف خاصّة به؛ والتّحليل اللّغوي عنده يربط بين المعنى الصّريح وهو المعنى الأصلي والمباشر للعبارة، والمعنى المستلزم مقاميّا وهو المعنى غير الأصلي وغير المباشر؛ يقول د؛ المتوكّل: (وتمتاز اقتراحات السّكاكي في مفتاحه عن باقي ما ورد في وصف الظّاهرة بأنّها تجاوز الملاحظة الصّرف، وتحمل أهمّ بذور التّحليل الملائم للظّاهرة، أي التّحليل الّذي يضبط علاقة المعنى الصّريح بالمعنى المستلزم مقاميّا ويصف آليّة الانتقال من الأوّل إلى الثّاني بوضع قواعد استلزاميّة واضحة)[2]، وقد قام السّكاكي بتحليل ظواهر تداوليّة باعتماد هذه المبادئ؛ منها: الاستفهام والتّقديم والقصر، وغيرها وتحدّث عن أغراضها.

وقد تبين ممّا سبق وعي العلماء القدماء وإدراكهم أنّ ظاهرة مقاميّة كالقصر تمكنت من تحديد بنية جملها، ولا شكّ أنّ هذا الطّرح التّراثي يؤكّد اشتراك أصحابه مع ما يقدّمه الدّرس الوظيفي المعاصر من أنّ ثمّة ارتباطا بين الخصائص البنيويّة للعبارات اللّغوية والأغراض التواصليّة الّتي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها، وظاهرة القصر في جوهرها تطبيق لمبدأ ارتباط بنية اللّغة بوظيفتها التّواصليّة، والقاضي بأنّ الوظيفة تحدّد جزئيّا أو كلّيا البنية الصّوريّة للتّركيب على أساس تبعيّة الأولى للثّانيّة، أو ارتباط الخطاب بملابساته وأغراضه ودلالاته؛ يقول المتوكّل: (إنّ النّحو الّذي كان يدعو إليه الجرجاني ـ ومن حذا حذوه من البلاغيين والأصوليين ـ نحو وظيفي باعتبار قيامه على مبدأ ضرورة الرّبط بين اللّغة والوظيفة الّتي تؤدّيها في التّواصل)[3].

1ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 261.

2ـ المتوكّل؛ أحمد، دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفي، ص: 96.

3ـ المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة (مدخل نظري)، ص: 97.

المبحث الرّابع؛ تقويم؛

1ـ تحليل بنيات القصر:

القصر من الأساليب المتنوّعة الطّرق، الّتي تضمّ مجموعة من الأدوات والمعايير المساعدة على تقديم وصف وتحليل دقيقين للإمكانات الّتي يمكن أن تصنعها الأبنية النّحويّة، وهذه المعايير تستوعب أحكام النّحو والحسّ اللّغوي والذّوق البلاغي؛ وتقدّم تفسيرا موضوعيّا لأشكال الاطّراد على المستوى الظّاهري المباشر، وعلى المستوى الأعمق غير المباشر، وتوضّح كيفيّة العدول عن المستوى الأوّل، ومزيّة بنية لغويّة معيّنة دون أخرى، أو مقابلة البنية اللّغويّة الفعليّة بالأبنية الأخرى المحتملة الّتي يمكن أن تقع موقعها، لتؤدّي وظيفتها، وتحديد سبب المفاضلة والفرق بينها، وما أطلق عليه (الوجوه والفروق).

ويمكن الاعتماد في تحليل تلك الأبنية في إطار المقابلة بينها على عناصر أساسيّة تتحكّم في تأليفها؛ وهي:

/ عنصر الاختيار الّذي يختصّ بالمستوى الصّرفي المعجمي؛ أي اختيار ألفاظ بعينها من المعجم اللّغوي لأداء دلالات بعينها.

/ وعنصر التّأليف الّذي يختصّ بالمستوى النّحوي، أي التّأليف بين هذه الألفاظ وفق المعاني النّحويّة.

/ وعنصر القصد؛ ذلك أنّ توالي الألفاظ في النّطق لا يصنع نسقا، وإنّما يصنعه قصد المبدع إلى التّأليفات بتكوينها، ويكون بمعرفة كيفيّة تأليف تلك الأبنيّة وتفسير مكوّناتها والعلاقات بينها، والدّلالات المختلفة (الوضعيّة، والنّحويّة والسّياقيّة...)، والأسلوب الّذي يميّزها من ناحيّة، ويربطها بالغرض العام من ناحيّة أخرى، في مقابل الاحتمالات الأخرى الممكنة، وعلاقة المتلقّي بتلك التّنويعات اللّغويّة، ودور العناصر الّتي تقع خارج النصّ، في تحديد تفاوت البنيات في نظمها، ومن ثمّ تفسير علّة وضع مكوّن في علاقة دون أخرى، ومدى التّلاؤم والتّناسب بين العلاقات، وبين الصّياغات والأغراض والمقامات[1].

وعند ذلك تلتقي كفاءة المتكلّم في إنتاجها، مع كفاءة المخاطب في فهمها فيتمّ تفسيرها، والتّفريق بينها، وإدراك دقائقها والكشف عن أسرارها الخفيّة، وانتقالها من بنية الإخبار؛ إلى بنية القصر.

واستعمال المتكلّم صياغات تتضادّ مع معرفة المخاطب وحاجته تفضي إلى وقوع خلل في عمليّة التّواصل، فلا يجوز إغفال دور العناصر غير اللّغويّة التّداوليّة أو بعضها في تفسير أبنيّة القصر اللّغويّة

1ـ ينظر: بحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، ص: 207.

عموما، وبنية القصر الإضافي خاصّة، لأنّ العبارة موجّهة إلى موقف معيّن هو الّذي يحدّد دلالتها، والمتكلّم قصد بها إليه، وأودعها من الخصائص ما يطابق حال المخاطب أو حال الموقف، وبذلك تتحدّد دلالتها ويخصّص عمومها وتؤدّي وظيفتها، فإذا كان النّفي في الاستثناء يفيد العموم في مثل قولك: محمّد ليس منشغلا إلاّ بالأدب، فإنّ حال المخاطب وحده يقيّد هذا الإطلاق ويخصّص هذا العموم، وهكذا تتضافر العناصر اللّغويّة وغير اللّغويّة في تفسير أبنيّة القصر.

2 ـ المزج بين النّحو والبلاغة ـ علم المعاني خصوصا ـ في التّحليل الوظيفي:

في عبارة ذات مغزى لابن الأثير يفرّق فيها بين عمل النّحوي وعمل البلاغي؛ جاء فيها أنّ البلاغي والنّحوي يشتركان في أنّ النّحوي (ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللّغوي، وتلك دلالة عامّة، أمّا صاحب البيان فإنّ له نظرة فوق هذه النّظرة، لأنّه ينظر في فضيلة تلك الدّلالة، الّتي هي دلالة خاصّة... وذلك أمر وراء اللّغة والنّحو والإعراب)[1]، والصّلة بينهما في أصلها حميمة فكلاهما يتعامل مع الأداء اللّغوي، وقد غفل النّحويّون عن دراسة الظّواهر النّحويّة متّصلة بالتّركيب اللّغوي ولم ينتبهوا إلى البناء وقيمته، و(الّذي حدث أنّ النّحاة شغلوا بشاغل آخر عن البحث في تأليف الجملة، وما يحدث التّأليفَ والرّبطَ بين مفرداتها من أدوات وصيغ وتقديم وتأخير، وما تؤدّيه هذه الارتباطات المختلفة من معاني النّسبة والتّأليف، وكان هذا الشّاغل الآخر هو عمل بعض الجملة في بعض، فصارت عندهم وظيفة كلّ من الأداة والصّيغة والتّركيب الخاصّ إحداث الرّفع والنّصب والجرّ والجزم في معمولاتها، لا الدّلالة على تلك المعاني النّسبيّة... من أجل ذلك اتّجه البلاغيّون وهم في سبيل وضع أصول الأسلوب البليغ، وما ينبغي أن يراعيه المتكلّم من مقتضيات حال السّامع ليبلغ الغرض الّذي يريده من كلامه، إلى دراسة طرق تأليف الكلام الخبري والإنشائي مرتبطا بحال المتكلّم وحال السّامع...)[2]، ولاشكّ أنّ البحث في ذلك يستدعي البحث فيما يدلّ عليه التّركيب النّحوي من أسلوب وأدوات نحويّة لها أثر في تحقيق ذلك، حتّى انتهى الأمر إلى وجوب الجمع بينهما، وما سمّاه البلاغيّون بعلم المعاني

1ـ ابن الأثير؛ ضياء الدّين، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، القسم الأوّل، ص: 21/ وينظر للتّعليق عليها: رجاء؛ عيد، فلسفة البلاغة بين التّقنيّة والتطوّر، ص: 143.

2ـ مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، ص: 10.

وسمّاه عبد القاهر بعلم معاني النّحو، (هو فيما يراه النّحاة المحدثون قمّة ما ينبغي أن يصل إليه علم النّحو) [1]، ومن ذلك تتّضح العلاقة الحقيقيّة بين علم المعاني والنّحو، فيجب المزج بينهما، وتسميّة الجرجاني «علم معاني النّحو» تسميّة وظيفيّة، لأنّه اعتمد في تحليل البنيات والتّراكيب اللّغويّة على علاقاتها بوظائفها التّداوليّة ومقاماتها؛ فكانت وظيفيّته قويّة، ومحاولة الفصل بينهما يخلّ بماهيّة الدّراسة اللّغويّة، وممّن دعوا إلى المزج بين علم المعاني والنّحو ورفضوا الفصل بينهما؛ الدّكتور جعفر دك الباب حين يقول: (فإنّنا نرفض فصل دراسة علم المعاني عن دراسة علم النّحو بمفهومه الواسع؛ "صرف العربيّة ونحوها"، وندعو إلى توحيدهما معا في علم واحد)[2]، فالنّظم هو تجسيد معاني علم النّحو الّتي يبنى عليها الكلام بحسب أشكال بنياته المترتّبة عن اختلاف الوظائف المنوطة بها (مقاصدها وأغراضها)[3].

فالنّحو والبلاغة معا يشكّلان كلاّ متكاملا في دراسة الوظيفة الأساسيّة للّغة؛ التّواصل، يقول الدّكتور عبد الرّحمان الحاج صالح: (إذا اكتفينا في تعليم العربيّة بجانب السّلامة اللّغويّة، أي بجعل الطّالب قادرا على تطبيق القواعد النّحويّة وحدها دون مراعاة ما تستلزمه عمليّة الخطاب، أي دون القواعد البلاغيّة؛ كان تعليمنا هذا ناقصا، وتجاهلنا بذلك أنّ الملكة اللّغويّة بكاملها وفي جملتها هي مهارة التصرّف في بنى اللّغة بما يقتضيه حال الحديث، أي القدرة على التّبليغ الفعّال بما تواضع عليه أهل اللّغة)[4].

3ـ فضل الدّراسات العربيّة القديمة على الدّرس الوظيفي المعاصر:

معيار "الوظيفيّة" معيار موجود ضمنا أو صراحة في مجموع التّراث اللّغوي الإنساني، ففي التّراث العربي كان الملمح الوظيفي يعني التّوافق بين التّراكيب اللّغويّة وبين ملابسات الخطاب، وتفسير الأولى على أساس الثّانيّة يظهر في حركة العلماء العرب في فروع معرفيّة عديدة؛ كعلم أصول الفقه والنّحو والبلاغة والتّفسير، بشرط أن تؤخذ هذه الفروع التّراثيّة في مجموعها، لا أن تؤخذ أجزاء متفرّقة، وقد قال بهذا الرّأي كثير من الدّارسين العرب المعاصرين؛ كأحمد المتوكّل في دفاعه عن وظيفيّة التّراث العربي بقوله: (على أنّ الإنتاج اللّغوي العربي القديم يؤوّل إذا اعتبر في مجموعه ـ نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره

1ـ مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، ص: 10.

2ـ دك الباب؛ جعفر، النّظريّة اللّغويّة العربيّة الحديثة، ص: 156.

3ـ ينظر: الجرجاني؛ عبد القاهر، الدّلائل، ص: 132.

4ـ عبد الرّحمان؛ الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، ج: 1، ص: 184.

ـ إلى منظور ينتظم مبادئ وظيفيّة)[1]، ويرى جعفر دك الباب أنّ بين نظريّة النّظم لعبد القاهر الجرجاني ونظريّة ماثيسيوس (الوجهة الوظيفيّة للجملة)، نقاط تقاطع عديدة تدلّ على تقاربهما الوظيفي[2]، ممّا يدلّ على المنحى الوظيفي للجرجاني، ويقول عبد الرّحمان الحاج صالح في معرض حديثه عن القيمة المنهجيّة للرّبط بين اللّغة وأحوال استعمالاتها: (فاللّغة كما يتصوّرها المبدعون من علمائنا أمثال الخليل وسيبويه وابن جنّي وغيرهم ممّن ظهر في الصّدر الأوّل هي قبل كلّ شيء استعمال النّاطقين بها، أي إحداثهم لفظا معيّنا لتأديّة معنى وغرض في حال الخطاب تقتضي هذا المعنى وهذا اللّفظ، وليست فقط صوتا ولا نظاما من القواعد ولا معنى مجرّدا من اللّفظ الّذي يدلّ عليه، ولا أحوالا خطابيّة معزولة عن كلّ هذه الأشياء)[3].

وتحدّث الدّكتور أحمد المتوكّل عن التّشابه الحاصل بين الفكرين، خاصّة فيما يتعلّق بآليات التّحليل اللّغوي المعتمدة في رصد التّرابط القائم بين البنية والوظيفة[4]، ودعا إلى ضرورة أن يكون بينهما قرض واقتراض لتحقيق هدفين؛ هما: إغناء النّحو الوظيفي بتحليلات ومفاهيم يستلزمها، وتقويم مجموعة من الأوصاف المقترحة في النّحو العربي أو البلاغة العربيّة كالمبتدأ وظواهر التّخصيص والحصر...[5]، ولم يبتعد المتوكّل في دراسته لكثير من ظواهر اللّغة عمّا قدّمه القدامى، ومن ذلك ظاهرة القصر الّتي يسمّيها بالحصر.

ويذهب د. جعفر دك الباب في حديثه عن موقع نظريّة الجرجاني اللّغويّة من علم اللّغة العام الحديث إلى أنّ (نظريّة الجرجاني اللّغويّة يمكن أن تساعد في توضيح وإكمال بعض جوانب النّظريّة البنيويّة الوظيفيّة في علم اللغّة العامّ الحديث)[6].

---

1. المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، (مدخل نظري) ص: 39.

2. ينظر: دك الباب؛ جعفر، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ص: 121، 122.

3. عبد الرّحمان؛ الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، ج: 1، ص: 175.

4. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيّات الوظيفيّة، (مدخل نظري) ص ص: 40، 41.

5. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، الوظائف التّداوليّة، ص: 10.

6. دك الباب؛ جعفر، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 123.

وما خلّفه الأصوليّون خاصّة من درس وظيفي لظواهر التّركيب؛ يجب الاستفادة منه أيضا ، لأنّ هؤلاء تفوّقوا على النّحاة في تحليل معاني التّركيب ودلالاته وأساليبه ، فقد (استأثروا بالبحث في ما فرط فيه كثير من النّحاة ، وذلك من جرّاء فهمهم لطرق تأليف الكلام وأوجه استعمالاته وإدراك مقاصده وأغراضه ، وما يطرأ عليه من تغيير ليؤدّي معاني متعدّدة)[1].

والمتتبّع لتصريحات اللّغويين الغربين يشهد في اعترافاتهم فضل تراثنا العربي على كلّ من اطّلع عليه ، يقول مازن الوعر وهو ينقل اعتراف شومسكي في حوار معه : (وقد قال بالحرف الواحد إنّه تأثّر بالتّراث العربيّ القديم عندما وضع نظريّته في النّحو التّوليدي والتّحويلي)[2] ، وتأثّرَ المفسّرون بتحليلات هؤلاء العلماء ، فظهر في تفسيراتهم الّتي لم تكن بعيدة عن الدّرس اللّغوي الوظيفي ، ويفهم من ذلك أنّ العرب القدامى ربطوا ماهيّة اللّغة بوظيفتها التّواصليّة ، وأنّ دراستهم كانت وظيفيّة؛ تراعي الرّبط بين شكل الخطاب وصيغته وملابساته وأغراضه.

هذا ولابدّ من الاعتراف بأنّ التّراث العربي مستقلّ بتميّزه الابستمولوجي والمنهجي ، وأنّه لا ينفي مشابهته في بعض مناحيه للفكر اللّغوي البشري الآخر ، وأنّ اللّغويين العرب القدامى لم يكونوا بعيدين عن روح الدّرس الوظيفي التّداولي المعاصر ، لكن هذا لا يعني تطابق التّصوّرات والمبادئ والمنطلقات ، ومن هنا تأتي شرعيّة تناوله من منظور لساني حديث؛ شريطة الوعي بالأبعاد الفكريّة للأدوات المعرفيّة والمنهجيّة الّتي يتوسّل بها في الوصول إلى عمق هذا التّراث ، والابتعاد عن التعسّف في تطبيق مفاهيمها ، والتحفّظ على بعضها بما يلائم استقلاليّة التّراث العربي ، وهذا لإسقاط تهمة محاولة تطبيق ثمار فكر غربي معاصر على فكر عربي قديم ، وبهدف استصحاب التّراث إلى عصرنا ومحاولة الوقوف على خصائص الوظيفيّة العربيّة الّتي تجعل منها مشابهة للوظيفيّة الغربيّة المعاصرة ومختلفة عنها ، فلهذا التّراث خصائص ابستيمولوجيّة تجعل منه منظومة مستقلّة ومتميّزة ومتكاملة[3].

---

1. صحراوي؛ مسعود ، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي ، ص : 132.

2. ينظر : علوي؛ حافظ إسماعيلي ، أسئلة اللّغة ، أسئلة اللّسانيّات ، دار الأمان ، الرباط ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2009م ، ص : 120.

3. صحراوي؛ مسعود ، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي ، ص ص : 6 ، 8.

4 ـ ضرورة المناهج الحديثة :

لفهم وإدراك الإمكانات الفنيّة للّغة العربيّة؛ يجب قراءة التّراث اللّغوي العربي من منظور حديث في ضوء المناهج الحديثة[1]، فمن التحضّر مسايرة ما استجدّ بالاستفادة من صحيحه وتقويم خاطئه، أمّا القول برفضه جملة وتفصيلا وعدم التّفاعل معه فهو من الجمود، وهو الّذي يستحقّ الرّفض. إذ هي دعوة غير صحيحة؛ بل دعوة لا إنسانيّة، فمن الضّروري أن نستفيد ممّا يطوّره غيرنا، وأن نشارك في هذا التّطوير[2]. بعد تمحيصه وغربلته، من غير انبهار ولا تقليد أعمى لأفكاره، وعلينا أن نتعامل مع هذه المناهج باستقلاليّة فكر ونظرة إنسانيّة، آخذين في الحسبان خصوصيّة تراثنا العربيّ؛ نحوه وبلاغته وأصوله؛ والّذي وضع على أسس معرفيّة وفكريّة خاصّة به، يختلف بها عن غيره، ومن ضمنها نظرته للبحث في اللّغة وطريقته في تحليل بنياتها؛ يقول الدّكتور عبد الرّحمان الحاج صالح: (النّحو العربيّ قد وضع على أسس إبستمولوجيّة مغايرة لأسس اللّسانيّات البنويّة وخصوصا في المبادئ العقليّة الّتي بنيت عليها تحليلاته، هذا وليس الاختلاف متوقّفا على هذا الجانب بل هناك أيضا اختلاف آخر في النّظرة إلى البحث باللّغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التّحليل)[3].

والقراءة الواعيّة للتّراث في ضوء المناهج الحديثة؛ والاطّلاع على ما وصل إليه غيرنا والاستفادة ممّا حقّقوه من إنجازات علميّة سبيل لكشف أسراره وإخراج كنوزه، الّتي تتوافر على أحكام يمكن تعميمها على اللّغات الإنسانيّة أكثر من النّظريّات الغربيّة، وإلى هذا دعا الكثير من الباحثين العرب؛ ومنهم الدّكتور أحمد المتوكّل الّذي يرى أنّ مبادئ الدّراسة اللّغويّة في الفكر العربي القديم تؤاسر بشكل أو بآخر المبادئ المنهجيّة الّتي تحكم الدّرس اللّغوي الوظيفي المعاصر[4]، أمّا التّطبيق الحرفي للنّظريّات الغربيّة ومناهجها فلا يصلح في ميدان الدّرس اللّغوي العربيّ وفي النّقد الأدبيّ، ففيه تعسّف، إذ لا يجوز أن ننسى أنّ لهذا التّراث خصائصه المستقلّة، ولكنّها (لا تبرّر الممارسات الإقصائيّة الّتي تجعل منه غير قابل

---

1. ينظر: حمودة؛ عبد العزيز، المرايا المقعّرة، نحو نظريّة نقديّة عربيّة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، مطابع الوطن، الكويت، 2001م، ص : 323.

2. ينظر: الرّاجحي؛ عبده، النّحو العربي والدّرس الحديث، (بحث في المنهج)، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1986م، ص: 160.

3. بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، ج: 1، ص: 213.

4. ينظر: المتوكّل؛ أحمد، اللّسانيات الوظيفيّة، (مدخل نظري)، ص ص: 49، 93.

للتّحاور العلمي المنصف مع معطيات العلوم المعاصرة، ولاسيما إذا توافرت لبعض مفاهيمها الكفاية العلميّة الوصفيّة والتّفسيريّة المناسبة لدراسة البعد التّواصلي الإبلاغي للظّواهر الخطابيّة للّغة العربيّة) [1].

5ـ ضرورة العلوم في التّحليل والتّفسير:

اللّغة أداة للتّفاعل الاجتماعي؛ لا يخلو منها مجال من مجالات الحياة، ممّا يؤكّد أنّه لا مناص من أن تتّصل بعلوم هذه المجالات، لتحقّق وظيفتها الأساسيّة الإبلاغيّة في المجتمع بكلّ مقوّماته، ولا يمكن فصل علوم اللّغة بعضها عن بعض ولا عن باقي العلوم الأخرى، فما أنجزه اللّغويّون العرب القدامى والمفسّرون وعلماء الأصول، ساهم فيه مختصّون في شتى ميادين المعرفة؛ من طبّ وكيمياء وفلك وجبر وهندسة ومنطق، كانوا يأخذون من كلّ فنّ لغوي وغير لغوي ويفيدون به القارئ، فيتطرّقون لقضايا لغويّة في الدّلالة والمعجم وفي البلاغة والنّحو والصّرف وفي علم الأصول، وعلوم أخرى منثورة في كلّ أجزاء التّفاسير، فطبيعة اللّغة تفرض قيام الاتّصال بين علم اللّغة والعلوم الأخرى الّتي تصنّف على أنّها علوم وسائل تساعد العلم المقصد [2]، و(الدّعوة إلى استقلال علم اللّغة، وشكليّته أثبتت عجزها عن فهم طبيعة اللّغة فهما صحيحا، ولا مناص من الاعتراف بضرورة الاستعانة بعدد من العلوم استعانة أساسيّة، وبخاصّة علم النّفس والرّياضة والفلسفة والنّقد الأدبي)[3]؛ وظاهرة التّكامل هذه تدلّ على أنّ الوظيفيّة العربيّة؛ لا يرى وجهها الأنصع، ولا تدرك حقيقتها، إلاّ إذا نظر إليها في إطارها الثّقافي العام ونسقها الكلّي الجامع لشتى العلوم العربيّة/ الإسلاميّة[4]، مثال ذلك تفسيرهم لكثير من ظواهر اللّغة؛ وخاصّة المقاميّة منها؛ كالقصر والتّخصيص، ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى ـ في آكلي الرّبا ـ: "ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ...﴿٢٧٥﴾ (البقرة)، فهو لون من جزائهم حين يقومون من قبورهم يوم الدّين، فيقصر قيامهم على هذا

1ـ صحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، ص: 8.

2ـ ينظر: الزّهري؛ نعيمة، الأمر والنّهي في اللّغة العربيّة، ص: 116.

3ـ الرّاجحي؛ عبده، النّحو العربي والدّرس الحديث، ص ص: 160، 161.

4ـ ينظر: صحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، ص: 51 وما بعدها/ والطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير، ص: 142.

المشهد الفريد والقيام الغريب، وهو قيام المتخبّط أو المجنون، ومن به داء الصّرع، وكان العرب ينسبونه إلى مسّ من الشّيطان، فهو مفزع مضطرب مذهوب به كلّ مذهب، لا تتحكم إرادته أو عقله في حركات أعضائه، والتشبيه وصف لمصدر محذوف أي إلاّ قياما كقيام الّذي يتخبّطه الشّيطان جزاء[1]، وقال الله تعالى: "وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ (البقرة)، جيء بأسلوب القصر في هذه الآية لتقريع وتوبيخ كلّ من يبتعد عن ملّة إبراهيم الحنيف، وللتّحذير من الوقوع فيما يدّعيه هؤلاء، وجيء بـ(من) الاستفهاميّة المتضمّنة لمعنى النّفي؛ لإنكار واستبعاد أن يكون في العقلاء من يرغب عن ملّته، الّتي هي الحقّ الصّريح والدّين القويم، فلا يرغب عنها إلاّ من سفه نفسه وأذلّها، واستخفّ بها، لأنّه إذا رغب عمّا لا يرغب عنه أحد من العقلاء؛ فقد بالغ في إذلال نفسه وإهانتها، حيث خالف بها كلّ نفس عاقلة[2]، والقصر بالاستفهام له مذاق خاصّ، ومقام معلوم، لأنّه يشرك المتلقّي في الوصول إلى الحكم أو المعنى تحقيقا للغرض، بإثارة طاقاته وتحفيزه على التّأمّل والتذوّق، وصولا إلى الإقناع الواضح في نفسه[3]، فقد جمعوا في تحليلاتهم الدّلالة بالنّحو والبلاغة والمعجم وأسباب النّزول والحياة الاجتماعيّة.

وما يؤكّد هذا التّكامل تأثّر كبار اللّغويين بعلماء من ميادين أخرى، فسوسير تأثّر بدوركايم، وبلومفيلد بالسّلوكيين، وتشومسكي بديكارت والعقليين، وهذا دليل على صحّة الاتّجاه العربي القديم حين اتّصل بالفقه والكلام والمنطق وعلوم العصر على العموم[4]، وبهذا يكون الكلام مؤثّرا ويتحقّق ما تفرضه البلاغة الّتي هي (العمدة في الاتّصال على اختلاف أنواعه وأشكاله)[5].

إنّ هذا المعنى الوظيفي كان مجال بحث لثلاثة اختصاصات من ثقافتنا العربيّة، بحسب حاجة أصحابها إلى المعنى التّركيبي هي؛ علم النّحو وعلم البلاغة، وأصول الفقه، (وكان المفروض أن يكون

---

1. ينظر: دراز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص ص: 70، 71.
2. ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج: 1، ص: 261.
3. ينظر: دراز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ص: 155.
4. ينظر: الرّاجحي؛ عبده، النّحو العربي والدّرس الحديث، ص: 161.
5. عبد الرّحمان؛ الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، ج: 1، ص: 184.

علم النّحو صاحب الاختصاص الوحيد في البحث عن المعنى النّحوي، بحيث يبني الاختصاصان الآخران حاجتهما في تأسيس قواعد الأسلوب البليغ لأداء المعنى، وقواعد استنباط الحكم من فهم مدلول النصّ، على نتائج بحث النّحاة)[1].

ويمكن القول أنّ ما بحثه النّحاة يمكن تسميّته بـ(نحو الإعراب)، وما بحثه الأصوليّون نسمّيه (نحو الدّلالة)، في مقابل ما بحثه البلاغيّون نسمّيه (نحو الأسلوب)[2]، و(نحو الإعراب) يجب أن يكون فصلا من فصول الدّرس النّحوي، وليس هو كلّ الدّرس النّحوي، فهو ليس المعنى النّحوي، بل علامة على أنّ الكلمة تحمل معنى نحويّا خاصّا؛ كالفاعليّة، ولغات العالم كلّها ذات طبيعة نحويّة مع أنّ أكثرها لا تعرب أواخر كلماتها، فكانوا يبحثون في طرائق التّأليف وقواعد ربط المفردات في جمل، ليؤدّي المعنى العام للجملة أغراض المتكلّمين ومقاصدهم طبقا لما يقتضيه المقام وحال المخاطب،ولابدّ أن يكون لهذا الرّبط أدوات وصيغ وتراكيب تستخدمها كلّ لغة، بحسب طبيعتها وحركيّة أصواتها، وفي كلّ لغة (دوالّ ماهيّة)؛ وهي موادّ اللّغة المعجميّة، و(دوالّ نسبة)؛ وهي ما يطرأ على هذه الموادّ في أثناء تركيبها؛ من تقديم وتأخير وصيغ ولواحق وزوائد وعلامات، وأدوات نحويّة (وهي كلمات فارغة) من المضمون المعجمي، ولكنّها حين توصل بغيرها تعطي مضمونها النّسبي الرّابط [3]، كالبنية: ما وإلاّ، وإنّما، وال التّعريف، والأفعال الّتي تفيد النّفي.... والّتي حدّدت أسلوب القصر، والبحث في دلالة (دوالّ النّسبة) على المعاني النّحويّة المختلفة هو النّحو، وهو ما بحثه الأصوليّون، وهو ما يدعو النّحو الوظيفي إلى دراسته والبحث فيه.

1ـ مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، ص: 9.

2ـ ينظر: المرجع السّابق، ص ص: 12، 13.

3ـ ينظر: مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، ص ص: 298، 299.

تعدّ نظريّة النّحو الوظيفي نظريّة ذات فائدة لسانيّة هامّة؛ فقد نجحت في استقطاب كثير من الباحثين الّذين تبنّوا مبادئها، واهتمّت بتغطيّة جوانب أساسيّة في الظّاهرة اللّغويّة، وسدّت ثغرات خلّفتها النّظريّات اللّسانيّة غير الوظيفيّة في جوانب حيويّة كالكلام، وسياق الحال، وملابسات الخطاب...، وإدراج ذلك كلّه ضمن وصف الظّواهر اللّغويّة وتفسيرها.

ويقع مبدأ «علاقة البنية بالوظيفة» الّذي صاغته نظريّة النّحو الوظيفي في موقع متميّز، إذ يعدّ أقوى المبادئ الإجرائيّة حضورا في الممارسة التّطبيقيّة، وتطبيق هذا المبدأ على مختلف اللّغات أثّر في مسار الدّراسات اللّغويّة، بما فيها اللّغة العربيّة، واستثماره في دراستها يسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابيّة التّواصليّة، ويكشف جهود العلماء القدامى الّذين نحوا في دراساتهم منحى وظيفيّا ـ صراحة أو ضمنا ـ وبذلك يكون أداة ومفتاحا لقراءة وفهم التّراث العربي.

ومعرفة خصائص البنية يساعد كثيرا المتلقّي على الوصول إلى المعنى المقصود إبلاغه، وهذه البنية لا تعني شكل الجملة فقط، بل هي ذلك النّظام الدّاخلي البنيوي أيضا الّذي يحكمها ويعكس العلاقة القائمة بين مكوّناتها، وذلك النّظام الّذي يربطها بالعالم الخارجي ويسمح لها بالتّفاعل مع مختلف الظّروف، فيجعلها تتّخذ شكلا أوسع يفوق السّياق الّذي توجد فيه.

ومن أشهر ظواهر اللّغة الّتي تعكس حقيقة مقولة: تبعيّة البنية اللّغويّة ـ في صرفها ومعجمها ونحوها ـ للوظيفة المنوطة بها، ظاهرة القصر والتّخصيص، الّتي تتّخذ بنياتها أشكالا مختلفة تلائم المقام والأغراض والوظائف المناسبة لها.

والنّاظر لتحليلات وتفسيرات النّحويين والبلاغيين والأصوليين يظهر له ذلك جليّا، وخاصّة الأصوليين الّذين تفوّقوا على غيرهم في دراستها وكشف أسرارها، لأنّهم وسّعوا نطاق البحث فيها، ونظرتهم تتلاقى مع نظريّة النّحو الوظيفي المعاصر بجانبيه؛ البنيوي والتّداولي، والّتي تدعو إلى دراسة المعنى والتّراكيب بمراعاة مستويات اللّغة مجتمعة مع أسبقيّة الجانب التّداولي على الجانب التّركيبي والدّلالي، وأيّ إهمال لأحدها يوقع في الخطأ والابتعاد عن المعنى المقصود من وراء العبارة اللّغويّة.

ورغم ما يؤالف بين بنيات القصر في كونها أنماطا مقاميّة؛ إلاّ أنّها ليست مترادفة يحلّ بعضها محلّ بعض في نفس الطّبقة المقاميّة، فكلّ بنية أو نمط يستعمل في طبقة مقاميّة تخالف الأخرى، وتحقّق غرضا تخاطبيّا يباين الأغراض الّتي تُحَقّقُ بواسطة البنيات والأنماط الأخرى، وهذا المبدأ الوظيفي هو ما جعل المتوكّل يعيد النّظر في أنواع البؤر، وتوسيعها لتضمّ بؤرا تتيح التّمييز بين مختلف التّراكيب وتقضي بعدم التّرادف التّداولي بين العبارات اللّغويّة المتباينة بنيويّا، إذ إنّ كلّ نمط مقالي معيّن يطابق نمطا معيّنا من المقامات والأغراض.

ومن أهمّ النّتائج الّتي وصل إليها هذا البحث:

ـ دراسة الحصر والقصر في القرآن الكريم، تساعد على فهم النصّ في مستوياته اللّغوية المتعدّدة ـ النّحوية، والصّرفية، والبلاغيّة والّتي ترشد إلى فهم المتكلّم ومقاصده العليا بقرائن نصيّة ولفظيّة.

ـ الحصر والقصر أسلوب بلاغي، وضرب من ضروب الإيجاز الذي هو أعظم ركن من أركان البلاغة، والّذي يحدّد المعاني تحديداً كاملاً لتتبين الأسرار في استخدام التّراكيب والأدوات والفرق بين كلّ أداة، ولماذا استخدمت في موضع ولم تستخدم في موضع آخر؟

ـ القصر يعطي كذلك مساحة واسعة للتّعبير عن المعنى؛ ولا يكون المعنى متماثلا البتّة، فتختلف الواحدة عن الأخرى شيئا من الاختلاف؛ قليلا أو كثيرا، و إن كانت كلّها يجمع بينها إطار واحد؛ نحو: إنّما أنت شاعر / ما أنت إلاّ شاعر / شاعر أنت/ أنت هو الشاعر/ شاعر أنت لا كاتب/ أنت شاعر لا كاتب... (فيفسح المجال للخيارات التّعبيريّة).

ـ لأسلوب الحصر والقصر سمة أسلوبيّة بالغة الأثر في معرفة خواصّ تراكيب الكلام، ويكشف فاعلية السّياق والمواقف الوجدانيّة الّتي ترتبط بها هذه الصّور، وتصوير شخصيّات المشهد في صورة حضورية واضحة، تبيّن ما عليها من شدّة أو لين، أو رحمة أو غضب، أو اضطراب أو هدوء، أو إيمان أو نفاق، ونحو ذلك.

ـ لأسلوب الحصر والقصر سمة التغلغل والانتشار في كافة سياقات القرآن ـ تقريباً ـ وكان له دور بارز في آيات الأحكام وأساليب الحوار.

ـ الصّلة وشيجة بين النّحو والعلوم اللّغويّة وغير اللّغويّة في النّحو الوظيفي لفهم الظّاهرة اللّغويّة، والفصل بينها مضرّ به، فالنّحو ليس تتبّعا للحركة الإعرابيّة، بل وظيفته الأساسيّة إبراز الفروق بين المستويات التّداوليّة للتّراكيب بحسب الأنماط المقاميّة الّتي ترد فيها. وقد أكّد عبد القاهر هذه الصّلة بين النّحو وعلم المعاني، لذلك جمع بينهما معرفيّا وإجرائيّا في إطار واحد.

ـ جمع الأصوليّون بين الإجراء البنيوي والإجراء الوظيفي، فدرسوا النّصوص الشّرعيّة من خلال النّظام ومقتضى الحال والمقام وملابسات الخطاب، فغرضهم دراسة المعاني الوظيفيّة للنّصوص القرآنيّة.

ـ تحليل القدامى لظواهر لغويّة كالقصر تحليلا بنيويّا تركيبيّا تداوليّا يؤكّد علاقة البنية بالوظيفة، وإصرارهم على أنّ البنى التّركيبيّة تابعة للوظيفة التّواصليّة، والظّواهر الّتي عالجوه لا تعدو أن تكون أغراضا وغايات تواصليّة يسعى المتكلّم إلى تحقيقها.

ـ الظّواهر الّتي درسها القدامى ـ بلاغيّون وأصوليّون ـ هي بلغة المعاصرين «أفعال الكلام»، فالمقصود بها تخصيص الخطاب أو تنبيه المخاطب أو التّأكيد أو النّداء أو الإغراء أو التّحذير أو التّنبيه....

ـ لم يكن القدامى بعيدين عن روح الدّرس الوظيفي المعاصر، وهذا لا يعني تطابق التصوّرات والمبادئ، فالإطار المعرفي والابستيمولوجي للمنظومة العربيّة يختلف عن الغربيّة في المنطلقات والأغراض.

ـ كلّ هذا يشجّع على إعادة النّظر في كيفيّة دراسة النّحو، وإمكانيّة دمج بعض أبوابه المتقاربة، إذ يمكن ضمّ التّراكيب المقاميّة في زمرة واحدة على أساس أنّ هذه الأنماط تستخدم جميعها وسائل لتعديل معتقدات المخاطب.

ـ يقف الاستخدام الوظيفي وراء تفسير كثير من ظواهر اللّغة؛ العربيّة وغير العربيّة، فمستخدم اللّغة يلجأ إليها للتّعبير بها عن مقاصده، وإفهام المخاطب غرضه.

ـ للجانب الوظيفي دور في دراسة وتعليم اللّغة، فالمعنى ينتج عن اتّحاد المعنى الحرفي للألفاظ والتّراكيب والاستخدام الوظيفي لها، وإهمال أحدهما من شأنه إحداث لبس لدى المتلقّي، وخاصّة في التّرجمة، إذ يؤدّي إلى نتائج غير موفّقة، فلابد من الاهتمام بالمعنى المعجمي والاستعمال الوظيفي التّداولي للعبارات.

للبعد الخطابي التّداولي أهميّة بالغة في تفسير النّصوص القرآنيّة وربطها بمقاماتها الخارجيّة وهي أسباب نزولها، وللمفسّرين تحليلات تداوليّة في ثنايا تفاسيرهم من خلال وقوفهم على العلاقات الدّاخليّة في النصّ، وإقامة التّفاعل بين النصّ وسياقاته الخارجيّة.

وهذا يشجّع على إعادة النّظر وإمكانيّة إقامة حوار وتقارب بين الدّراسات العربيّة والغربيّة.

وفي الأخير ألتمس العذر عن كلّ خطأ أو سهو أو تقصير، وآمل أن أتدارك نقائص هذا البحث في مستقبل الأيّام، وفّقنا الله سبحانه وتعالى لما يحبّه ويرضاه وتجاوز عنّا في كلّ خطأ أو زلل، وصلّى الله على محمّد وآله الأطهار وصحبه الأخيار وسلّم تسليما كثيرا.

ملحق :

ـ إحصاء آيات القصر:

أ ـ إحصاء وفق حقول دلاليّة :

مع العلم أنّه تمّ التّركيز على الآيات الّتي تقاربت مواضيعها ، وفق الحقل الدّلالي المناسب كما ذكرها علماء البلاغة والأصول والتّفسير، ولم تذكر كلّ آيات القصر الموجودة في القرآن الكريم ، والّتي تحتاج إلى بحث آخر ، ومن تلك الحقول :

ـ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين الإنذار والتّبليغ والتّذكير:

قال الله سبحانه وتعالى : "قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿الأنعام﴾، "أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴿ الأعراف﴾، "...وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿ الأعراف﴾، "...قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ .... ﴿١٥﴾ ﴿ يُونُس﴾، "فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴿ هُود﴾، "وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ ﴿٧﴾ ﴿الرَّعۡد﴾، "وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴿ العَنكَبُوت﴾، "۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ ﴿سبأ﴾، "...إِنَّمَا

تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ...﴿١٨﴾ ﴿فاطر﴾، "..... وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴿فاطر﴾، "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴿يس﴾، "قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴿ص﴾، "مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٠﴾ ﴿ص﴾، "قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ ﴿الأحقاف﴾، "قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ ﴿الملك﴾، "إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴿النازعات﴾.

ـ صفة البلاغ:

يقول سبحانه وتعالى في نفي صفة الهداية وما هو من سبيلها: "وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴿الرعد﴾، "وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴿النحل﴾، "قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴿النور﴾، "وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴿العنكبوت﴾، "وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴿يس﴾.

ويقول سبحانه في نفي صفة الحساب والعقاب: "...فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴿المائدة﴾، "فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴿النحل﴾،"فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ

فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ...﴿٤٨﴾ ﴿الشورى﴾، "وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴿التَّغَابُن﴾.

ـ كما جاء التّذكير في آية واحدة: "فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴿الْغَاشِيَة﴾، والتّذكير بمعنى تكرار الذّكر بمضمون الرّسالة.

ومن شواهد قصر الإفراد التّنزيلي؛ قوله تعالى: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ ...﴿١٧٣﴾ ﴿البقرة﴾، "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴿آل عمران﴾.

ـ القرآن الكريم بلاغة ورسالة:

القرآن الكريم وما جاء به من وحدانيّة الله تعالى وصفات كماله، والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، وسائر قضاياه، جاء في أسلوب معجز تحدّى العرب ـ وهم أولو البيان ـ ببلاغته أن يأتوا ولو بمثل سورة من سوره، غير أنّهم أبلسوا وعجزوا ولم يتّفقوا على كلمة سواء، لأنّ قهر النّظم القرآني كان غلاّبا؛ فهم يقولون؛ كما جاء في القرآن الكريم: "...إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴿الإسراء﴾، "بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴿الأنبياء﴾، "إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ ... ﴿٢٥﴾ ﴿الْمُؤمِنُون﴾، "لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴿الْمُؤمِنُون﴾، "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ... ﴿٤﴾ ﴿الْفُرْقَان﴾، "مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴿ص﴾، "إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴿الْمُدَّثِّر﴾، إلى غير ذلك.

وما نفاه المشركون عن القرآن ورسوله هو ما حقّقه القرآن الكريم، لينا وعنفا حسب المواقف، نحو قوله تعالى: "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴿البقرة﴾، "إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ ...﴿٦٢﴾ ﴿آل عمران﴾، "...إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴿الأنعام﴾، "حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ...﴿١٠٥﴾ ﴿الأعراف﴾، "فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ...﴿١٤﴾ ﴿هود﴾، "...إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴿يوسف﴾، "إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ... ﴿٩﴾ ﴿الإسراء﴾، "وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴿الفرقان﴾، "هَٰذَا هُدٗىۖ ...﴿١١﴾ ﴿الجاثية﴾، "هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ...﴿٩﴾ ﴿الصف﴾.

ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدعا من الرّسل فقد تشابهت مواقف الكفّار من رسلهم؛ من نحو قولهم عن آيات عيسى عليه السّلام: "فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ ﴿المائدة﴾، وعن نوح عليه الصّلاة والسّلام: "إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ ..﴿٢٥﴾ ﴿المؤمنون﴾، وعن شعيب وهود عليهما السّلام: "قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾، "قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴿الشعراء﴾، وعن موسى عليه السّلام: "..قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ﴿النمل﴾.

ـ بشريّة الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام:

ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى: "فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا ...﴿٢٧﴾ ﴿هود﴾، "...قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ... ﴿١٠﴾ ، "...قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴿إبراهيم﴾، "قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ...﴿١١﴾ ﴿إبراهيم﴾،

"...مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴿يُوسُف﴾، "...قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴿الإسراء﴾، وقال الله سبحانه وتعالى: "وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴿الإسراء﴾، "قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴿١١٠﴾ ﴿الكَهْف﴾، "...وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ...﴿٣﴾ ﴿الأنبياء﴾، "...مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿المُؤمِنُون﴾، "...مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ...﴿٢٤﴾ ﴿المُؤمِنُون﴾، "مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴿الشُّعَرَآء﴾، "وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴿الشُّعَرَآء﴾، "قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴿يس﴾، "قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴿فُصِّلَتْ﴾، "فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴿القَمَر﴾.

ـ الكفر صفات وجزاء:

الكفار والمنافقون من ملّة واحدة لهم صفات لازمة في القرآن الكريم، هي صفاتهم في الواقع من المكر والظّلم والخداع والإضلال لإهلاك المؤمنين، وأكّد القرآن أنّها لا تصيب المؤمنين، بل ترتدّ عليهم، كقوله تعالى: " يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴿البقرة﴾، "وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿البقرة﴾، وقد تكرّر هذا التّعبير في الأعراف؛ الآية 160، والتّوبة؛ الآية:70، "...وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴿آل عمران﴾، "مَثَلُ

مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿آل عمران﴾، "وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿الأنعام﴾.

ـ متقابلات :

ومنها قصر التّكليف من الله تعالى للنّفس على وسعها وطاقتها، وقد جاء التّعبير خمس مرّات: ثلاثا بنون العظمة: "...لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ...﴿١٥٢﴾[1]، ومرّة بلفظ الجلالة: "لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ...﴿٢٨٦﴾ ﴿البقرة﴾، ومرّة بالبناء للمجهول إحالة على التّعبيرات السّابقة لتعيّن الفاعل سبحانه: "...لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ...﴿٢٣٣﴾ ﴿البقرة﴾، وقريب من هذا الأسلوب قوله تعالى: "...لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ...﴿٧﴾ ﴿الطّلاق﴾.

ومنها قصر الفعل على القلّة مصدرا أو زمانا تعقيبا على حدث محدود في زمن يسير، وقد كثر في الذمّ كقوله تعالى: "...يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴿النّساء﴾، "يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴿الإسراء﴾، "يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴿طه﴾، "قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ ﴿

1ـ الآيات من: الأنعام: 152، الاعراف: 42، المؤمنون: 62.

الأحزاب﴾، " قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٨﴾ ﴿الأحزاب﴾، "...وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢٠﴾ ﴿الأحزاب﴾.

ـ المشركون والظنّ الباطل:

قوله سبحانه وتعالى: "وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴿الأنعام﴾، "سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴿الأنعام﴾، "إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ ...﴿٢٣﴾ ﴿النّجم﴾.

وقد جاء الظنّ منفردا عن الخرص، والخرص كذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: "وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿الزخرف﴾، "وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴿الجاثية﴾، فجعلهم الملائكة بنات الله إغراق في الكذب فناسب الخرص، وخلطهم الصّدق بالكذب ناسبه الظنّ بمعنى الشكّ[1].

1ـ درّاز؛ صباح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 114.

ـ مادّة الجزاء في تراكيب القصر القرآنيّة :

جاءت منها خمس عشرة آية[1] ، والملاحظ :

ـ جاء في أربعة عشر أسلوبا تعقيبا على جزاء يقع في الدّنيا ، أو يقع في الآخرة وزمان الجملة دنيوي ، وكلّها خاصّة بالسيئ من العمل ، وقد تنوّعت صياغتها زمانا وأداة نفي وسياقا ، وكثر مجيئه من الله تعالى ترهيبا وقلّ من الملائكة يوم القيامة تأنيبا وتعذيبا نفسيّا للكافرين[2]؛ منها :

قوله تعالى : "...أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿البقرة﴾، "إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ...﴿٣٣﴾ ﴿المائدة﴾، "...قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴿يُوسُف﴾، "ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴿سبأ﴾، "...وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿سبأ﴾.

وقريب منها قوله تعالى في آيات يتعانق فيها التّرغيب مع التّرهيب : "مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴿الأنعام﴾، "ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿يُونُس﴾، "مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ

1ـ ينظر : محمّد؛ فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطبعة دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، 1364هـ ، في المادّة (ج ، ز ، ى)، ص : 169.

2ـ ينظر : درّاز؛ صباح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم ، ص : 158.

﴿٨٤﴾ ﴿القصص﴾، "مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿غافر﴾.

وقريب منها قوله تعالى: "وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴿النمل﴾، "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴿التحريم﴾.

وجاء أسلوب واحد خاصّ بطائفة عاليّة من المؤمنين؛ هم الخائفون من مقام ربّهم ؛ قال تعالى ـ في سياق يصف فيه النّعيم: "هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴿الرحمن﴾.

ـ النّفي الضّمني والاستثناء:

والمراد بالنّفي الضّمني أن يكون في مادّة الفعل معنى النّفي، ومنه الفعل أبى؛ كقوله تعالى: "يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿التوبة﴾، "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴿الإسراء﴾[1]، " أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴿الإسراء﴾، "وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴿الفرقان﴾.

وقد يدلّ الأسلوب على النّفي دون فعل؛ كقوله تعالى: "قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ...﴿٦٦﴾ ﴿يوسف﴾، ومعنى الآية: لن أرسله معكم حتّى تقسموا لا تمتنعون من الإتيان به في كلّ حال إلاّ حال كونه محاطا بكم أو إلاّ لعلّة الإحاطة أو زمانها.

1ـ ومثلها الآية: 50 من سورة الفرقان.

ومنه قوله تعالى عن قوم طالوت وقد ذهبوا لقتال جالوت فقال لهم: "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ...﴿٢٤٩﴾ ﴿البقرة﴾، والمعنى: فلم يطيعوه، "وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴿البقرة﴾، تأويلها هنا: لا تسهل.

ـ قضيّة الوحدانيّة في أساليب القصر:

والوحدانيّة في مقدّمة القضايا الكبرى الّتي نزل القرآن لترسيخها في العقول والقلوب بكلّ طرق الأداء، ومنها طرق القصر في معارض شتّى وفق نظام السّورة وسياق المقام.

قال سبحانه وتعالى: "وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴿البقرة﴾، "...إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ...﴿١٧١﴾ ﴿النّسآء﴾، "لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴿المائدة﴾، "...قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴿الأنعام﴾، قال سبحانه وتعالى: "...ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ...﴿٥٩﴾ ﴿الأعراف﴾؛ تسع مرّات[1]، "وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴿النّحل﴾، "إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴿طه﴾، "قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴿الأنبياء﴾، "قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴿ص﴾.

---

1. في سورة الأعراف: الآيات: 59، 65، 73، 85، وسورة هود: الآيات: 50، 61، 84، والمؤمنون: الآيتان: 23، 32، وينظر: محمّد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 38، وما بعدها.

ـ شهادة التّوحيد:

تنوّع فيها المقصور عليه لفظا بين الله باسم الجلالة أو ضمير المتكلّم سبحانه أو المخاطب أو الغائب سبحانه في سبعة وثلاثين أسلوبا قرآنيا؛ اقتضاها المقام[1]، قال تعالى: "ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَیُّ ٱلۡقَیُّومُ ۝٢ ﴿آل عمران﴾، "هُوَ ٱلَّذِی یُصَوِّرُكُمۡ فِی ٱلۡأَرۡحَامِ كَیۡفَ یَشَآءُۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِیزُ ٱلۡحَكِیمُ ۝٦ ﴿آل عمران﴾، "كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَـٰكَ فِیٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَا۟ عَلَیۡهِمُ ٱلَّذِیٓ أَوۡحَیۡنَآ إِلَیۡكَ وَهُمۡ یَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَـٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّی لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَیۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَیۡهِ مَتَابِ ۝٣٠ ﴿الرّعد﴾، "یُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن یَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴿النّحل﴾، "إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِی لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَیۡءٍ عِلۡمَا ۝٩٨ ﴿طه﴾، "وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِیٓ إِلَیۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥ ﴿الأنبياء﴾، "ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِیمِ ۝٢٦ ﴿النّمل﴾، "وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَیۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَیۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٨ ﴿القصص﴾، "یَـٰٓأَیُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَیۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَـٰلِقٍ غَیۡرُ ٱللَّهِ یَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ ﴿فاطر﴾، "إِنَّهُمۡ كَانُوٓا۟ إِذَا قِیلَ لَهُمۡ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ یَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ ﴿الصّافّات﴾.

كما جاءت صيغة تقرب من شهادة التّوحيد؛ قوله تعالى: "إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِیزُ ٱلۡحَكِیمُ ۝٦٢ ﴿آل عمران﴾.

1ـ ينظر: محمّد؛ فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 38 وما بعدها.

"ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴿النِّسَآء﴾، "فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُون﴾.

وشهادة التّوحيد يكثر مجيئها في مقامات شديدة قويّة ، فقد جاءت فيما يقرب من أربعة وعشرين أسلوبا من بين سبعة وثلاثين؛ عدد شهادة التّوحيد في القرآن الكريم ، كما جاء اسم الحيّ أو ربّ مضافا عددا قليلا[1] ، وفي هذا المقام يسبقها لفظ الجلالة وبعض أسمائه الحسنى بما يناسب السّياق.

ـ كما جاءت في سياقات تذكر بعض آيات الله الكونيّة أو أسرار خلقه ، قال الله تعالى : "ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ۚ ...﴿٢٥٥﴾ ﴿البقرة﴾، "شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴿آل عمران﴾، "بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٞ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴿الأنعام﴾، "ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴿الأنعام﴾، "قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ۖ ...﴿١٥٨﴾ ﴿الأعراف﴾، "فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴿هود﴾، "فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴿التوبة﴾، "وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴿طه﴾، "وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ

1ـ ينظر: محمّد؛ فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص: 38.

إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿الأنبياء﴾، "خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَـٰتٖ ثَلَـٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴿الزمر﴾، "ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿غافر﴾، "هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ...﴿٦٥﴾ ﴿غافر﴾، "فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِۗ ...﴿١٩﴾ ﴿محمد﴾، "هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿الحشر﴾، "ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴿التغابن﴾، "رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ ﴿المزمل﴾.

- الرّزق:

جاء بأساليب كثيرة؛ منها القصر، كقوله تعالى: "وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَـٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴿هود﴾، "إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴿هود﴾، "ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ...﴿٢٦﴾ ﴿الرعد﴾، "وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴿الحجر﴾، "...لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ...﴿١٣٢﴾ ﴿طه﴾، "أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ...﴿٦٤﴾ ﴿النمل﴾، "... هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ...﴿٣﴾ ﴿فاطر﴾، "وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴿الذّٰريٰت﴾.

ـ الغيب:

قال تعالى: "...وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ...﴿١٠٢﴾ ﴿البقرة﴾، "وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴿الأنعام﴾، "وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٧٥﴾ ﴿النمل﴾، "۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ...﴿٤٧﴾ ﴿فصّلت﴾.

ـ القصر على الحال:

للحال شأن في القرآن الكريم وبخاصّة في الاستثناء، وأحوال البشر اللاّزمة أو المتغيّرة مطلب قرآني، ولتعديلها أو حثّا عليها وإقرارها في جانب المؤمنين، أورفضها وإنكارها تعجيبا أو ذمّها في جانب الكافرين، تنوّعت صياغاتها؛ فقد تجيء بالقصر[1]، كقوله تعالى: "وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴿البقرة﴾، "مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴿البقرة﴾،"وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴿الأنعام﴾، "وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿الأعراف﴾

---

1. ينظر: محمّد؛ فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ج: 36، ص: 392/ وصباح عبيد دراز، أساليب القصر في القرآن الكريم، ص: 209.

"قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴿٣٧﴾؛ "وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴿يُوسُف﴾، "وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ ﴿الحِجر﴾، "مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴿الأنبياء﴾، "وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿الدخان﴾، "مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴿ق﴾، "وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ ﴿الإنسَان﴾.

ـ تذكّر أولي الألباب:

جاء تذكّر أولي الألباب بإنّما مرّتين في القرآن الكريم:

في قوله تعالى: "أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴿الرَّعْد﴾، "أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴿الزمر﴾.

وتذكّر أولي الألباب بالنّفي والاستثناء: جاء كذلك في آيتين؛

قال الله تعالى: "يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴿البقرة﴾، "...وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴿آل عمران﴾.

ـ استجابة من يسمع :

قال الله سبحانه وتعالى : "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿الأنعام﴾، "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴿النمل﴾[1].

ـ الحياة الدّنيا وأساليب القصر والتّشبيه :

الحياة الدّنيا وزوالها السّريع ومتاعها القليل، قضيّة قدّمها القرآن في معارض عديدة من الألوان البلاغيّة، وجاءت في معرض إنّما والتّشبيه في ثلاث آيات :

قوله تعالى: "إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿يونس﴾، "إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴿محمّد﴾، "ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴿الحديد﴾.

1ـ وجاءت الآيتان بذات المعنى في سورة الرّوم بالفاء «فإنّك» ، الآيتان : 52، 53.

ـ أساليب النّفي والاستثناء في قصر الدّنيا :

جاء بها قصر الدّنيا على اللّعب واللّهو في قوله تعالى: "وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿الأنعام﴾، "وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴿العنكبوت﴾.

ـ متشابهات القصر بضمير الفصل :

قال الله تعالى: "ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴿الشعراء﴾، "وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴿النّجم﴾.

وقوله تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴿الحج﴾، وقوله تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴿لقمان﴾.

وقول الله تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ ﴿٥١﴾ ﴿آل عمران﴾، وقوله سبحانه: "وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴿٣٦﴾ ﴿مريم﴾، وقوله تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ ...﴿٦٤﴾ ﴿الزخرف﴾.

ضمير الفصل وتعبير « الفوز العظيم » :

جاء التّعبير القرآني: "وذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ" بالواو وبدونها، وبضمير الفصل وبدونه، في دقّة متناهيّة متلائمة مع السيّاق، وجاء تذييلا مقرّرا رحمة الله تعالى للمؤمنين بدخولهم الجنّة، "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴿التوبة﴾، وقريب منها:

"يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴿الحديد﴾، وقوله سبحانه وتعالى: "إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴿الصّافّات﴾، "وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴿غافر﴾، ولسورة التّوبة وضع خاصّ معجز، فهذا التّعبير جاء في أربعة مواطن[1]، وفي في سورة يونس: "لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾.

ـ صفات الله تعالى وضمير الفصل:

تختم الآيات في القرآن الكريم غالبا بذكر بعض أسماء الله تعالى، تذييلا مناسبا ملائما لما سبق الآية، وهذا السّابق هو أثر من آثار الصّفات اللاّحقة، كقوله تعالى: "إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴿المائدة﴾، "فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴿هود﴾، "لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴿الأنعام﴾، "لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴿الحديد﴾، "قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴿الزمر﴾.

1ـ في الآيات: 72، 89، 100، 111.

ـ آيات في النّعيم والعذاب يوم القيامة:

في الجانب الأوّل جاء قول الله سبحانه وتعالى: "جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَـٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ ﴿مَرۡيَم﴾، "لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَـٰمٗا سَلَـٰمٗا ﴿٢٦﴾ ﴿ٱلۡوَاقِعَة﴾.

وأمّا ما يتعلّق بعذاب أهل النّار ـ أعاذنا الله منها ـ قوله تعالى: "وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴿ٱلۡحَآقَّة﴾، "لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ ﴿ٱلنَّبَإ﴾، "لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾ ﴿ٱلۡغَـٰشِيَة﴾.

ـ الفعل زاد وأسلوب القصر بالاستثناء:

الفعل زاد في القرآن الكريم ذو شأن متنوّع في أساليب القصر، فقد جاء في مدح المؤمنين، ووصفهم بما هو خير، قال الله تعالى: "وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَـٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ ﴿الأحزاب﴾، وهي الآية الوحيدة الّتي جاء الفعل زاد في أسلوب القصر في جانب المؤمنين.

كما جاء كثيرا في جانب الكافرين من كلّ الأمم على طريق القصر، واستأثرت قصّة نوح عليه الصّلاة والسّلام بعديد من هذه الأساليب تلاؤما مذهلا مع قصّة الدّعوة الطّويلة من نوح[1]، "قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ ﴿نُوح﴾، "قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ ﴿نُوح﴾، "وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلٗا ﴿٢٤﴾ ﴿نُوح﴾، "...وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ﴿٢٨﴾ ﴿نُوح﴾.

1ـ أساليب القصر في القرآن الكريم، وأسرارها البلاغيّة، ص: 56.

بـ- جدول إحصائي لآيات القصر في القرآن الكريم:

السّورة	القصر بإنّما	القصربالنّفي والاستثناء	بضميرالفصل وتعريف الجزءين
البقرة	11، 14، 102، 173،169، 275.	9، 26، 32، 78، 80، 83، 85، 99، 111،102، 114، 130، 132، 143، 163، 174، 210، 213، 229، 233، 235، 255، 269، 272، 275، 286.	5، 12، 13، 27، 32، 54، 121، 127، 128، 129، 137، 144، 149، 157، 177، 229، 254، 255.
آل عمران	155، 175، 178.	2، 6، 7، 18، 19، 24، 41، 62، 64، 65، 69، 73، 102، 111، 126، 135، 144، 145، 147، 185.	10، 35، 51، 62، 82، 90، 94، 104.
النِّسَآء	10، 17، 171.	46، 62، 64، 66، 84، 87، 92، 113، 117، 120، 142، 155، 159، 171.	13، 151، 157، 171.
المائدة	27، 33، 49، 55، 90، 91، 92.	25، 59، 73، 75، 99، 110، 117.	17، 44، 45، 46، 47، 56، 72، 78، 82، 109، 116، 117، 118، 119.
الأنعَام	19، 36، 109، 156، 159.	4، 7، 17، 23، 25، 26، 29، 32، 38، 47، 48، 50، 57، 59، 90، 102، 106، 111، 116، 123، 138، 145، 148، 152، 158، 160، 164.	1، 2، 3، 13، 18، 45، 60، 61، 65، 66، 71، 73، 77، 90، 95، 98، 102، 103، 115، 117، 119.
الأعرَاف	33، 131، 173، 187، 203.	20، 42، 53، 82، 94، 99، 105، 126، 147، 155، 158، 169، 184، 187، 188.	8، 87، 92، 143، 157، 178، 179.
الأنفَال	2، 28، 41.	10، 31، 34، 35.	4، 32، 37، 61، 74.
التوبة	18، 28، 37، 45، 55، 60، 65، 85، 93.	18، 31، 32، 38، 47، 51، 52، 54، 74، 79، 107، 110، 114، 118، 120، 121، 129.	10، 20، 23، 30، 36، 40، 63، 67، 69، 72، 88، 89، 100، 104، 111، 118.
يُونُس	20، 23، 24.	3، 5، 15، 19، 32، 36، 45، 49، 52، 61، 66، 72، 83، 90، 100، 102، 107.	3، 10، 32، 64، 65، 68، 107.
هُود	12، 14، 33.	2، 6، 7، 14، 16، 26، 29، 36، 40، 50، 51، 54، 56، 63، 88، 104، 105، 109.	19، 22، 34، 66، 87.
يُوسُف	86.	25، 31، 40، 64، 66، 67، 68، 76، 81، 87، 104، 106، 109.	34، 37، 83، 90، 98، 100.
الرَّعْد	7، 19، 36.	14، 26، 30، 38.	16، 30.
إبْرَاهِيم	42، 52.	4، 9، 10، 11.	4، 18، 39.
الحِجْر	15.	4، 8، 11، 21، 56، 85.	9، 25، 49، 50، 86.
النَّحْل	40، 51، 92، 95، 100، 101، 103، 105.	2، 7، 33، 35، 43، 64، 77، 79، 127.	60، 75، 92، 95، 105، 108، 109.

	124.		
الإسراء		23، 33، 34، 41، 44، 47، 52، 59، 60، 64، 76، 82، 85، 89، 93، 94، 99، 102، 105.	1.
الْكَهْف	110.	5، 16، 22، 39، 49، 55، 56، 63.	
مَرْيَم	19، 84.	62، 64، 71، 93.	34، 36.
طه	69، 72، 90، 98.	8، 14، 98، 103، 104، 108.	68، 88.
الأنبياء	45، 108.	2، 3، 7، 25، 28، 36، 87، 107.	4، 36، 64، 112.
الْحَج	49.		6، 11، 12، 40، 62، 64.
الْمُؤمِنُون	55، 115.	24، 25، 33، 37، 38، 62، 83، 114، 116.	7، 10، 52، 12، 111.
النُّور	51، 62.	3، 31، 54.	4، 13، 25، 50، 51، 52، 55.
الْفُرْقَان		4، 8، 41، 44، 50، 56.	26.
الشُّعَرَآء	153، 185.	5، 99، 109، 113، 115، 127، 137، 145، 154، 180، 186.	40، 41، 44، 68، 78، 79، 80، 104، 122، 140، 159، 175، 191، 220.
النَّمل	91، 92.	26، 56، 65، 68، 75، 81، 90.	3، 5، 9، 15، 16، 78.
الْقَصَص	50، 78.	19، 36، 58، 59، 70، 80، 84، 86، 88.	16، 30، 52، 53، 58، 70.
الْعَنكَبُوت	17، 25، 50.	18، 24، 29، 43، 46، 47، 49، 64.	5، 26، 42، 52، 60.
الرُّوم		8، 53، 58.	5، 7، 27، 30، 38، 39، 54.
لُقْمَن	27.	28، 32.	4، 5، 9، 26، 30.
السجدة	15.		3.
الأحْزَاب	33، 63.	12، 13، 14، 16، 18، 20، 22، 60.	
سبأ	46.	3، 14، 17، 21، 23، 28، 33، 34، 43، 46، 47.	1، 2، 23، 26، 27.

فَاطِر	6، 18، 28.	3، 11، 23، 24، 39، 40، 42، 43.	3، 13، 15، 31، 32.
يس	11، 82.	15، 17، 29، 30، 47، 49، 53، 54، 69.	81.
الصَّـٰفَّـٰت		15، 35، 39، 164.	60، 77، 106، 116.
ص	24، 65، 70.	7، 14، 15، 65، 70، 87.	35.
الزمر	9، 10، 29.	3، 6.	4، 5، 15، 18، 33، 53، 63.
غَافِر	39، 43.	3، 4، 13، 25، 29، 37، 40، 50، 56، 62، 65، 78.	8، 9، 20، 39، 56، 64، 65.
فُصِّلَت	6.	14، 35، 43، 47.	36.
الشورى	42.	14، 48، 51.	4، 5، 9، 11، 15، 19، 22، 28.
الزّخرف		20، 23، 48، 58، 59، 66.	64، 76، 84.
الدخان		8، 35، 39.	6، 42، 57.
الجاثية		17، 24، 25، 32.	30، 37.
الأحْقَاف	23.	3، 9، 17، 21، 25، 35.	8.
مُحَمَّد	36.	18، 19.	2، 38.
الْفَتْح	10.	15.	29.
الحجرات	15.		7، 11، 15.
قـ		18.	43.
الذَّـٰرِيَـٰت	5.	42، 52، 56.	30، 58.
الطّور	16.		28، 42.
النَّجْم		4، 23، 28، 29، 39.	30، 43، 44، 48، 49.

الْقَمَر		.50	
الرَّحْمَن		.60 ،33	
الْوَاقِعَة		.79	.72 ،69 ،64 ،59
الْحَدِيد	.20	.27 ،22 ،20	.24 ،19 ،12 ،3 ،1
المجادلة	.10	.10 ،7 ،2	.22 ،19 ،18
الْحَشْر		.23 ،22	.24 ،23 ،22 ،20 ،19 ،9 ،8 ،1
الممتحنة	.9		.9 ،6 ،5
الصفّ			.12 ،1
الجمعة			.3
المنافقون			.9
التَّغَابُن	.15	.13 ،11	.16 ،9
الطَّلَاق		.7	
التّحريم	.7		.2
الْمُلْك	.26	.20 ،19 ،9	.29 ،14 ،2
الْقَلَم		.52	.7
الْحَاقَّة		.37 ،36	
المعارج			.31
نُوح		.28 ،27 ،24 ،21 ،6	
الجن	.20		
الْمُزَّمِّل		.9	

الْمُدَّثِّر		24، 25، 31، 56.	
الْإِنسَـٰن	9.	30.	
المرسلات	7.		
لنّبأ		30.	
النَّـٰزِعَـٰت	45.	46.	
عبس			42.
التّكوير		27، 29.	
الانفطار			
المطفّفين		12.	
الانشقاق			
البروج		8.	11، 13، 14.
الطّارق			
الأعلى			
الْغَـٰشِيَة	21.	6.	
البلد			19.
اللّيل		15.	
بيّنة		4، 5.	6، 7.
الكوثر			3.

❖ لم يتمّ إحصاء آيات القصر بالتّقديم ، وتعذّر عليّ ذلك لأنّ بابه عظيم يحتاج إلى بحث منفرد.

قائمة المصادر والمراجع:

اعتمدت في ترتيبها على الحروف الأبجديّة لأوّل الأسماء دون مراعاة (ال) التّعريف وألفاظ (الأب والابن)

ـ **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم، إصدار: دار المعرفة، سورية دمشق، 1429هـ.

أوّلا؛ المعاجم والقواميس:

1ـ البستاني؛ بطرس، محيط المحيط، قاموس مطوّل للّغة العربيّة، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصّلح بيروت، طبعة جديدة 1987م.

2ـ ابن دريد؛ محمّد بن الحسن أبو بكر، جمهرة اللّغة، تح، رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1987م.

3ـ محمّد؛ فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1364هـ.

4ـ ابن منظور؛ جمال الدّين أبو الفضل محمّد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، طبعة جديدة، دار المعارف، القاهرة.

5ـ الفيروز ابادي؛ مجد الدّين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط3، المطبعة الأميريّة، 1978م.

6ـ ابن فارس؛ أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر، 1979م، دط.

ثانيّا؛ التّفاسيـــــــــر:

7ـ الألوسي؛ شهاب الدّين السيّد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار إحياء التّراث العربي، بيروت لبنان.

8ـ الزّمخشري؛ جار الله أبو القاسم محمود، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، مكتبة العبيكات، الرياض، ط1، 1998م.

9ـ أبو حيان الأندلسي؛ محمّد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1993م.

10ـ الطّبري؛ محمّد بن جرير، تفسير الطّبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، هجر للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 2001م.

11ـ ابن كثير ؛ إسماعيل بن عمر أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة، ط2، 1999م.

12ـ أبو السّعود؛ بن محمّد العمادي الحنفي، تفسير أبي السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تح: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السّعادة، مكتبة الرياض الحديثة: الرياض.

13ـ ابن عاشور؛ محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس. 1984م.

14ـ الرّازي؛ فخر الدّين محمّد، التّفسير الكبير أومفاتيح الغيب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.

15ـ الرّاغب الأصفهاني؛ الحسين بن محمّد أبو القاسم، المفردات في غريب القرآن، تح: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت لبنان. دت.

ثالثا؛ <u>أصول الفقه</u>:

16ـ الآمدي؛ سيف الدّين محمّد بن علي، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، دار الصّميعي للنّشر والتّوزيع، دار ابن حزم، بيروت لبنان، 2003م.

17ـ الجيزاني؛ محمّد بن حسين بن حسن، معالم أصول الفقه عند أهل السنّة والجماعة، دار ابن الجوزي، ط1، 1996م، المملكة العربيّة السّعوديّة، الرياض.

18 ـ الزّركشي؛ بدر الدّين محمّد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: أحمد علي، دار الفكر، 2006م، طبعة ذات مجلّد واحد.

19 ..... البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، دار الصّفوة للطّباعة والنّشر، الغردقة، القاهرة، ط1988،1م/ وط2، 1992م.

20 ـ .....، تشنيف المسامع بجمع الجوامع، تح: سيّد عبد العزيز، مكتبة قرطبة، ط2، 2006م.

21 ـ ابن النجّار؛ محمّد بن أحمد بن عبد العزيز، شرح الكوكب المنير المسمّى بمختصر التّحرير، تح: محمّد الزّحيلي، مكتبة العبيكان، 1993م، الرياض.

22 ـ النّملة؛ عبد الكريم بن علي بن محمّد، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن، تحرير لمسائله ودراستها دراسة نظريّة تطبيقيّة، مكتبة الرّشد، ، الرّياض ط1، 1999م.

23 ـ النّملة؛ عبد الكريم بن علي بن محمّد، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة النّاظر في أصول الفقه، دار العاصمة، ط1، 1996م، الرياض.

24 ـ الطّوفي؛ نجم الدّين أبو الرّبيع سليمان بن عبد القويّ، شرح مختصر الرّوصة، تح: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، وزارة الشّؤون الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة، ط2، 1998م.

25 ـ السّيوطي؛ جلال الدّين عبد الرّحمان، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنيّة، مجمع الملك فهد، المملكة العربيّة السّعوديّة.

26 ـ السّمعاني؛ أبو المظفّر منصور بن محمّد بن عبد الجبّار، قواطع الأدلّة في أصول الفقه، تح: عبد الله بن حافظ الحكمي، مكتبة التّوبة، الرياض، ط1، 1998م.

27 ـ العبيدان؛ موسى بن مصطفى، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنّشر والتّوزيع، سورية دمشق، ط1، 2002م.

28 ـ ابن قيّم الجوزيّة؛ أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيّوب، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تعليق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، ط1، 1423هـ، المملكة العربيّة السّعوديّة.

29 ـ .....، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدّة، دت، دط.

30 ـ القرافي؛ شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن إدريس، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، طبعة جديدة منقّحة، دار الفكر، 2004م، بيروت لبنان.

31 ـ .....، العقد المنظوم في الخصوص والعموم، تح: أحمد الختم عبد الله، دار الكتب، ط1، 1999م، المعادي.

32 ـ القرافي؛ شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن إدريس، الاستغناء في الاستثناء، تح: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، ط1، 1986م، بيروت لبنان.

33 ـ الشّوكاني؛ محمّد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، تح: أبو حفص الأشري، دار الفضيلة، ط1، 2000م، الرياض.

34 ـ الشّاطبي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد، الموافقات في أصول الشّريعة، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان، ط1، 1997م، المملكة العربيّة السّعوديّة.

35 ـ الشيرازي؛ إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق، اللّمع في أصول الفقه، تح: محي الدّين ديب مستو ويوسف علي بديوي، دار الكلم الطيّب ودار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط1، 1995م.

36 ـ..... شرح اللّمع، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م، بيروت لبنان.

37 ـ الشّنقيطي؛ محمّد الأمين بن محمّد المختار، نثر الورود على مراقي السّعود، تح: محمّد الشّنقيطي، دار المنارة، ط1، 1995م، المملكة العربيّة السعودية.

38 ـ .....، مذكّرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة.

39 ـ التّفتازاني؛ سعدالدّين، حاشيته على شرح مختصر المنتهى الأصولي، لابن الحاجب أبي عمرو عثمان المالكي، شرح: القاضي عضد الدّين عبد الرّحمان الإيجي، تح: محمّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميّة، ط1، 2004م، بيروت، لبنان.

40 ـ الغزالي؛ أبو حامد محمّد بن محمّد، المستصفى من علم الأصول، تح: حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة، دت.

رابعا؛ <u>النّحو و البلاغة و النّقد و الأدب</u>:

41 ـ إبراهيم أنيس، من أسرار اللّغة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط6، 1978م.

42 ـ أحمد بن فارس، الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تصحيح: المكتبة السّلفيّة، القاهرة، مطبعة المؤيّد، 1910م.

43 ـ الإيجي؛ عضد الدّين، الفوائد الغيّاثيّة في علوم البلاغة، تح: عاشق حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1991م.

44 ـ ابن الأثير؛ ضياء الدّين، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة.

45 ـ ابن جنّي؛ أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمّد علي النجّار، دار الكتب العلميّة، المكتبة العلميّة.

46 ـ الجرجاني؛ عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيّوبي، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، 2003م.

47 ـ دك الباب؛ جعفر، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة الجليل، دمشق، سوريا، ط1. 1980م.

48 ـ درّاز؛ صبّاح عبيد، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيّة، ط1، 1886م، مطبعة الأمانة، مصر.

49 ـ ابن هشام الأنصاري؛ أبو محمّد عبد الله جمال الدّين، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة صيدا بيروت، 1991م.

50 ـ حمودة؛ عبد العزيز، المرايا المقعّرة، نحو نظريّة نقديّة عربيّة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، مطابع الوطن، الكويت، 2001م.

51 ـ حسّان؛ تمّام، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة: 1994م.

52 ـ ..... البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآني)، عالم الكتب، ط1، 1993م.

53 ـ الطّيبي؛ شرف الدّين الحسين بن محمّد بن عبد الله، التّبيان في البيان، تعليق: د. يحيى مراد، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 2004م.

54 ـ كافي؛ أبو بكر بن الطيّب، حاشية الشيخ مخلوف بن محمّد البدوي المنياوي على شرح حلية اللب المصون للشّيخ أحمد الدّمنهوري، وبهامشها حلية اللّب المصون بشرح الجوهر المكنون في المعاني والبيان والبديع، لسيدي عبد الرّحمان الأخضري، مطبعة مصطفى البابي، مصر 1443هـ.

55 ـ أبو موسى؛ محمّد محمّد، دلالات التّراكيب، دراسة بلاغيّة، مكتبة وهبة دار التّضامن، القاهرة، ط2، 1987م.

56 ـ مصطفى؛ جمال الدّين، البحث النّحوي عند الأصوليين، دار الهجرة، قم، إيران، ط2، 1405هـ.

57 ـ نحلة؛ محمود أحمد، في البلاغة العربيّة، علم المعاني، دار العلوم العربيّة، بيروت لبنان، ط1، 1990م.

58 ـ السّهيلي؛ عبد الرّحمان بن عبد الله، نتائج الفكر في النّحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

59 ـ سيبويه؛ أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.

60 ـ السّيوطي؛ جلال الدّين عبد الرّحمان، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، وبهامشه حلية اللبّ المصون على الجوهر المكنون، لأحمد الدّمنهوري، دار الطّباعة للفكر والنّشر، بيروت لبنان.

61 ـ .....، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

62 ـ السّكاكي؛ سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، مطبعة دار الرّسالة، بغداد، ط1، 1982م.

63 ـ السامرّائي؛ فاضل صالح، الجملة العربيّة والمعنى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ/ 2000م.

64 ـ عبد القادر؛ حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة.

65 ـ عطوي؛ رفيق خليل، صناعة الكتابة؛ علم البيان علم المعاني علم البديع، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط: 1، 1989م.

66 ـ العاكوب؛ عيسى علي، وعلي سعد الشتيوي، الكافي في علوم البلاغة، المعاني، الجامعة المفتوحة، 1993م.

67 ـ العلوي؛ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطّراز، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، ط1، 2002م.

68 ـ أبو علي الفارسي؛ الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، المسائل الشّيرازيات، تح: حسن بن محمود هنداوي، كنوز إشبيليا للنّشر، ط1، 2004م، المملكة العربيّة السّعوديّة، الرياض.

69 ـ عتيق؛ عبد العزيز، في البلاغة العربيّة، علم المعاني البيان البديع، دار النّهضة العربيّة، بيروت، دط.

70 ـ الصّعيدي؛ عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المطبعة النّموذجيّة، ط4.

71 ـ القزويني؛ جلال الدّين أبو عبد الله محمّد بن عبد الرّحمان الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان.

72 ـ رجاء؛ عيد، فلسفة البلاغة بين التّقنيّة والتطوّر، ط2، منشأة المعارف، الإسكندريّة.

73 ـ الرّاجحي؛ عبده، النّحو العربي والدّرس الحديث، (بحث في المنهج)، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1986م.

74 ـ الرّازي؛ فخر الدّين محمّد بن عمر بن الحسين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: نصر الله حاجي، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

75 ـ شكري؛ محمّد عياد، اتّجاهات البحث الأسلوبي، أصدقاء الكتاب للنّشر والتّوزيع، ط 2، 1996م، القاهرة.

76 ـ التّفتازاني؛ سعد الدّين، شروح التّلخيص، مختصر سعد الدّين على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، و مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدّين السبكي، وعلى الهامش كتاب الايضاح وحاشية الدّسوقي، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان. دط، دت.

77 ـ خفاجي؛ عبد المنعم، الأسلوبيّة والبيان العربي، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، ط1، 1992م.

خامسا؛ <u>اللّسانيّات والنّحو الوظيفي</u>:

78 ـ أولمان؛ ستيفن، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة: كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، دط، دت.

79 ـ أحمد؛ محمّد قدور، مبادئ اللّسانيّات، ط 3، طبعة مزيدة منقّحة، دار الفكر، دمشق 2008م.

80 ـ بوقرة؛ نعمان، المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب، دراسة معجميّة، جدارا للكتاب العالمي، عمّان الأردن، ط1، 2009م.

81 ـ بحيري؛ سعيد حسن، دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدّلالة، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، دط.

82 ـ بكري؛ عبد الكريم، الزّمن في القرآن الكريم، دراسة دلاليّة للأفعال الواردة فيه، دار الفجر للنّشر والتّوزيع، ط3، 2001م، القاهرة.

83 ـ بنّاني؛ محمّد الصّغير، المدارس اللّسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، 2001م.

84 ـ دك الباب؛ جعفر، النّظريّة اللّغويّة العربيّة الحديثة (دراسة)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1996م.

85ـ دفة؛ بلقاسم، بنية الجملة الطّلبيّة ودلالتها في السّور المدنيّة، منشورات مخبر الأبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، جامعة محمّد خيضر بسكرة، 2008م.

86 ـ زيدان؛ محمود فهمي، في فلسفة اللّغة، دار النّهضة العربيّة، بيروت لبنان، 1985م، دط.

87 ـ حلمي؛ خليل، العربيّة وعلم اللغّة البنيوي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1996م.

88 ـ حركات؛ مصطفى، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة، المكتبة العصريّة، دار الآفاق، دط، دت.

89 ـ طه؛ عبد الرّحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، ط2، المغرب، 2000م.

90 ـ مهيبل؛ عمر، البنيويّة في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط3، 2010م.

91 ـ المهيري؛ عبد القادر وآ خرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990.

92 ـ محمّد؛ محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيّات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004م.

93 ـ المتوكّل؛ أحمد، الوظيفة والبنية، (مقاربات وظيفيّة لبعض قضايا التّركيب في اللّغة العربيّة)، منشورات عكاظ، الرّباط، 1993م.

94 ـ .....، آفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفي، كليّة الآداب، الرّباط، المغرب، ط1، 1993م.

95 ـ .....، الوظيفة بين الكليّة والنّمطيّة، دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرّباط، ط1، 2003م.

96 ـ .....، الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1985م.

97 ـ .....، اللّسانيّات الوظيفيّة (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط2، 2010م، ليبيا.

98 .....، دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفي، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، (المغرب)، 1986م.

99 ـ .....، المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي؛ الأصول والامتداد، دار الأمان، ط1، 2006م، الرّباط.

100 ـ .....، اللّسانيّات الوظيفيّة المقارنة، دراسة في التّنميط والتطوّر، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2012م.

101 ـ المتوكّل؛ أحمد، التّركيبات الوظيفيّة؛ قضايا ومقاربات، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005م، الرّباط.

102 ـ نحلة؛ محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، 2002م.

103 ـ سامسون؛ جفري، مدارس اللّسانيّات، التّسابق والتطوّر، ترجمة: محمّد زياد كبة، مطابع جامعة الملك سعود، 1417هـ، المملكة العربيّة السّعوديّة.

104 ـ عبد الرّحمن؛ الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، موفم للنّشر، الجزائر، 2007م.

105 ـ علوي؛ حافظ إسماعيلي، أسئلة اللّغة، أسئلة اللّسانيّات، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م.

106 ـ العلوي؛ شفيقة، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، ط 1، 2004.

107 ـ فرانسواز؛ أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة: سعيد علّوش، الرّباط، مركز الإنماء القومي، دط، دت.

108ـ صحراوي؛ مسعود، التّداوليّة عند علماء العرب؛ دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، دار الطّليعة ـ بيروت لبنان، ط1، 2005م.

109 ـ روبنز، موجز تاريخ علم اللّغة (في الغرب)، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1997م.

110 ـ الشّهري؛ عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيّات الخطاب، (مقاربة لغويّة تداوليّة)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، 2004م، طرابلس ليبيا.

111 ـ ديوان كثير عزّة، جمعه وشرحه إحسان عبّاس، دار الثّقافة بيروت لبنان، 1971م.

سادسا؛ الرّسائل والمقالات:

ـ الطّاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التّحرير والتّنوير لابن عاشور؛ سورة البقرة نموذجا، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة، تخصّص: الدّراسات اللّغويّة النّظريّة، 2005م، 2006م.

ـ يحيى بعيطيش، نحو نظريّة وظيفيّة للنّحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة في اللّسانيات الوظيفيّة الحديثة، 2005/ 2006م.

ـ محمّد خان، الأدوات النّحويّة؛ بنيتها ووظيفتها، مقال، مجلّة كليّة الأداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة محمّد خيضر بسكرة، العدد: 4، 2009م.

ـ نجاح أحمد عبد الكريم الظهّار، القصر وأساليبه مع بيان أسرارها في الثّلث الأوّل من القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى. دت.

ـ نعيمة الزّهري، الأمر والنّهي في اللّغة العربيّة، سلسلة الأطروحات والرّسائل: 2، جامعة الحسن الثّاني، عين الشقّ.

ـ عماد عبد يحيى الحيالي، الاقتضاء التّداولي وأبعاده الخطابيّة في تراكيب القرآن الكريم، بحث، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، العدد: 1، 2008م.

مقالات على مواقع شبكة الأنترنيت:

ـ طه الجندي، البعد التّداولي في النّحو الوظيفي (بحث)، مجلّة كليّة دار العلوم الشّهريّة، القاهرة، بعدد رقم: 27، 2010م. **http://www.ta5atub.com**

ـ محمّد محمّد يونس علي، مدارس اللّسانيّات؛ المدرسة الوظيفيّة. - **http://www.ta5atub.com** ، 2010.

ـ محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، **http://www.manhal.net**.

ـ رضوان القضماني، وأسامة العكس، نظريّة التّواصل ـ المفهوم والمصطلح ـ مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، العدد (1)2007م.

http://www.mohamedrabeea.com/books/book1_807.doc

مقدّمة :.....أ ـ و.

مدخل : أسلوب القصر.

1ـ تعريف القصر :.....ص :9

أ ـ لغة : .....ص :9

بـ ـ اصطلاحاً :.....ص :11

ج ـ مفهوم الصّفة في القصر :.....ص :13

2 ـ أركان القصر

أ ـ الطرفان : المقصورُ : والمقصورُ عليه :.....ص :13

بـ ـ أداةُ القصرِ :.....ص :14

3 ـ أقسام القصر :.....ص :14

أ ـ باعتبار طرفيه : 1 ـ قصر الموصوف على الصّفة :.....ص :14

2 ـ قصر الصّفة على الموصوف :.....ص :14

بـ ـ باعتبار الحقيقة و الواقع (من حيث المنفي) : .....ص :15

1 ـ حقيقي :.....ص :16

والقصر الحقيقي قسمان؛ تحقيقي ومجازي :.....ص :16

2 ـ إضافي.....ص :18

ج ـ ينقسم القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : قصر الإفراد ، .....ص :18

الثّاني : قصر القلب ، .....ص :19

الثّالث : قصر التّعيين ، .....ص :20

4 ـ طرق القصر : ..... ص :20

أ ـ طرق غير اصطلاحيّة : .....ص :20

UNIVERSITE SETIF2
UNIVERSITE SETIF2

بـ ـ الطّرق الاصطلاحيّة الأشهر المتداولة في كلام العلماء:

1 ـ القصر بالنفي والاستثناء: ص:21

الاستفهام بمعنى النّفي وإلاّ: ص:22

مستلزمات (إلاّ): ص:22

النّفي الضّمني والاستثناء: ص:23

2 ـ القصر بـ (إنّما): ص:23

إنّما وأنّما: ص:24

3 ـ القصر بحروف العطف: ص:24

شروط تحقّق القصر بأدوات العطف: ص:24

4 ـ القصر بتقديم ما حقّه التّأخير: ص:27

صور التّقديم الدالّة على القصر: ص:27

5 ـ ضمير الفصل: ص:29

6 ـ تعريف الطّرفين: ص:30

5 ـ مواضع القصر في الجملة: ص:30

الفصل الأوّل: القصر عند القدماء وبلاغته في القرآن الكريم:

المبحث الأوّل؛ القصر عند القدماء:

1ـ عند علماء النّحو: ص:35

2 ـ عند علماء البلاغة: ص:39

من آراء الإمام بهاء الدّين السّبكي: ص:43

عبد القاهر وإنّما: ص:46

3 ـ عند علماء التّفسير والأصول: ص:48

أ ـ حقيقة مفهوم الحصر: ص:50

ب ـ طرق الحصر بين المفهوم والمنطوق: ص:51

ج ـ التّرتيب بين طرق الحصر: ص:59

المبحث الثّاني؛ بلاغة أسلوب القصر في القرآن الكريم:

1 ـ دلالة جملة القصر: ص:60

2 ـ دور السّياق والمقام في تحديد نوع القصر ودلالته ووظيفته: ص:62

3 ـ مقامات القصر: ص:65

مقامات النّفي والاستثناء: ص:65

دلالات النّفي والاستثناء: ص:66

مقام إنّما: ص:67

دلالات أسلوب إنّما و فضلها: ص:68

دلالات التّقديم ومقامه: ص:69

مقام ضمير الفصل ودلالاته: ص:70

مقام القصر بتعريف الطّرفين ودلالاته: ص:70

مقام القصر بالعطف ودلالته: ص:71

4 ـ موازنات بين طرق القصر (أوجه الاتّفاق والاختلاف): ص:71

5 ـ الأسرار البلاغيّة والجماليّة: ص:73

الفصل الثّاني: بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي المعاصر:

تمهيد: البنية والوظيفة:.....ص:78

1ـ مفهوم البنية:.....ص:78

2ـ مفهوم الوظيفة:.....ص:79

المبحث الأوّل؛ الوظيفيّة البنيويّة، حلقة براغ أنموذجا:

1 ـ وظيفيّة حلقة براغ؛.....ص:81

أ ـ مفهوم البنية عند مدرسة براغ: ص:81

بـ ـ مفهوم الوظيفة عند حلقة براغ:.....ص:82

ج ـ نظرتها الوظيفية للجملة (علاقة البنية بالوظيفة):.....ص:82

2 ـ التّحليل الوظيفي للجملة عند أندريه مارتيني: ص:86

أ ـ التّركيب الإسنادي :.....ص:86
ب ـ الدراسات الصياتية:.....ص:88
التّقطيع المزدوج :.....ص:88
ـ التّقطيع الأوّل :.....ص:89
ـ التّقطيع الثّاني : ص:92
ج ـ علاقة البنية بالوظيفة عند مارتيني :.....ص:94
المبحث الثّاني؛ وظائف اللّغة الأخرى :.....ص:96
المبحث الثّالث؛ بنية ووظيفة جملة القصر من منظور النّحو الوظيفي التّداولي
1 ـ أهمّ مبادئ نظريّة النّحو الوظيفي التّداولي :.....ص:100
2 ـ الجملة والبنية في النّحو الوظيفي بين البناء والإنجاز :.....ص: 101
3 ـ تبعيّة البنية للوظيفة :.....ص:104
4 ـ بنى القصر ووظائفه التّواصليّة :.....ص:108
5 ـ الحصر عند أحمد المتوكّل :.....ص:111
المبحث الرّابع؛ دور المقام والسيّاق في تحديد بنية ومعنى جملة القصر:
1 ـ دور المقام :.....ص:115
2 ـ دور السياق في تحديد المنفي في جملة القصر :.....ص:117
3 ـ دور المخاطب والمتكلّم في بنية جملة القصر :.....ص:118
4 ـ سياق الأسلوب والمعجم ومرمى القصر :.....ص:120
الفصل الثّالث؛ نقد وتقويم
المبحث الأوّل؛ نقد الجانب البلاغي :
1 ـ رأي في أسلوب القصر :.....ص:124
2 ـ رأي في قصر التّعيين :.....ص: 124
3 ـ نقد لرأي عبد القاهر في إنّما :.....ص:126
4 ـ فكرة المخاطب :.....ص:127

5 ـ وظيفة القصر ومهمّته :.....ص :130

المبحث الثّاني؛ نقد النّظريّة الوظيفيّة :

1 ـ أثر النّظريّة الوظيفيّة :.....ص :131

2 ـ نقد الوظيفيّة البنيويّة :.....ص :132

3 ـ نقد الوظيفيّة التّداوليّة :.....ص :133

4 ـ نقد نظريّة فيرث السيّاقيّة : .....ص :133

5ـ وظيفيّة النّحاة والبلاغيين : .....ص :134

6 ـ وظيفيّة الأصوليين والمفسّرين :.....ص :135

المبحث الثّالث؛ مقاربة بين التّراث اللّغوي العربي والنّظريّات الوظيفيّة :.....ص :138

1ـ مبدأ التّقطيع :.....ص :138

2ـ فكرة المقيّد :.....ص :139

3ـ مبدأ المقام :.....ص :139

4ـ مبدأ ارتباط المعاني بسياقاتها المختلفة :.....ص :140

5ـ أفعال الكلام والقوّة الإجازيّة :.....ص :142

6ـ الاقتضاء التّداولي :.....ص :143

7ـ وظيفة اللّغة التّواصليّة :.....ص :144

8ـ مبدأ علاقة البنية بالوظيفة :.....ص :144

المبحث الرّابع؛ تقويم؛

1 ـ تحليل بنيات القصر :.....ص :146

2 ـ المزج بين النّحو والبلاغة ـ علم المعاني خصوصا ـ في التّحليل الوظيفي :.....ص :146

3 ـ فضل الدّراسات العربيّة القديمة على الدّرس الوظيفي المعاصر :.....ص :148

4 ـ ضرورة المناهج الحديثة :.....ص :151

5 ـ ضرورة العلوم في التّحليل والتّفسير:.....ص :152

الخاتمة :.....ص:155

ملحق ـ إحصاء آيات القصر :

أ ـ وفق حقول دلاليّة :.....ص:159

بـ ـ جدول إحصائي :.....ص:178

قائمة المصادر والمراجع :.....ص:183

فهرس المحتويات :.....ص:194

UNIVERSITE SETIF2

الملخّص :

اعتمدت هذه الدّراسة نظريّة النّحو الوظيفي بجانبيه البنيوي والتّداولي ، وخاصّة التّداولي الّذي ظهر في نهاية السّبعينات كردّة فعل جديدة ، بزعامة سيمون ديك الهولندي ، حيث مثّل للجانب التّداولي ، ووسّع النّظر نَحْوَ بناء نَحْوٍ يربط بين البنية والوظيفة ، على أساس أنّ الوظيفة تحدّد البنية ويكون المكوّن الدّلالي والتّداولي سابقين للمكوّن الصّرفي التّركيبي ، وبهذا فلا تمييز بين قدرة نحويّة وقدرة تداوليّة ، وإنّما هي قدرة تواصليّة. والمتطلّع على التّراث اللّغوي والبلاغي العربي يجد أنّ ثمّة قدرا معقولا من توافق النّظر بين تلك الدّراسات والمعطيات المعاصرة ، خاصّة ضرورة الرّبط بين بنية المقال ومقتضيات المقام ، ولا يخفى علينا ما طرحوه من أوصاف بنيويّة لظاهرة القصر والحصر والتّخصيص وظاهرة العناية ، وظاهرة التّوكيد وغيرها من الظّواهر المقاميّة التّداوليّة ، فإسناد وظيفة من هذه الوظائف إلى أحد مكوّنات الجملة تحدّد بنيتها.

Résumé :

Cette étude s’est basée sur la théorie de la grammaire fonctionnelle, à côté structural et pragmatique, En particulier côté pragmatique, qui a apparue à la fin des années soixante-dix, comme une nouvelle réaction. Elle fut dirigé par le Hollandais Simon Dick qui a représenté le coté pragmatique ,et a élargi le champ de vision à une structure qui relie la structure à la fonction en se basant sur le fait que la fonction détermine la structure. Ça a mené à ce que le composant sémantique et pragmatique devancent le composant morphologique et synthétique, ainsi, il n'ya pas de distinction entre la capacité grammaticale et la capacité pragmatique, mais il ya une capacité de communication. Celui qui a l’habitude de feuilleter le patrimoine linguistique et rhétorique arabe constate qu'il ya un consensus raisonnable entre ces études et les données contemporaines, notamment la nécessité de relier la structure de l’énoncé aux exigences du contexte, sans oublier les descriptions structurelle du phénomène de la restriction et de l’exclusivité, le phénomène du soin, le phénomène d'affirmation et les autres phénomènes Contextuels pragmatiques.

Et sur ce, l'attribution d’une de ces fonctions à un composant de la phrase détermine sa structure.